المجتمع والسلطة المخزنية

في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر

(1845 - 1912)

د. أحمد مزيان

الجزء الأول

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية
1428هـ - 2007م

المجتمع والسلطة المخزنية

في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر

(1845 - 1912)

المجتمع والسلطة المخزنية

في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر

(1845 - 1912)

الأستاذ أحمد مزيان

الجزء الأول

1428هـ - 2007م

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

الكتـاب: المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19 م
-الجزء الأول-

المؤلف: د. أحمد مزيان

الطبعة الأولى: 2007

الإيداع القانوني: 2007/2369

ردمك: 9954-0-5106-6

الطباعة والإخراج الفني:

دار أبي رقراق للطباعة والنشر

10، شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط
الهاتف: 83 75 20 037 - الفاكس: 89 75 20 037
البريد الإلكتروني E-mail: edibouregreg@iam.net.ma

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين.

وبعد، مازال النهج المنوغرافي، الذي سارت عليه معظم الدراسات التاريخية الجامعية منذ أربعين سنة أو يزيد، يعطي ثماره كأداة منهجية لفحص ميكانيزمات وأشكال العلاقات الاجتماعية وطبيعتها في أدق تفاصيلها. وكذا علاقات السكان مع السلط الحاكمة عبر مراحل تحكمها في البلاد، سيما إن تمكن الباحث من حشد الوسائل الضرورية لإنتاج المعرفة التاريخية وفق هذا المنظور.

وقد يحلو لبعض الباحثين في التاريخ، ممن لم يسبق لهم سبر أغوار البحث المنوغرافي، توجيه انتقادات لهذا التوجه، ظنا منهم أن ما يقوم به الباحث في التاريخ السالك للمنهج المنوغرافي لا يجاوز به ملء الخانات - التي وضع لها إطارا مسبقا- بمجموعة من المعطيات، يتوخى بذلك اختيار أسهل السبل في البحث. وهذه النظرة المبسطة لهؤلاء المنتقدين مخالفة للواقع، لأن المنهج المنوغرافي يتطلب من الباحث، ليس فقط استغلال ما هو مكتوب، وإنما عليه اختيار بعض الشواهد والوقائع، وسد الثغرات عن طريق البحث الميداني، ناهيك عن استغلال الوثائق المحلية بمختلف أصنافها متى تمكن من الوصول إليها.

وبعد هذا الجهد المضني تأتي مرحلة معالجة المعطيات، من حيث ترتيبها وتحليلها وكشف العلة في بيان المستور بالقراءة المتأنية لما بين السطور، وليس كل ذلك بالعملية السهلة على الإطلاق.

وغني عن البيان أن الباحث لا يدّعي الإمساك بخيوط هذا المنهج وإتقان حرفته، ولا حتى القيام بكل ما يلزم وفق الشروط الموصوفة أعلاه. ونظرا لتوسيع المجال الجغرافي الذي شملته هذه الدراسة، وبما استطاع الباحث جمعه من وثائق جديدة وطنية ومحلية وأجنبية، وما قام به من زيارات ميدانية للمنطقة، مكّنه كل ذلك من تعميق النظر في مجموعة من المعطيات، ومن ذلك فحص التأثير المتبادل بين الطبيعة والإنسان، كما حاول معالجة العلاقات الاجتماعية في تعدد أشكالها من زوايا متعددة، سواء ما تعلق منها بالروابط المنسوجة بين السكان المستقرين في القصور مع سكان البادية الرحل، أو تأثير الزوايا الدينية في حياة ساكنة المنطقة، رحلا ومستقرين، بما كان لها من نشاطات دينية وسياسية واجتماعية، واستخلص منها مجموعة من النتائج ومعللا أسبابها. يجد القارئ خلاصاتها في القسم الأول من هذا البحث.

أما القسم الثاني - الذي يضم معظم أسئلة إشكالية موضوع الأطروحة - فقد خصصه لمعالجة مختلف أوجه العلاقة بين سكان منطقة الجنوب الشرقي مع السلطة المخزنية، والتجأ في ذلك إلى اختيار درجات حضور أدوات سلطة الدولة المادية والمعنوية في المنطقة، بما فيها تنصيب العمال واستخلاص الجبايات، والحاميات العسكرية، والبيعة،والدعاء للسلطان في المنابر وغيرها.

وقد مكنه ذلك من توسيع نظرته لطبيعة وملابسات الخضوع المباشر وغير المباشر لسكان منطقة الجنوب الشرقي المغربي للسلطة المخزنية عبر مراحل زمنية، تطول أو تقصر، حسب قوة الدولة وضعفها. وفي ذات الوقت أولى الاهتمام للمستجدات الظرفية في المنطقة الشرقية منذ أواسط القرن التاسع عشر.

وقد وفق الأستاذ الباحث د.أحمد مزيان في تناوله لهذا الموضوع،الذي قدمه أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ من جامعة محمد الخامس.

ويسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تطبع هذا العمل العلمي الهام، وتعمل على إخراجه ونشره في كتاب لتعميم النفع به، وتحقيق الاستفادة منه من طرف العلماء والمؤرخين المتخصصين، والدارسين الباحثين.

كما يسعد الوزارة ويشرفها أيضا أن تتوجه إلى العلي القدير، أن يجعل ثواب طبع هذا الكتاب في سجل الأعمال الصالحة لأمير المومنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله، ويحفظه ذخرا للبلاد والعباد، وللعلم والعلماء، وأن يقر عينه بصاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي الحسن، ويشد أزره بشقيقه الأمير المولى الرشيد، وأن يحفظه في كافة أفراد أسرته الشريفة، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
أحمد التوفيق

أ

الرموز المستعملة في البحث

خ. ح. ر.	الخزانة الحسنية، الرباط
خ. ع. ر.	الخزانة العامة، الرباط
م. و. م. ر	مديرية الوثائق الملكية، الرباط
م. ع. ت.	المكتبة العامة، تطوان.
خ. ص. س	الخزانة الصبيحية بسلا.
ج. ح. و . م.	جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات،
ميكرو	ميكرو فيلم، الخزانة العامة بالرباط
م. س.	مصدر أو مرجع سابق.
ق. 19 م	القرن التاسع عشر.
ط.	طبعة
مح	محفظة
ج.	جزء
ص.	صفحة
ف	فرنك.

A.M.G	Archives du Ministère de la Guerre, Paris
A.M.A.E	Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris.
A.O.M	Archives d'Outre Mère (Archives du Gouvernement Général de l'Algérie), Aix-En-Provence.
C.A.D.N	Centre des Archives Diplomatiques de Nantes.
B/S.G.A.O	Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran.
B.S.G.A	Bulletin de la Société de Géographie d'Alger.
R.OM.M	Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée.
B.C.A.F	Bulletin du Comité de l'Afrique Française-
R.C	Renseignements Coloniaux.
RG	Revue de la Géographie.
B.SG.E.C.m	Bulletin de la Société de Géographie et d'Etudes Coloniaux de Marseille.

مقدمة

ما زالت منطقة الجنوب الشرقي المغربي تثير تساؤلات عديدة، حول أصول سكانها ومراحل تعميرها في الأحقاب الماضية ما قبل العهد الاستعماري، وحول علاقة البيئة الطبيعية بالتعمير وشكل العلاقات الاجتماعية، خاصة ما بين نمطي الإنتاج المختلفين برابرة مستقرون في القصور، وعرب رحل في الهضاب العليا والمرتفعات الجبلية. وهذه المظاهر الطبيعية والبشرية تغري مختصين عديدين، عدا المؤرخين لجعلها ميدانا لأبحاثهم: كالجغرافيين (1) والسوسيولوجيين والأنتروبولوجيين وعلماء الأجناس واللغات.

ولقد حظيت المنطقة بسلسلة طويلة من المقالات والكتب، ألفها كتاب أجانب فيما قبل الحماية وبعدها (2)، تناولت مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية والثقافية. كما درست البيئة الطبيعية (البنية، التضاريس، المناخ، النبات والحيوان)، وعالجت شكل السكن وتجمعات السكان وأعدادهم ونمط حياتهم، واعتمد غالب هذه الكتابات على التحريات والمخابرة الشفوية مما اختزنته ذاكرة المُسنّين في المنطقة.

وإذا كانت الدراسات الموصوفة قد تميز بعضها بالدقة والموضوعية، يدفعها لذلك جمع الحقائق حول الميدان الطبيعي والبشري لأجل التمهيد لعمليات الغزو

---

(1) على سبيل المثال:

-Ettag, (Boutayeb): Des mutations agro-pastorales à l'organisation dans le Maroc Oriental. Thèse de Doctorat, d'Etat, Université de Toulouse le Mirail, 1987; dactylographiée.

- Bencherifa (A) et Popp (Hubert): "L'oasis de Figuig, persistance et changement", Pub. De la faculté des lettres et des Sciences Humaines, Rabat, Série: Essais et études, n°. 3 Passav, Rabat, 1992

(2) أنظر البيليوغرافيا.

اللاحقة، فإن البعض الآخر مليء بالثغرات والتفاهات، قد يكون مردها الجهل بحقائق الأمور. كما أن الجانب السياسي المتعلق بأشكال الحضور المخزني في المنطقة خلال الفترة المدروسة وما قبلها ضعيف المحتوى، يكرر بعضه بعضا ويغلب على أحكامه تشويه للحقائق، حيث اعتبرت هذه الكتابات الأجنبية وخاصة منها الفرنسية المتشبعة بأفكار التوسع والهيمنة، أن منطقة الجنوب الشرقي طوال تاريخها كانت مجالا منفصلا عن السلطة المخزنية، موكولة إلى نفسها. أو بعبارة أخرى بلاد "سيبة" تهيمن عليها الفوضى ولا تخضع للسلطة المركزية المباشرة، مع أن بعض أصحاب هذه الدراسات يقرون بوجود شكل من التبعية الروحية يعترف بها سكان المنطقة للسلطان بوصفه أميراً للمومنين، إلا أن السلطان -حسب رأي هؤلاء- لم يهتم أو بالأحرى لم يستطع إرسال قواته وموظفيه إلى المنطقة إلا في فترتين منفصلتين بمسافة زمنية واسعة جدا (قرن من الزمن): الأولى في عهد السلطان مولاي إسماعيل في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، والثانية في عهد السلطان المولى سليمان في بداية القرن التاسع عشر (1806)، ثم جاء عهد السلطان مولاي الحسن، فبعث إلى المنطقة بممثل له في أوائل ثمانينات القرن الماضي، بعد فترة انقطاع ثانية للسلطة المخزنية، وذلك بطلب من السلطات الفرنسية -حسب زعم هؤلاء الكتاب- للحاجة إلى مخاطب مخزني يمثل السلطان في عين المكان، ليحل معهم خلافات قبائل الحدود بين المغرب والجزائر.

وقد ظهرت في السنين الأخيرة دراسات تاريخية جادة قضايا الحدود الشرقية للمغرب مع الجزائر في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، ولامست بعض جوانب موضوع هذه الدراسة، وخاصة ما تعلق منها بمواقف المخزن والسكان من توسيع الحدود الجزائرية علي حساب الأراضي المغربية من طرف الغزاة الفرنسيين. بيد أن

هذه الدراسات انحصرت اهتماماتها وإشكالاتها في مناقشة تطور مفهوم الحدود ومراحل الغزو، والوضعية القانونية والسياسية لاتفاقيات الحدود لكل المنطقة الشرقية في جزئيها الشمالي والجنوبي، وهذا يختلف عن جوهر طروحاتنا في هذا البحث (1).

وهنالك دراسة "DUNN ROSS" حول مقاومة سكان الجنوب الشرقي (بمن فيهم سكان واحات تافيلالت) للتوسع الفرنسي، وهي وإن كانت مخصصة لمعالجة الظروف التي تم فيها التوسع ومجابهته من طرف السكان، إلا أن المؤلف عالج فيها مواضيع تتعلق بالبنى الاقتصادية والاجتماعية لمجتمع المنطقة، قبل أن يتطرق للحدث السياسي (مقاومة التوسع) الذي هو جوهر أطروحته. وبما أن هذا البحث بناه بكامله اعتمادا على وثائق الأرشيفات الفرنسية وما أنتجه الكتاب الفرنسيون من كتب ومقالات حول المنطقة وسكانها، وعلى بعض التحريات الميدانية التي قام بها في عامي: 1967، 1969، فإن استنتاجاته الخاصة بعلاقة المخزن المركزي بسكان المنطقة، هي استنتاجات مجانبة للحقيقة، حيث استخلص أن المخزن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان يلعب دور الوسيط، أو لعله لم يستطع سوى لعب هذا الدور ما بين الجماعات المحلية وبين السلطات الفرنسية على الحدود

(1) نذكر على سبيل المثال دراسات "فوجاس" Faujas، "نوردمان" Nordman، العماري... الخ، وستدرج عناوين هذه الدراسات في البيبليوغرافيا.
وقد نوقشت مؤخرا أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، بتاريخ 28 فبراير 1997، أعدها عكاشة برحاب، تحت عنوان: "الدولة ومشكلة الأطراف في مطلع القرن العشرين، نموذج وجدة من سنة 1900 إلى سنة 1912". تناول فيها اتفاقيات الحدود الشرقية، وخاصة منها الشمالية، الموقعة بين المغرب والسلطات الفرنسية في كل من باريز والجزائر في مطلع القرن العشرين، وما نتج عنها من نتائج انعكست سلبا على علاقة السلطة المخزنية المركزية بسكان عمالة وجدة.

الجنوبية الشرقية (1) وهذا الاستنتاج بطبيعة الحال، مبني على مغالطات سببها المصادر والمراجع التي اعتمد عليها، وهي في الغالب ذات طابع إيديولوجي واضح يخدم أهداف الاستعمار الفرنسي. أما واقع الأشياء، فإن المخزن، زيادة على حرصه ليكون المخاطب الرسمي تجاه المسؤولين الفرنسيين فيما ينتج من مشاكل بين رعاياه وبين القبائل الجزائرية على الحدود، كان يرغب في إثبات حضوره بمختلف الوسائل بمنطقة الجنوب الشرقي في هذه الفترة بالذات، لأجل إيقاف مسلسل الانقسام المجالي للدولة المغربية، أو بعبارة أوضح لإيقاف الاقتطاع المتزايد للأراضي المغربية من طرف جيوش الغزو الاستعماري. لذلك نظم السلطان مولاي الحسن عدة حركات لتفقد أطراف البلاد البعيدة من أجل تأكيد السيادة المغربية عليها وإعادة تنظيمها، بإيفاد ممثليه وحامياته العسكرية للإقامة في عين المكان.

(1) Ross E. Dunn: resistance in the desert, (Moroccan responses to french imperialism 1881-1912). The University of Wisconsin Press, 1977; U.S.A

أنظر تحليل مضامين هذا الكتاب بقلم: "FRAN9OIS POUILLON" في مجلة :

<u>Les annales</u>, mai-août 1980, p. 825.

تحديد مجال البحث وزمنه

لقد سبق أن حضرنا دراسة حول تاريخ المنطقة خصصناها لمجتمع قصور الواحة الفجيجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1)، بيد أن هذه الدراسة اكتفت بحيز جغرافي ضيق من منطقة الجنوب الشرقي، لذلك آثرنا في هذه الأطروحة توسيع مجال البحث ليشمل كافة أجزاء المنطقة. لكن ما هي حدود هذه المنطقة تاريخيا إذا ما اعتمدنا ما ينعت "بالأقاليم التاريخية" (2) أو بالمنطقة التاريخية؟

عرفت منطقة الجنوب الشرقي أطوارا مختلفة من التنظيم المخزني، ففي عهد السلطان إسماعيل كانت في البداية تابعة لإقليم تافيلالت، ثم تحولت إلى ولاية مستقلة عاصمتها فجيج، وعلى رأسها على التوالي: مولاي علي ثم مولاي عبد المالك، ويمتد نفوذها الإداري والسياسي إلى بلاد الأغواط. وفي أواخر القرن الثامن عشر، وبداية التاسع عشر، على عهد السلطانين المولى سليمان والمولى عبد الرحمان تقلصت أهميتها وأصبحت إقليما تابعا لعمالة تازة. ونظرا لما طرأ من ظروف جديدة على مجال التخوم الحدودية المغربية الجزائرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أضيفت منطقة الجنوب الشرقي إلى عمالة وجدة في عهد السلطان مولاي الحسن، ثم انفصلت عنها في أواخر ثمانينات القرن الماضي لتصبح عمالة مستقلة بنفسها، وبقيت كذلك إلى عهد الحماية.

---

(1) أحمد مزيان: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (فجيج ما بين: 1845-1906)، الدار البيضاء، مطبعة فجر السعادة، 1988، ص. 592.

(2) Amina Aouchar: “La région historique” dans l’histoire du maoc”. Revue . Maroc-Europe. Rabat, 1993, n° 4

وفي جميع هذه الأطوار التي مرت بها المنطقة، يمكن أن نتساءل هل ارتكز فيها المخزن على معايير مجاليه -جغرافية، أم بشرية، تبعا لتنقل القبائل واستقرارها، أو على معايير سياسية ظرفية؟

لن ننشغل بالإجابة على هذه الأسئلة التي تحتاج إلى دراسة خاصة، بقدر ما نهدف إلى إثارة الانتباه لما يلاقيه المؤرخ من صعوبات لتحديد مجال دراسته، سيما إذا كان الموضوع يقتصر على تناول منطقة معينة من مناطق البلاد تعرضت أطرافها لمد وانحسار طوال قرون من الزمن، كمنطقة الجنوب الشرقي المغربي.

يلجأ المؤرخون في العادة إلى الجغرافيا لتحديد المنطقة التاريخية المراد تناولها بالدرس، لكن العامل الجغرافي لا يكفي وحده، إذ لابد من إضافة معايير أخرى إثنية واقتصادية - تجارية وغيرها (1)، تركت بصماتها خلال حقبة تاريخية طويلة على هذه المنطقة أو تلك. وهذا ما يبين أن سبل الاختيار ليست بالأمر الهين، إذ ليس هنالك دائما مناطق تاريخية واضحة المعالم تعرض نفسها بسهولة على المؤرخ ليتخذها ميدانا للبحث.

(1) نكتفي هنا بإدراج بعض النماذج ممن اعتمد العامل الجغرافي مقرونا بالعوامل المذكورة أعلاه، لتحديد منطقة البحث:

-Geramain (A): les origines de la guerre du Rif. Publication de la Sorbonne. S.M.E.R. Rabat, 1981.

- Mezzine (L): "Le Tafilalt contribution à l'histoire du Maroc au XVII° et XVIII° siècle. Pub De la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1987.

– عبد الرحمان المودن: البوادي المغربية قبل الاستعمار (قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر). منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات، رقم 25، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1995.

– حسن الفكيكي: مقاومة الوجود الايبيري بالثغور الشمالية المحتلة، 1415-1574.
أطرحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ. ونوقشت بكلية الآداب، الرباط، مرقونة بالآلة الكاتبة، 1990 .
وقد حدد موضوعه جغرافيا في ما يسمى (بإقليم الهبط)، أنظر: ج. 1، ص. 25 .

وفي حالة موضوع بحثنا إذا ما اعتمدنا المعيار الجغرافي الفيزيائي، أي مجموع العوامل الطبيعية (وحدة التضاريس والمناخ والنبات)، وكذلك العوامل البشرية، كاختلاط قبائل الحدود واختراق مجالات رعي بعضها البعض، وتشابه أنماط الإنتاج على مستوى الهضاب العليا المغربية -الجزائرية، ومجالات القصور، فإن الوحدة الطبيعية والبشرية لهذه المجالات يجب أن تمتد حدودها إلى عمق وسط البلاد الجزائرية حاليا. بيد أنه لا يمكن لباحث واحد أن يستقصي تاريخ هذه المجالات الموصوفة نظرا لشساعة مساحتها وتعدد قبائلها وقصورها، وارتأينا أن نركز على وحدة الحدث التاريخي، فاقتصرنا على منطقة الجنوب الشرقي المغربي بحدودها الحالية، وأضفنا إليها شريطا محدودا من الأراضي في أقصى الجنوب يتاخمها مباشرة وراء الحدود (1)، تسكنه بعض القبائل والقصور التي ارتبطت بباقي سكان الجنوب الشرقي حاليا، ارتباطا عضويا على مر العصور، قبل الغزو الاستعماري لمناطق الحدود واقتطاع أجزاء هامة من الأراضي المغربية وإلحاقها بالجزائر بموجب اتفاقيتي: 1845-1901 .

وقد استثنينا من ساكنة هذا الشريط قبيلتي: أولاد جرير وذوي منيع لضرورة إجرائية تتعلق في الأساس بعدم عثورنا على ما يكفي من المادة المصدرية لإدراجهما في البحث، ومع ذلك، فإننا لم نغفل الإشارة إليهما في كل فصول البحث لأجل المقارنة وتوثيق الحدث كلما عثرنا على ما يفيد في ذلك.

(1) أورد عبد الله العروي في أطروحته خريطة للمناطق التاريخية في المغرب في القرن التاسع عشر، تضم أربعة عشر منطقة من ضمنها منطقة الجنوب الشرقي تتطابق إلى حد كبير مع التحديد الذي رسمناه لمجال هذا البحث.

- A. Laroui: Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912). F. Maspero, Paris, 1977, p. 22.

لقد كان احتلال الفرنسيين للجزائر وامتداد أطماعهم التوسعية إلى الحدود الشرقية المغربية قد جعل من المنطقة محط اهتمام كبير من لدن السلطة المخزنية لم تكن تحظ به من قبل، لذلك طبعت هذه المرحلة بطابعها على شكل العلاقة القائمة بين المخزن وسكان المنطقة وبالأخص في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي. وهذا ما حدا بنا إلى اختيار عام 1845 الذي وقعت فيه معاهدة مغنية لتسطير حدود الشمال الشرقي، وتقسيم قبائل وقصور جنوبه بين المغرب والجزائر، كحدث ذي مدلول تاريخي كبير، نتجت عنه مضاعفات سلبية ومؤثرة للغاية على مستقبل حياة سكان المنطقة، وعلى السيادة المغربية في هذا الطرف من البلاد على السواء.

أما عام 1912، فإنه يشكل ختاما لمرحلة وبداية لأخرى جديدة فقد فيها المغرب سيادته واستقلاله، مع أن احتلال منطقة الجنوب الشرقي قد حدث قبل ذلك ببضع سنين.

مصادر البحث

◆ الوثائق

لقد بنينا معظم هذه الأطروحة على وثائق الأرشيفات الوطنية والأجنبية وعلى أوراق الخواص في المنطقة، وكلفنا جمعها متاعب كثيرة وتنقلات عدة داخل المغرب وخارجه. وما كان لهذا البحث أن يتم إنجازه لولا ما اجتمع بيدنا من كم وثائقي كبير ومتنوع، وغني عن البيان أن قسما كبيرا من هذه الوثائق والكتب المخطوطة لم يسبق لنا الاطلاع عليها عند تحضيرنا للبحث السابق حول الواحة الفجيجية.

وثائق المديرية الملكية

حصلنا منها على ما يزيد عن ثلاثمائة وثيقة، تتراح تواريخها ما بين: 1225-1333 هـ / 1811-1314 م. قسم منها نقل بأصوله أو استنسخ من وثائق الخزانة الحسنية بالرباط، ومن أرشيف مكتبة تطوان، والبعض الآخر من جهات أخرى، بما فيها وثائق الخواص ووثائق بقيت في حوزة كبار الموظفين المخزنيين قبل عهد الحماية. وقد شكل هذا المجموع الوثائقي دعامة أساسية لبحثنا، لما يزخر به من غنى في المضامين وتنوع في المواضيع، ومن ذلك بعض القوائم والأرقام الخاصة بعدد عساكر الإدالة المخزنية المرسلة إلى فكيك ومراتب ضباطها ومصاريف تموينها. وتتميز هذه الوثائق في مجملها بكتابة واضحة وأسلوب سهل، إلا ما تعلق منها برسائل جماعات القبائل والقصور وبعض العمال المخزنيين إلى السلطة المركزية، فإن الكثير من نصوصها تتخللها كلمات عامية وركاكة في الأسلوب.

أما المصدر الثاني من الوثائق المخزنية التي أطلعنا عليها فتضمه كنانيش الخزانة الحسنية، وهي مصدر غني بالمعلومات المتعلقة بتاريخ المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولم يعد من الصعب على الباحثين استغلالها بفضل ترتيب وتبويب محتوياتها في الفهرس المجعول لها في السنوات الأخيرة. وتضم هذه الكنانيش ملخصات لأصول المراسلات المخزنية الصادرة من مركز الحكم والواردة عليه، لكن بعض ملخصات الكنانيش المذكورة اختزلت بشكل أفقدها وحدة بنائها العام، وشوش معاني ما تضمنته من معلومات. وقد وقفنا على ذلك بمقارنة النصوص الكاملة لبعض الرسائل التي حصلنا عليها في صورها الأصلية مع ملخصاتها في الكنانيش، ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى تباين مستوى ثقافة كتاب المخزن المشتغلين بهذه المهمة، ومدى تقديرهم الشخصي للأهم والزائد من القول الوارد في الرسائل الصادرة والواردة مما يراد تلخيصه في الكنانيش، مع أن بعض المحذوفات من أصول الرسائل الملخصة، حتى ولو كانت تكرارا، أو وقع إسقاط بعض أسماء الأعلام والأماكن منها عن عمد، أو تم تحريفها عن جهل، قد يجدها المؤرخ ذات أهمية بالغة لتوضيح مغالق الرسالة وفهم مضمونها على الوجه الصحيح.

وقد أمكننا الاطلاع على حوالي ثمان وأربعين كناشا تختلف في ما بينها من حيث الحجم والسمك، لكننا لم نستفد عمليا إلا مما مجموعه ثلاث وعشرين كناشا، تتراوح تواريخها ما بين: 1276-1329 هـ / 1859-1911 .

وثائق الخزانة العامة

استفدنا من خمس ميكرو فيلمات تهم أحداث المنطقة في القرن التاسع عشر وبداية العشرين، تحتوي على صور لنصوص كاملة من الوثائق المخزنية في ملكية الخواص حصلت عليها الخزانة ضمن مسابقة جائزة الحسن الثاني للوثائق والمخطوطات. وأغلب هذه الوثائق رسائل متبادلة بين المخزن المركزي وأصحاب السلطة والنفوذ في المنطقة الشرقية.

وثائق مكتبة تطوان

اطلعنا فيها على ست عشرة محفظة تضم أعدادا متباينة من الوثائق المخزنية مما كان في حوزة المخزن بطنجة قبل عقد الحماية، ويغلب على الوثائق المستفاد منها في موضوعنا، جانب قضايا ومشاكل الحدود المغربية الجزائرية التي تم فيها تبادل الرسائل بين المخزن المركزي والمسؤولين الفرنسيين، في كل من باريز والجزائر على أيدي نواب المخزن بطنجة وسفراء الدولة الفرنسية بهذه المدينة. ولقد تبين لنا من خلال قراءتنا لمجموع الوثائق المخزنية المتعلقة بالمنطقة في هذه الظرفية التاريخية، غلبة المراسلات المعبرة عن هموم المخزن والسكان تجاه الأخطار الناجمة عن التوسع الأجنبي في أراضي الحدود الشرقية، وكذلك مشاكل الصراعات القبلية وحفظ الأمن.

الوثائق المحلية

قمنا بتحريات ميدانية في المنطقة للاطلاع على أوراق الخواص، فاتصلنا بعدد من أرباب العائلات ممن تقلد أجدادهم مناصب سياسية كالقيادة والمشيخة والعضوية في الجماعات المحلية، سواء كانوا رحلا أو قصوريين، أو تقلدوا مناصب دينية كالقضاء والعدالة والاشتغال بالعلم بوجه عام. كما اتصلنا بأحفاد كبار

التجار وملاك الماء والأراضي الزراعية حسب المستوى النسبي للثروة في المنطقة خلال الفترة المدروسة. وقد مكنتنا التحريات المذكورة التي قمنا بها ما بين عامي: 1989-1994، من جمع كمية وفيرة من وثائق الخواص حصلنا على البعض منها في هيآتها الأصلية والكثير منها سمح لنا أصحابها بأخذ نسخا مصورة. وقد أضفنا إلى هذا الكم الذي جمعناه، جزءا مما تم لنا جمعهُ خلال تحرياتنا السابقة لتحضير دبلوم الدراسات العليا. وتتميز هذه الوثائق الخاصة بالتنوع في مواضيعها، وفي الأغراض التي كتبت من أجلها، وتختلف من حيث وضوح الكتابة ودقة التعبير وسلامة الأسلوب، بعضها كتب بلغة سليمة خالية في مجملها من الأخطاء، والبعض الآخر كتب بأسلوب ركيك، ازدوجت فيه التعابير والجمل العربية الفصيحة والدارجة، بل تتخللها أحيانا كلمات بربرية محلية، وهذه الأخيرة وردت في بعض أوراق القصور، وتتعلق بعقود الملكيات الزراعية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن معظم هذه الأوراق لم تكتب لأجل التاريخ، بل كتبت لتوثيق ما كان يشغل هموم الحياة اليومية لمجتمع المنطقة، سواء منها البدو الرحل أو سكان القصور المستقرين، ما عدا بعض التقاييد المؤرخة لوقائع وتواريخ وفيات مشاهير رجالات المنطقة كرؤساء الزوايا وغيرهم. بالإضافة إلى عثورنا ضمن أوراق الخواص على بعض الرسائل المخزنية عند حفدة من تولى أجدادهم مناصب القيادة والمشيخة.

إن الوثائق المحلية توفر لمن حصل عليها في إطار التأريخ للمجتمعات المحلية إمكانيات بالغة الأهمية لتوضيح أوجه العلاقة بين المحلي والعام، أو لسد ثغرات الوقائع التي يشترك في صنعها مجتمع المنطقة مع أطراف أخرى خارجية، ناهيك بالإمكانيات التي تتيحها للمؤرخ لسبر أغوار تطور حياة المجتمع المحلي في

أدق تفاصيلها تصل أحيانا إلى تسجيل اليومي من حياة المجتمع المحلي في أدق تفاصيلها تصل أحيانا إلى تسجيل اليومي من حياة المجتمع المحلي. لكن هذه الصورة الإيجابية لا يمكنها أن تحول بينا وبين ذكر ما يشعر به الباحث أحيانا من الإحباط عندما يعثر على وثيقة وردت فيها الإشارة عرضا لحدث مهم، ثم لا يجد بعد البحث والتنقيب المضنيين وثائق أخرى من نفس الجنس لتوضيح ذلك الحدث، أو أن يجد الباحث أرقاما متناثرة لمعاملات تجارية كأسعار المواد أو أثمان العقارات وما إلى ذلك، دون أن يتمكن بواسطتها من وضع سلسلة أرقام متتابعة لفترة زمنية محددة لأجل رصد درجة ونوعية تلك المعاملات.

وخلال تحرياتنا الميدانية في المنطقة قمنا في صيف عام 1993 بزيارة زاوية الولي محمد بن أبي زيان وضريحه (الزاوية القندوسية) بمدينة القنادسة داخل الجزائر على بعد حوالي 120 كلم جنوب غرب الواحة الفجيجية، لكننا لم نتمكن من الاطلاع على ما يفيد من بقايا أوراق الزاوية. وتتكون أوراق الخواص التي حصلنا عليها في المنطقة من الآتي:

✔ خطب الجمع الأسبوعية

✔ عقود ملكيات الماء والأراضي الزراعية وأشجار النخيل في واحات: فجيج وبني ونيف وإيش.

✔ رسوم التركات والأحباس.

✔ جرد لبعض أثاث البيت عند ساكنة القصور وأثاث الخيمة عند الرحل.

✔ عقود المعاملات التجارية وأشكال العلاقة الثقافية والاجتماعية التي تربط الرحل بالقصوريين.

- ✔ رسائل شيوخ الزوايا الدينية إلى المقدمين والأتباع.
- ✔ عقود تتعلق بالبيع والشراء في العبيد وما ينشأ من نزاعات حول انتقال ملكيتهم من مالك إلى آخر.
- ✔ عقود اتفاقيات الصلح المعقودة بين فرقاء النزاع في المنطقة ورسائل شكاويهم إلى السلطة المخزنية المركزية.

أما الكتب المخطوطة فستأتي الإحالة عليها في الببليوغرافيا، بيد أننا نفضل الإشارة هنا إلى ما قدمته لنا المؤلفات الحجية من معلومات مفيدة في كتابة القسم الأول من هذه الأطروحة، وتدخل هذه المولفات في صنف ما ينعت بأدب الرحلة، كتبت بلغة حية مباشرة وردت فيها معطيات مهمة عن حياة مجتمعات المنطقة الواقعة على خط الرحلة وقت مرور ركب الحجيج، وهذه المؤلفات لم تكتب من أجل التاريخ بل كان الهدف من ورائها تنوير المقبلين الجدد على الحج، بمسالك الطرق الآمنة والاستعداد للسفر الطويل وإعداد الزاد والتنبيه لما يلاقيه الحاج المسافر من ضروب المحن والمشاق. بالإضافة إلى رغبة مؤلفي هذه الرحلات لتسجيل انطباعاتهم الشخصية عن كل ما شاهدوه مباشرة في طريقهم في الذهاب والإياب، من مظاهر طبيعية كالأحوال المناخية وتأثيرها على النبات وعلى نشاط الإنسان، ورصد المجاري والنقط المائية وغيرها. كما أوردوا أوصافا حية عن أحوال المعاش كالإنتاج الزراعي وطرائقه، وعن الحرف الصناعية والبيع والشراء في الأسواق، وعن العادات والتقاليد، وما دار من نقاشات فقهية جمعت هؤلاء الرحالة الحجاج مع فقهاء البلدان التي مر بها ركب الحجيج.

الوثائق الفرنسية

تم لنا الاطلاع على الوثائق العسكرية بأرشيف قصر "فانسين" بباريز، ووثائق إرشيف ما وراء البحر بمدينة "إكس. آن بروفانس"، خلال سفرتين إلى فرنسا، قمنا بهما في صيف عام 1987 وعام 1990. وقد أولينا اهتمامنا لهذين الأرشيفين بالنظر لما شغلته منطقة الحدود الجنوبية الشرقية من أهمية كبيرة في مخططات سياسة التوسع لدى القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر. ولهذا السبب انكببنا بوجه خاص على مراجعة وثائق السلسلة "" الخاصة بالجزائر في أرشيف ؛فانسين" وعلى وثائق مقر الوالي الفرنسي بمدينة الجزائر، المنقولة إلى مدينة "إكس. آن. بروفانس".

ويشكل الأرشيفان ذخيرة وثائقية هامة يكمل أحدهما الآخر حول تاريخ المنطقة الشرقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي، على الرغم من أن عددا من التقارير والمراسلات الموجودة بالأرشيفين يكرر بعضها البعض. ويتضمن أرشيف "إكس. آن بروفانس" صناديق توجد بها العديد من الوثائق العربية في أصولها، بعضها على شكل ملفات كاملة تهم مراسلات الشيخ بوعمامة وباقي الزعامات البوشيخية، وكذلك مراسلات "الأغوات" وقواد القبائل الجزائرية المحادية للحدود المغربية مع القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر، وعلى العموم، فإن الوثائق الفرنسية المتعلقة بتاريخنا الوطني في هذه المرحلة، تعبر عن اهتمامات الدولة الفرنسية وأطماعها التوسعية في المنطقة وعن درجة معرفة كتابها بالمجتمع والمجال المغربيين، ويمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم موضوعي معرفي بالدرجة الأولى، ويخص وصف المجال الطبيعي وظروف تكيف السكان به، بالإضافة إلى أوصاف حول الحياة المادية للمجتمع في أوجهها المختلفة. لذلك فإن

لهذه الأوصاف أهمية بالغة بالنظر لما تتضمنه من معلومات تتسم بالجدة والكثافة والإحاطة، إذ تطلعنا على بيانات وصفية وحسابية حول مختلف مكونات البنى الاجتماعية قد لا تلتفت إليه المصادر الوطنية ولا المحلية، والقصد من ذلك الوصول إلى تكوين صورة واضحة ودقيقة حول المجال والسكان لتوظيف تلك المعلومات في مشاريع التوسع. ومن المفيد الإشارة إلى بعض الملاحظات التي خرجنا بها من مطالعة وثائق الأرشيفين المذكورين، بعدما ذكرنا من قبل بالأهمية البالغة التي تكتسيها الوثائق الأجنبية عامة والفرنسية منها على وجه الخصوص، في معرفة تاريخنا الوطني المعاصر، ونختصر ملاحظاتنا في الآتي:

✔ الاهتمام برصد الأماكن وذكر أسمائها المعروفة محليا، رغم كتابتها في بعض الأحيان بشكل مبهم بسبب صعوبة النطق باللغة العربية أو الأمازيغية عند نقل مدلول اللفظ إلى الفرنسية.

✔ الاهتمام الزائد بتفاصيل كل حدث وبجزئياته ولو كان حدثا بسيطا توخيا للدقة.

✔ تعدد الإخبار المتضمن لنفس الأوصاف حول حادثة واحدة أو خبر منقول.

✔ تعمد القادة العسكريون أحيانا إخفاء حقائق الهزائم التي تكبدوها أو تبرير مغامراتهم العسكرية.

✔ بساطة الأسلوب وخلوه من التعقيد، وقد تتخلله أحيانا أغلاط لغوية.

✔ تجمع المعلومات في الغالب بالمشاهدة العيانية ومن كلام المخبرين، وهذا الصنف الأخير يخضع في أكثره للفرز والتمحيص، أو يشار في تقارير الضباط المرفوعة إلى مراكز القرار السياسي والعسكري في كل من باريز ومدينة الجزائر،

لتوخي الحذر من خبر معين منقول. ومع ذلك فإن بعض المعلومات المتعلقة بالحياة الاجتماعية والدينية للسكان تتسم بالسطحية وإطلاق الأحكام السهلة والاستنتاج السريع، بل تكون مغلوطة أو مبالغا فيها. ويرجع سبب ذلك إلى الجهل بالعادات والتقاليد واللغة المحلية، وكذلك لاعتمادهم أحيانا على مصداقية عملائهم المخبرين إن كان الإخبار أحادي الجانب، يتعذر عليهم اختباره مع ما ينقله مخبرون آخرون.

وقد تم لنا الاطلاع على حوالي: 68 صندوقات من وثائق الأرشيفين معا حسب التالي:

أرشيف "فانسين" (Fonds Algérie) سلسلة "IH"، وضمنه استفدنا من 24 صندوقا. واستفدنا كذلك ضمن سلسلة "3H": الخاصة بالمغرب (Fonds Maroc) من

14 صندوقا، بالإضافة إلى ثلاثة صناديق من الوثائق الخاصة كانت بحوزة أصحابها رمز لها في الأرشنيف بسلسلة: K .

1K.1999, 1K. 99

وأطلعنا كذلك على صندوقين من سلسلة "MR" وهما:

MR. 1313, MR: 881

أما في أرشيف مدينة "إكس. آن. بروفانس" فقد تم لنا مطالعة محتويات حوالي: 30 صندوقا موزعة على سلسلات الأرشيف التالية:

سلسة 1J.	15 صندوقا
سلسلة. 30 H .	9 صناديق
سلسلة 22 H .	3 صناديق
سلسلة 4H .	3 صناديق

وتجب الإشارة كذلك إلى ما تكتسيه الخرائط الطبوغرافية المبثوتة في صناديق الأرشيفين، أو هي مستقلة بصناديق خاصة، من أهمية كبيرة في توضيح تضاريس المنطقة والأبعاد المسافية ومواقع التجمعات السكنية والرقعات الزراعية والأودية والنقط المائة المتفجرة أو المحفورة، ومسالك الطرق القديمة. والأهم من ذلك بالنسبة للمؤرخ هي الجهود المبذولة في هذه الخرائط لأجل رصد الأماكن الطبونيمية القديمة، إذ بواسطتها تمكنا -بعد الاطلاع على ما جاء به ابن خلدون في تاريخه- من تصور ملامح تعاقب استيطان العناصر الإثنية البربرية والعربية في المنطقة في ما يشبه تعاقب الطبقات الصخرية الجيولوجية.

وعلى العموم، تتميز مصادر هذا البحث بالتنوع، وتسيطر الوثائق من حيث الكم على مجموع فصول الأطروحة، وخاصة منها فصول القسم الثاني، بل يتحكم هذا الكم الوثائقي في توجيه الإشكالية وتوزيع الفصول.

إشكالية الموضوع والمنهج

وضعنا سؤال الأطروحة على الشكل الآتي: ما هي طبيعة العلاقة التي كانت تربط السلطة المخزنية بالمجال والسكان في منطقة الجنوب الشرقي المغربي، كطرف من أطراف البلاد، في الفترة ما قبل الاستعمار؟

وكان لابد لهذا السؤال المحوري أن تتفرع عنه أسئلة فرعية تتباين فيما بينها من حيث الشمولية والتفرد، تجيب عنها مضامين فصول القسمين المكونين للأطروحة.

فالقسم الأول بنيوي يعالج مجموعة من القضايا ذات الأهمية في نظرنا تتعلق بالنسيج الداخلي لحياة المجوعات المتساكنة في المنطقة. وقد انطلقنا في

الفصل الاول من الخصوصيات الطبيعية للمنطقة، المتميزة بقحولة المناخ واتساع المساحة وانبساطها، وكيف أن المنطقة تحتل موقعا متاخما للحدود الجزائرية في أقصى الجنوب الشرقي المغربي، يبعد بمسافات طويلة عن مراكز السلطة المخزنية. كما بحثنا عن جذور التعمير وتنوع أصول السكان وتكيفهم مع محيطهم البيئي.

في **الفصل الثاني** لاحظنا أن مجتمع منطقة الجنوب الشرقي ينقسم إلى نمطين معاشيين مختلفين: سكان مستقرون في القصور يشتغلون بالزراعة والتجارة والصنائع اليدوية، وسكان رحل يحترفون رعي الماشية في الهضاب العليا والمرتفعات الجبلية. وقد حاولنا تحليل شكل العلاقة القائمة بين هذين النمطين المعاشيين الناتجين عن نوعية الوسط الطبيعي وعن إرث التاريخ (1)، قبل فترة الدراسة بقرون عديدة، ليس فقط على مستوى تبادل المنافع الاقتصادية، بل تطرقنا إلى الأشكال الأخرى من العلاقات الاجتماعية والدينية والثقافية. كما ناقشنا حقيقة المتداول من الخبر حول تحكم القبائل الرحلية في سكان القصور، وبينا أن هذه الظاهرة معقدة تتداخل فيها عدة عوامل متشابكة، ولذلك تختلف صورة الواقع من جهة إلى أخرى، حسب أحجام القصور وحضور السلطة المخزنية أو غيابها.

وخصصنا **الفصل الثالث** لظاهرة انخراط غالبية سكان المنطقة في الطرق الصوفية (الدينية)، وركزنا فيه بالخصوص على نشأة الزوايا الدينية المحلية وتطورها وتأثير نفوذها على السكان. كما ناقشنا العلاقة القائمة بين رؤساء هذه الزوايا والحكم المركزي، ومدى تأثير بعد المجال بين مواقع هذه المؤسسات الدينية

(1) Olivier Dolfus: L'espace géographique, Que sais-je?, 1977, p. 9

وبين مراكز الحكم المخزني، وبينا أن الفترة التي ظهرت فيها نواة الزاويتين الرئيسيتين في المنطقة (الكرزازية والقندوسية) أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلاديين يتزامن مع فترة حكم السلطان مولاي إسماعيل، ولعل ابتعاد مؤسسي الزاويتين إلى تلك الأطراف القاصية من دولة مولاي إسماعيل آنذاك، ذو ارتباط بموقف هذا السلطان من نشاط الزوايا، واهتمامه بمراقبتها. وأوضحنا كذلك أن العامل الديني له دور في خلق المجال وتحوله ، إذ حولت الزاويتان هذه الرقعة الجغرافية مما يسمى ببلاد الساورة من أراضي جرداء لا أهمية لها إلى مجال عمارة وحركة تقصدها القوافل الحجية، وتبرم فيها الاتفاقيات السياسية بين القبائل. وكثيرا ما تتخذ الزاويتان كمعبر لتسريب القرارات والمواقف السياسية المخزنية والترويج لها بين جماعات القبائل والقصور، بما للزاويتين من نفوذ روحي على السكان.

أما فصل: المجال السياسي ومجال القبائل، وهو **الفصل الرابع** من هذا القسم، فقد تتبعنا فيه سيرورة نشوء الهوية المغربية للمنطقة منذ العهد السعدي على الأقل، الذي استندنا على وثائقه، وكيف تطور مجال السلطة المخزنية في المنطقة منذ ظهور نواة الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين. وخلال ذلك وضحنا أيضا كيف كان تصور المخزن للمجال التابع له بمن فيه من القبائل وسكان القصور، وما هو تصور السكان لمجالاتهم الخاصة من جهة، ومدى وعيهم بانتمائهم للدولة المغربية من جهة ثانية.

في القسم الثاني من الأطروحة الذي يعالج لب الإشكال المركزي، طرحنا فيه عددا من الأسئلة، واعتمدنا للإجابة عليها على مجموعة من الآليات المادية والرمزية لتحليل علاقات السلطة المخزنية بالسكان والمجال في المنطقة. وفي

خلاصة هذا القسم، حاولنا تعليل ما توصلنا إليه من النتائج، وبينا الأسباب التي جعلت تلك النتائج على ذلك المستوى الذي تطورت إليه، رغم ما بذله المخزن المركزي من جهود في الربع الأخير من القرن الماضي.

درسنا في **الفصل الاول** مسألة التمثيل المخزني في المنطقة في مرحلتي: الشغور والحضور المباشر، وتساءلنا خلال هذه المرحلة الأخيرة عمن يحكم السكان، قواد وعمال المخزن أم الجماعات المحلية؟ وبحثنا في نقطة إرسال العساكر المخزنية إلى المنطقة عن تطور أعدادهم، وكيف أن عمال المخزن وجماعات بعض القصور والقبائل ما انفكت مراسلاتهم إلى المخزن المركزي تلح عليه لتعزيز حامياته العسكرية في المنطقة، لحفظ الأمن ومجابهة الأطماع الأجنبية.كما تحدثنا عن أزمة تموين هذه الحاميات العسكرية وعواقبه.

في **الفصل الثاني** تطرقنا إلى مشكلة الجباية، واستعرضنا مختلف أنواعها مما كان يؤخذ من السكان، سواء كانت جبايات شرعية أو وظائف وسخرة ومكوس الأسواق، وحللنا مستوى ووسائل المخزن لاستخلاصها. ومن جملة ما استخلصناه من هذا الفصل، أن قبائل المنطقة الجنوبية الشرقية كانت تؤدي للمخزن تحت ظروف قاهرة حقوق ولوجها لأسواق الشمال الشرقي من أجل كيل الزرع، وتؤدي أحيانا ما يفرض عليها من ذعائر، أكثر مما كانت تؤديه من الجبايات الشرعية عن طواعية.

ودرسنا في **الفصل الثالث** مجموعة من أدوات السلطة المخزنية ذات الطابع الرمزي، كالتحكيم والرسالة والوفد والبيعة وذكر اسم السلطان والدعاء له في خطب الجمع على المنابر، لقياس درجة تأثيرها في تعزيز روابط السكان بسلطة الحكم المركزي. ومن جملة ما توصلنا إليه في هذا الشأن أن بعض هذه الأدوات

الرمزية لم تعرف أي انقطاع في كل مراحل الدولة العلوية منذ قيامها في علاقاتها بسكان المنطقة.

أما الفصلين الاخيرين: الرابع والخامس، فقد حللنا فيهما مراحل الغزو الفرنسي للمنطقة ووسائله، وكيف واجه المخزن والسكان هذا الغزو، تبعا لموقع كل منهما وإمكاناته الدفاعية، وتبعا كذلك لتقديره للنتائج المترتبة عن المجابهة المفتوحة ومدى خطورتها.

وقد بينا في الفصل الخامس ما نتج عن هذا الغزو الفرنسي من نتائج سلبية على حياة السكان وعلى المجال الترابي للدولة المغربية، وكيف أن الفرنسيين تمكنوا في وقت مبكر قبل عقد الحماية من بسط سلطتهم على كامل المنطقة وسكانها.

ولأجل الخروج بالنتائج المرجوة جهد المستطاع من تحليل فصول هذه الأطروحة، سخرنا ما نملك من كم وثائقي متنوع باختلاف منطلقاته ومقاصده لتوضيح فكرة، أو ترميم بناء حادثة مشغورة، أو الكشف عن مضمر أو ادعاء ومغالطة، استنادا إلى تعديد الشواهد والمقارنة بين الوثائق وغيرها من المصادر والمراجع الأخرى المسخرة في هذا البحث. ولم نغفل في تحليلنا ربط وقائع ماضي المنطقة بالتاريخ الوطني، بل دفعت ظرفية النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالمنطقة إلى الانخراط في الحدث الدولي بعدما أصبحت هدفا للغزو الاستعماري الفرنسي انطلاقا من الجزائر، وما تبع ذلك من جدال ما بين الدولة الغازية وقوى استعمارية أوربية أخرى ذات مصالح في المغرب.

كما استفدنا في تحليل أفكار بعض فصول الأطروحة من القوائم الإحصائية الواردة في الوثائق الفرنسية، وأعددنا قوائم أخرى استخلصناها من الوثائق المحلية والمخزنية، تتعلق بالتجارة والمواد التجارية وحركة السكان والجباية وغيرها،

واستنتجنا منها بعض النتائج. بيد أنه لابد من التذكير أن أرقام هذه القوائم في غالبها متناثرة ومنفردة لا تغطي فترة زمنية ممتدة، فلم نركن إليها باطمئنان، وإنما أخذنا بها بحذر.

وقد وضفنا في هذا البحث كذلك مفهوم "المجال" (1) كأداة للتحليل والتفسير، تأخذ به العديد من علوم المجتمع، كعلم السياسية والاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ وغيرها. وتهدف بعض هذه العلوم في استعمالاتها لمفهوم المجال إلى فحص العلاقة القائمة بين الإنسان والأرض، وبين هذين العنصرين والسلطة السياسية (2). بل ركز بعض الباحثين بالخصوص على البعد السياسي لمفهوم المجال فاعتبروا أن "ما يراد بالمجال هو السلطة" (3)، سواء تعلق الأمر بروابط الدولة بأقاليمها ودرجة فعاليتها، أو بسيطرة المجموعات البشرية على مجالاتها الخاصة.

وقد حاولنا الاستفادة من هذا المفهوم في معناه الجغرافي لفحص خصوصية المنطقة من الناحية المناخية واتساع المساحة، وتأثير ذلك على اقتسام المجال بين نوعين من المعاش (4). واستفدنا من هذا المفهوم أيضا في أبعاده الاجتماعية

---

(1) لم نعثر على مصطلح المجال وشرحه لغويا عند ابن منظور في"لسان العرب"، بل ورد عنده مصطلح آخر يقرب إليه من حيث المدلول الجغرافي وهو "الفضاء". بمعنى المكان الخالي من البشر. لكن هذا المصطلح لا يفيد في توضيح ما يقصد بالمجال واستعمالاته في العلوم الاجتماعية المذكورة أعلاه.

(2) أنظر محمد شقير: "مقاربة في المجال السياسي". **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، عدد. 7-8، 1988، ص 5-12 .

(3) "Ce que dit l'espace c'est le pouvoir".

وهذا ما ذهب إليه أمثال: Lacoste, Loschak, Lefebvre وغيرهم. أنظر عن هذا الموضوع مقال Robert Baduel: "La production de l'espace national au Maghreb". In Etats-territoires et terroirs au maghreb. Editions du C.N.R.S, Paris, 1985, pp. 3-47

(4) أشار "" إلى ضرورة اللجوء إلى التحليل المجالي للفهم الجيد لنمط العيش وللعلاقات الاجتماعية، أنظر عن ذلك:

R Baduel, Idbid

والدينية والسياسية، وبينا أن القبائل تسعى إلى تقسيم مجالاتها بين فرقها ووضع الحدود فيما بينها لتنظيم شؤون الرعي وهي بذلك تخلق مجالاتها الخاصة. وكثيرا ما يؤدي عدم احترام بعضها لمجال رعي الأخرى إلى نشوب صراعات دموية بينها (1). وأوضحنا كذلك أن الفرنسيين خلال مرحلة توسعهم على حساب الأراضي المغربية في المنطقة أحدثوا تغييرات في المجالات الحدودية، باقتطاع أطراف من الأراضي المغربية وضمها للجزائر، وقد أرغم هذا الواقع ساكنة المنطقة قصوريين ورحل على إعادة تكيفهم مع رقعة جغرافية تقلصت فيها فرص التنقل والمعاش. والأهم من كل هذا أننا سعينا إلى الاستفادة من مفهوم المجال الجغرافي لقياس درجة بعد المسافة على علاقة الدولة المخزنية بأطراف البلاد (2) في القرن الماضي.



(1)أنظر:

Hildebert (Isnard): L'espace géographique. presse Universitaire de France, 1ère Ed, paris, 1978, p. 26

ويرى الكاتب أن "هناك جدلية قائمة ما بين: مجال <----> مجتمع، فالناس يخلقون المجال، وفي هذا الإنجاز للمجال ينتظمون في شكل مجتمع". نفسه. ص. 74 .

(2) أشار "Paul Claval" في كتابه: "Espace et pouvoir" إلى ضعف سلطة الدولة ما قبل الرأسمالية في الأجزاء الترابية البعيدة عن المركز. وقد سبق لابن خلدون أن قال بهذا الرأي في المقدمة.

أنظر: (بول كلافال): المكان والسلطة. ترجمة عبد الأمير إبراهيم شمس الدين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1990، ط. 1، ص 30 .

القسم الأول

المجال والعلاقة بين المجموعات المتساكنة[1]

(1) استعمل هذا المصطلح منظمو ندوة "قضايا الأقليات بغرب البحر المتوسط". كلية الآداب، الرباط، 20-95/4/22

الفصـــــل الأول
الإنسان والبيئة الطبيعية

الارض والمناخ

منطقة الجنوب الشرقي تنقسم تضاريسها إلى قسمين مختلفين: في الشمال تمتد هضبة واسعة على شكل سهل قليل التموج يطلق عليها السكان اسم الظهرة، وهي امتداد للهضاب العليا الجزائرية، وفي الجنوب تنتصب مجموعة من الجبال تشكل ملتقى سلسلة جبال الأطلس الكبير الشرقي المغربي مع سلسلة الجبال الصحراوية الجزائرية.

تخترق الظهرة وتحفها مجموعة من الأودية تجري فيها المياه عند تساقط الأمطار في الشتاء، وفي الجهة الشرقية يمتد شط تيكري طوله 70 كلم من الشرق إلى الغرب وعرضه 50 كلم من الشمال إلى الجنوب ويشكل منتجعا مفضلا ليس فقط لمواشي بني كيل بل لعدد من القبائل الأخرى المجاورة.

في الجهة الغربية للظهرة تمتد سلسلة من التلال ابتداء من تندرارة تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي تعلوها أكمات متقطعة.

في القسم الجنوبي من هذه المنطقة تنتصب جبال متراكمة تتجه من الشرق والجنوب الشرقي إلى الغرب والشمال الغربي تختلف من حيث الطول والارتفاع ومستوى انحدار السفوح، فلنق على هذه الصورة الرائعة المشخصة لجبل عنتر من إنشاء الفقيه الوزير محمد الشرقي الإسحاقي في حجته عام 1143 هـ / 1730-31"... وبتنا بالقفر عن يمين جبل عنتر تركناه على يسارنا يظهر لنا على البعد وإذا هو جبل جاتم بوهاد الظهرا أحمر عار من الأشجار تنحدر منه شعاب كبار وأخاديد قد تَمَعَّطَ رأسه من كثرة سم بردة" (1).

(*)تعرى، وسقط ما كان يكسوه من تربة أو نبات.

(1) أبي محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي، حج عام 1143 هـ رفقة خناثة أم السلطات مولاي عبد الله انطلاقا من مكناس، كتبت هذه النسخة في جمادى الأولى عام 1343 هـ / 1924-1925 م، من دون ذكر ناسخها. مخطوط خ. ح. رقم 1428، المجلد الأول.

ويمكن تمييز سلسلتين جبليتين من هذا المجموع: الأولى تحف الظهرة من جهتها الجنوبية وهي من الشرق إلى الغرب: جبل الدوك (الدوغ)، وجبل الكلخ، جبل الدفلة، جبل بوعرفة وجبل عين أوراك.،

والثانية موازية لها في الجنوب وهي على التوالي: مير الجبل، جبل مزي، جبل السفاح، جبل بني سمير، جبل المعيز، جبل غالس، جبل الملاح، جبل كروز، وجبل بشار. وتحتضن فيما بينها مجموعة من أحواض الأنهار الجافة تختلف من حيث الاتساع يطلق عليها محليا اسم المعدر، تستغل في إنتاج الحبوب عند تهاطل الأمطار الخريفية. ويمتد غرب هذه السلسلة الجبلية سهل تاملالت في مساحة واسعة مشكلا الاستثناء الوحيد في هذا القسم الجبلي. بينما تمتد أراضي الواحات في الحواف الجنوبية لهذه السلسلة الجبلية متبعة خطا طوليا موازيا لامتداد هذه السلسلة من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي.

مناخ المنطقة قاري جاف بارد شتاء وحار صيفا، قوة الإشعاع تصل إلى °12. التساقطات المطرية ضعيفة لا تتجاوز على العموم 200 مم سنويا، وتتساقط الثلوج على قمم الجبال وعلى الأجزاء المرتفعة من الظهرة شتاء أحيانا، وتعد هذه التساقطات رغم ظرفيتها مصدرا للعيون المائية المتدفقة أو الأنهار الجارية، سواء كانت موسمية أو دائمة نذكر منها على سبيل المثال: الوادي الشارف، وادي بولرجام، بوخلخال، برماض، ووادي زوزفانة. وهذا الأخير ينبع من جبال بني سمير والسفاح وكروز، ويخترق المنطقة الجبلية للعطاطيش تم يمر ما بين جبل المعيز وبني سمير ويعرج شرق جبل كروز ثم ينحدر في اتجاه الواحة الفجيجية فيحفها من جهة الشرق عبر العرجة إلى أن يخرج من فج تاغلة. وعلى طول قسمه هذا تطلق عليه أسماء عدة حسب كل مرحلة من بدأ منبعه، فيعرف على الأخص بوادي الحلوف،

البحر الأبيض المتوسط

وهران

تلمسان

وجدة

مكورة

الحريشة

ثنية الساسي

عين بني مطهر

الأطلس المتوسط

الأطلس الكبير الشرقي

بنو كيل

تندرارة

عين بن خليل

سهل تاملالت

عين الشعير

منكوب

بوكايس

فجيج

أولاد جرير

بشار

قنادسة

ذوي

المنكارة

0 25 50 75 كم

وإلى أن يعبر واحة بني ونيف عندئذ ينعت بنهر زوزفانة حتى يصب في وادي الساورة بمقربة من واحة إكلي (1). بالإضافة إلى المياه المتجمعة على شكل ضايات والمياه الباطنية المستغلة عن طريق حفر الآبار والفجارات.

وعند مراجعة كتب الرحلات الحجية المنجزة منذ أواخر القرن 11 هـ / 17 م، فيما يتعلق منها بالأوصاف الطبوغرافية والمناخية، نلاحظ أن مناخ المنطقة لم يتغير كثيرا منذ ما يزيد عن قرنين من الزمن، سمته الأساسية القساوة والجفاف، يخضع لدورات تتوالى فيها سنين جافة مع سنين الإمطار وهطول الثلوج بمقادير مختلفة من حيث الأهمية، وهي على العموم متذبذبة غير منتظمة ولا قارة لكنها كافية لإكساء الأرض اخضرارا لفترات من السنة، وهذه التقلبات المناخية كانت وراء السنين العجاف التي استمر فيها الجذب متواليا فنتجت عنها مجاعات مهولة ألحقت ضررا كبيرا بالأنفس والماشية في فترات متعددة من القرن الماضي (2).

ولأخذ صورة عن قساوة هذا المناخ يكفي الاطلاع على بعض ما أورده كل من أحمد بن الصغير الدرعي عام 1152 هـ ، 1739 والوزير الإسحاقي عام 1143 هـ / 1730، وهما معا يصفان ما كابده الحجاج خلال رجوعهما من الحج في فصل الشتاء عن طريق الظهرة من المعاناة والأهوال إلى حد الموت، بفعل تهاطل الأمطار والثلوج بكثرة. "وبتنا موازين لأبي سمغون وبات علينا المطر والبرد

(1) Normond C: Rapport sur la vallée de la sousfana. Djenan, Eddar, le 18 mai 1902, 1H. c 794, A.M.G, paris

(2) أنظر أحمد مزيان: **مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي**. فجيج ما بين (1845-1903). مطبعة فجر السعادة، الدار البيضاء، 1988، ص.

وكذلك عبد الله العوينة: "المظاهر المناخية للقحولة، الجفاف في المغرب والبلدان المجاورة للصحراء". ***مجلة جغرافية المغرب***، عدد 6، سنة 1982 ، ص . 30 .

الشديد تم منه والمطر علينا إلى قرب الظهرا فغلب المطر الناس وكثر الزلق على الإبل (...) ونزل الثلج (...) حتى ابيضت الخيام وظهور الإبل والبغال.. فالفينا الماء جامدا (...) ونزلنا عين المغيني ومات بالبرد نحو عشرين نفسا (...) والإبل تسقط على ركبها والبرد في ازدياد (...) وفي الصباح هبت ريح غربية فألقينا أبرد منها مات رجل وامرأة بردا واشتد الأمر بالناس" (1).

وإلى نفس المعاناة من شدة البرد وتهاطل الثلوج يشير الوزير الإسحاقي بقوله: الظهرا وما أدراك ما الظهرا مهب رياح (...) واسعة الفجاج كثيرة البرد كسيرة الإثلاج سلكناها في فصل الليالي فلقينا من بردها وثلجها ما الله أنجانا منه وأما زمان الحر فقال خائضوا غمراتها وواطئوا جمراتها (...) وهبت علينا في هذه الرحلة ريح عاصف قاصف نزلنا لأجلها بوادي الشارف (...) وظللنا يومنا أجمع يصب علينا الثلج فيه (...) لقي الناس من ذلك اليوم شدة لا سيما الرحالة من الرجال والنساء ..." (2).

إن فصل الشتاء على العموم لا يخلو من تساقط الأمطار حتى في الأجزاء الجنوبية من المنطقة على طول امتداد بلاد الواحات، فالهشتوكي خلال رحلته الحجية الثانية عام 1119 هـ / 1707 يتحدث عن قطع ركب الحجاج للمسافة الفاصلة ما بين قرية العوينة وبين قصور فجيج في ظروف حسنة من حيث التزود بالماء قائلا: "... وأمر الماء في أكثر الوقت لا يهم لأنه زمن الشتاء فتوجد الغدران في كثير من المواضع..." (3) وعلى نفس الخط الجنوبي يتحدث محمد بن عبد السلام بن ناصر

(1) أنظر أبو مدين أحمد بن الصغير الدرعي: الرحلة إلى بيت الله الحرام، بعد رجوعه من الحج مخطوط في مجموع بالخزانة العامة، الرباط. وانظر كذلك: الفقيه الوزير أبو محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي في رحلته الحجة في عام 1143 هـ/ 1730 م، مخطوط الخزانة الحسنية. سبق ذكره.

(2) الإسحاقي، المصدر السابق.

(3) أحمد بن محمد بن داود الجزولي التملي الهشتركي. هداية الملك العلام. مخطوط خ.ع.ق. رقم. 147 .

الدرعي في رحلته الحجية في شتاء عام 1199 هـ / 1784-85 م عن السيول الجارية، وغدران المياه المتجمعة هنا وهناك انطلاقا من واكدة ويشار إلى بوسمغون قائلا: "... جاوزنا واد درمل (...) وجدناه قد سال بالأمطار (...) ثم منه نخوض مياه الأنهار تارة ونغادرها آخر. فمررنا على واد حجاج ووجدناه سائلا بالأمطار وبأعلاه مما يلي الظهرا مياه عذبة... ثم على واد اصم (...) فهبت علينا به ريح عاصفة ورعد وأمطار غريزة" (1).

من خلال النصوص المدرجة أعلاه نستنتج أن مناخ المنطقة على طول القرن 18 م رغم قساوته، امتاز بفصل شتاء ممطر حافظ على غطاء نباتي ملائم لمعاش الأنعام، أليفة، كانت أو متوحشة ولا أدل على ذلك من وجود قطعان من الوعول والحمير الوحشية والظباء والغزال والنعام، والحيوانات المفترسة كالأسود والنمور، جل هذه الحيوانات كانت مشاهدتها مألوفة لدى الحجاج في مسيرهم إلى الحج".... ودخلنا فسيح الظهرا (...) المكتسية بالحلفا والشيح لكن منظرها مليح (...) وبها الوحش يستريح منها النعام والحمر والبقر والمهات وأنواع شتى من مصيد الحيوانات" (2). والجنرال كافينياك "" خلال حملته لمنطقة القصور الجنوبية الشرقية وبلاد احميان في شهري أبريل – ماي عام 1847 يقول: "إذا ما صدقنا تأكيدات قاطني جبل عنتر من الأعراب البدو، خاصة الصيادين فإن حيوانات مثل: النعامة والغزال والظبي وحتى النمور ما زالت تعيش هناك" (3). ونقف على

(1) محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط.
(2) أحمد بن عبد القادر القادري: نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس. خرج إلى الحج يوم الاثنين 20 جمادى 2 عام 1100 هـ / 1688 م مخطوط خ.ع.ك 1418 .
(3) Cavaignac G, 1H. 211. V.C paris, 1847.

مصداق ذلك فيما ذكره أو القاسم بن تخيلة للهشتوكي بفجيج خلال حجته السالفة الذكر، من أن له جملة من النعام "اتخذها تسرح في الخلاء وحدها وتروح لداره وحدها من غير راع..." (1) وقد انقرضت هذه الحيوانات ولم يعد لها وجود في المنطقة حاليا " (2).

وحسب معاينة بعض المستكشفين الأجانب "دفوكو De Foucauld" و"شاوط Schaudt"، وكذا علي السوسي السملالي، وكل هؤلاء عبروا المنطقة من الشمال إلى الجنوب أو العكس، كلهم أشاروا لجفاف الظهرة باعتباره ظاهرة عامة نتج عنه فقر في الغطاء النباتي (3). فما عدا سفوح الجبال المرتفعة كالدوك وگروز وبني سمير، وجبل المعيز، والجبل الأخضر المغطى بعضه بأشجار العرعار والسدرة والبطم والزيتون البري (Olivier sauvage) بمقادير متفاوتة، فإن نبات الحلفا والشيح هو الغطاء النباتي الوحيد والأقدم في المنطقة (4) لقدرته على التكيف مع هذه الوضعية ويغطي مساحات واسعة منها، ابتداء من عين بني مطهر إلى فجيج، ذكره صاحب نسمة الآس في نهاية القرن 11 هـ / 17 م. واستمر انتشاره بهذا الاتساع إلى بداية الستينات من القرن الحالي، وهو الآن إلى الانقراض يسير، بسبب ازدياد وثيرة الجفاف والتصحر في السنين الأخيرة. وعلى أية حال، فمناخ المنطقة كمثل سائر مناخ شمال إفريقيا لا يتميز بالثبات في سائر الفصول والأعوام،

(1) إلى أواخر الخمسينات من القرن الحالي كانت قطعان من الغزال والبقر المتوحش ما زالت تعيش في المنطقة، لكنها استترفت بكثرة الصيد وتفاقم الجفاف.

(2) المشتوكي. المصدر السابق.

(3) De Foucould: reconnaissance au maroc, p. 389

وكذلك: Schaudt: "Voyage au maroc". Bull. Soc-Géo. Alger, 1899, p. 246

(4) I. Bauger: "la confédcration des Benis Guil", Bull. Soc-Géo. Arch, Oran, 1907

بل يخضع لدورات يتقلب خلالها من عسر إلى يسر، قد تستغرق كل دورة منها مدة ثلاثين سنة (1). ولنا أن نتسائل عما إذا كان لهذه التقلبات المناخية منذ نهاية القرن 11 هـ / 17 م إلى أوائل القرن الحالي تأثير في اختفاء بعض الحيوانات وأنواع من الأشجار على سفوح جبال المنطقة؟ أبو مدين أحمد بن الصغير الدرعي لاحظ وجود بقايا لأشجار البلوط والدباء على سفح جبل عند التقاء طريق ركب الحاج الفاسي مع السجلماسي، غير بعيد عن جبل الملح (2). وهو بمثابة مؤشر يدل على اختفاء غابة بكاملها من هذه الأشجار وما يدخل في صنفها تحت تأثير التقلبات المناخية وفعل الإنسان والحيوان.

(1)راجع: F. Braudel: "La Méditerranée et le monde médit". T.1, pp. 245-246.

(2)الرحلة إلى بيت الله الحرام في مجموع مخطوط خ. ع. ق. 297. تمت الرحلة عام 1739/1152 وفرغ من تأليفها يوم الجمعة الخامس ذي الحجة الحرام عام 1156 هـ، وتوفي صاحبها يوم الخميس 13 جمادى الأولى عام 1157 هـ 1744 / م.

السكن والسكان

أ- أصول السكان، تحركاتهم، تفريعاتهم.

كتب ابن خلدون أن شعوب بني واسين الزناتية مثل: بني مرين وبني بادين ومن تشعب منهم من البطون والأفخاد كبني عبد الواد وبني توجين، قد تملكوا صحراء المغرب الأوسط والأقصى ما بين وادي ملوية وصا، غربا إلى أرض الزاب شرقا، وذلك قبل هجرات العرب الهلاليين وغيرهم في المائـــة الخامســـة من الهجرة (1). ومعظم هذه الشعوب احتفظت بحياة الترحال وتربية الماشية، ويتضح ذلك من كثرة تحركاتها ما بين مواطنها بالصحراء ومناطق التلال في الشمال، ويتضح ذلك من كثرة تحركاتها ما بين مواطنا بالصحراء ومناطق التلال في الشمال، بينما لجأ بعضها الآخر إلى غرس أشجار النخيل وبناء القصور فأنشأت واحات توات وفجيج وما يواليها شرقا إلى جبل راشد ومصاب "أئتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي" (2) وهو ما شكل عالم الواحات من أرض الزاب إلى سجلماسة.

واقتسم بنو مرين وبنو بادين هذه المجالات بينهم، فكان للأولين الناحية الغربية ما بين قصور توات وتيكورارين إلى سجلماسة وملوية وللآخرين الناحية الشرقية ماب ين قصور فجيج وجبل راشد ومصاب. وبعد مجيء الموحدين وانحياز بنو باديس إليهم اقطعوهم تلال وضواحي تلمسان وشمال المغرب الأوسط فحل محلهم بنو مرين بالصحراء (3). ويظهر أن بعض الفرق من بني باديس فضل البقاء في مواطنها الأصلية بالصحراء والبعض الآخر ممن احتفظ بتربية الماشية انتشر في أراضي الهضاب العليا (الظهرة). وإلى هؤلاء انضافت جموع من قبائل مطغرة توزعت في كل القصور الصحراوية واشتغلت بفلاحة الأرض وغرس شجر النخيل مثل غيرها، وقد تمكن فصيل منها يدعى بني سيد الملوك من حيازة السلطة في قصور فجيج وما يواليها (4).

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج. 6، ص . 121-127.
(2) نفسه، ص. 245
(3) نفسه، ص. 127 .
(4) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج 6، ص. 245

ومن هذه الفرق تكونت الساكنة الأصلية لقصور الجنوب مع من عمرها معهم من بطون بني عامر والمعقل، ومنها أيضا تكونت النواة الأولى لقبيلة بني كيل قبل توافد عناصر بني عامر بن زغبة وذوي منصور المعقلية على المنطقة طوال القرون الموالية للقرن الخامس والسادس الهجريين. ويمكننا الاستفاد مما توحي به أسماء بعض الأماكن الطبوغرافية وقد غالبت الزمن واستمر تداولها إلى الآن فيما يعرف بعلم الطبونيميا، لاقتفاء أثر بعض القبائل التي مرت في المنطقة وتركت بصماتها، ولا سيما في مجال القصور. فابن خلدون يخبرنا أن قبيلة بني عامر بن زغبة احتلت قصور الصحراء قبلة تلمسان واغترست النخيل مثلها مثل قبائل زناتة (1). وعندما نتفحص أسماء الواحات الواقعة ما بين فجيج وبشار نجدها أسماء عربية مثل: تنية سيدي يوسف، ساقية سيدي يوسف، جنان بن حاريت بويعلا، النخيلة، نخلة ابن ابراهيم، الأعوج، ملياس، فندي (2)... إلخ. لكننا نجد أيضا أسماء بربرية مثل "محيو" وهذا يطلق على جانب من غابة (بساتين) الوداغير على الهضبة المطلة على غابة وقصر زناكة بفجيج، واسم محيو يحيل على فرقة أولاد محيو المرينية وينسب إليها مؤسس الدولة المرينية عبد الحق بن محيو.

وعند قيام دولة بني زيان (بنو عبد الواد) بتلمسان، وكان عرب المعقل قد تغلبوا على صحراء المغرب الأوسط والأقصى، لجأ يغمراسن بن زيان إلى جلب عرب بني عامر بن زغبة من مجالاتهم بصحراء بني يزيد وأنزلهم بصحراء تلمسان "كيادا للمعقل ومزاحمة لهم" (3). وقد تبع بنو عامر إلى هذه المواطن احميان وهم

---

(1) نفسه.

(2) El hachmi B. Mohamed: "Tradition, légendes, poèmes sur Figuig". Bull. de la Soc. Géo et d'arch. Oran, 1907

(3) ابن خلدون: العبر والمبتدأ والخبر، ة. 6، ص. 90

بطن من بطون بني يزيد، واحميان هؤلاء نجدهم إلى يومنا هذا يقتسمون مع بني كيل طرفا كبيرا من الهضاب العليا الجزائرية المغربية ويجاور بعضهم بعضا على الحدود.

وينقسم عرب المعقل إلى ثلاثة بطون: ذوي عبد الله، وذوي منصور، وذوي حسان. فذوي عبد الله كانت مواطنهم مجاورة لبني عامر في الشمال ما بين تلمسان وتاوريرت، وكان ذوي منصور أوفر قبائل المعقل يستوطنون في زمن ابن خلدون تخوم المغرب الأقصى ما بين ملوية ودرعة وينقسمون إلى بطون أربعة، منهم أولاد حسين وأولا أبي الحسين (1).

وفي رواية شفوية نقلها مخبرون فرنسيون عن بعض أشياخ قبيلة بني كيل أواخر القرن الماضي يدعون فيها الانتساب لبني حسين وهم فرع من بطن ذوي منصور المعقلية، وأن اسم "بني كيل" أطلق على بعض الفرق من بني حسين قيّلت لبعض الوقت في منطقة الظهرة للاستراحة قبل ذلك بما يزيد عن قرن، ثم استهواها المكان ففضلت الاستقرار بها وامتنعت عن اللحاق بإخوانها من بني حسين الذين سبقت لهم الهجرة إلى منطقة التل بالشمال (2). ويعزز هذه الرواية ما ورد عند الحسن بن محمد الوزان في وصف إفريقيا بأن فرقة من بني حسين فرع ذوي منصور المعقلية تقيم في صحراء الظهرة إلا أنهم قوم ضعاف لا سلطة لهم ولا مال (3).

(1) نفسه. ج. 6. ص. 118-131 .

(2) De Lamartinière et De Lacroix: Document pour servir à l'histoire du nord-ouest africain. T. 2, p.
– عندما تحدث الناصري عن عرب المعقل ذكر أن أنسابا أخرى اختلطت معهم"... ومنهم المهاية من عياض إحدى بطون الابتج الهلاليين (...) ومنهم بطون من بني هلال وبني سليم وغيرهم". الاستقصا. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج. 2، ص. 179 .

(3) الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج. 1. ص . 41، الرباط، 1980 .
أما مارمول كربخال، فقد ذكر أن أولاد أبي الحسين" ينقسمون إلى قسمين بعضهم يعيشون في مغارات الظهرة حيث لا سلطة لهم تذكر..." كتاب إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد زنيبر وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف، الرباط، 1984، ص. 108 .

إن مصطلح بني كيل لم يرد في أي مصدر من المصادر التي رجعنا إليها، ولعل التهميش الذي قوبلت به هذه القبيلة وغيرها في مناطق القفار الصحراوية بوسط وجنوب التخوم المغربية - الجزائرية من لدن كتب الحوليات والأنساب المهتمة بأخبار المغربين الأوسط والأقصى قبل القرن التاسع عشر الميلادي، زاد من تعتيم أصولها الماضية وذكر فروعها ومواطن انتجاعها. ولا يسعنا إلا أن نفترض امتزاج عناصر قبلية متباينة من زناتة وعرب المعقل وبني عامر بن زغبة ممن استوطن الظهرة والأطراف المتاخمة لها تساكنت وانصهرت في بعضها البعض، فكونت قبيلا واحدا لا يجمع بينها الانتساب لجد مشترك بقدر ما تجمعها عصبية الحلف وتشابه أنماط المعاش داخل مجال جغرافي مشترك، ما دامت بنية القبيلة في الشمال الإفريقي قابلة للاحتضان والانتشار الواسع حسب رأي جاك بيرك (1). ذلك أن الهضاب العليا حسبما ورد عند ابن خلدون في أكثر من موضع من تاريخه كانت مجالا لتحركات القبائل الزناتية البربرية والقبائل العربية على السواء تخترقها في تنقلاتها طولا وعرضا في فترات السلم والحرب.

ولما كانت غلبة العنصر العربي أقوى، فقد تعربت العناصر البربرية البادينية وافتقدت لغتها وعوائدها مع مرور الزمن ولم تحتفظ من ذلك إلا باسم الفرعين الرئيسيين المكونين لقبيلة بني كيل: بنو غمراسن، وبنو كومن (2) (أو كومي) كمؤشر لنواة بربرية قديمة قام عليها هذا القبيل (3). إلا أن تعريب ساكنة الظهرة

(1) J. Berque: Qu'est ce qu'une tribu nord-africaine. S.N.E.D. Ducoulot, Alger, 1974.

(2) بنو غمراسن، نسبة لمؤسس الدولة في القرن 7 هـ يغمراسن بن زيان، وبنو كومن نسبة إلى قبيلة كومية القاطنة في نواحي تلمسان.

(3) "أوغست كور" في بداية هذا القرن أشار في مقال له حول عين بني مطهر أن اللغة البربرية كانت متداولة عند بعض فرق بني كشيل من فرع بني غمراسن كأولاد أيوب وأولاد حاجي ولم يبين مستنده في ذلك. ونحن نعلم أن هاتين الفرقتين مجاورتين لقبائل آيت سغروشن غرب الظهرة وهم في احتكاك معهم.

كان قد تم قبل القرن الثامن عشر الميلادي على الأقل ونستدل على ذلك بما جاء في مؤلف أحمد بن الصغير الدرعي عن رحلته الحجية عام 1152 هـ / 40-1739 م من أن بلاد فجيج "سوق أعراب الظهرة منها يقضون غالب حوائجهم" (1). وورد في وثيقة مؤرخة في منتصف رجب 1758/1171 اسم أحد الشهود من بني كيل "أحمد بن فارس الجيلي" (2).

وفي تاريخ ابن خلدون نصادف أسماء شخصيات تفرعت منها بطون وأفخاد وسط القبائل العربية والبربرية المذكورة (بنو بادين، بنو مرين، بنو عامر بن زغبة، المعقل) مثل: عامر، عروة، عرفة، فارس، أولاد إبراهيم، شعيب، حمامة... إلخ. وهذه الأسماء تطلق حاليا على بعض فرق بني كيل ك (أولاد حمامة، أولاد إبراهيم، أولاد شعيب، أولاد فارس) في حين نجد اسم عامر يطلق على أحد قصور فجيج، واسم عروة كان متداولا وسط سكان قصر الوداغير في وثائقهم للقرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين. ونجد كذلك اسم "بنو قائل" (3). وهو بطن من فرع ابن خميس ابن عروة بن زغبة، أحلاف أولاد يحيى من العمور القاطنين بجبل راشد(4). وهذه مؤشرات أخرى تعزز ما ذهبنا إليه من انتماء مكونات القبيلة الكيلية في الأصل إلى عناصر مختلفة بربرية وعربية.

A. Cour, Notes sur la région de Berguent. B.S.G.A.O, 1909, pp. 31-67.

(1) أحمد بن الصغير الدرعي: الرحلة إلى بيت الله الحرام. مخطوط خ. ع. الرباط، ف. 297 .

(2) وثيقة خاصة تتعلق بعقد صلح بين جماعة أحميان وجماعة الوداغير بفجيج بعد نزاع سابق بينهماحول مقتل أحد الحميانيين.

(3) هذا الاسم قريب جدا من مصطلح بني كيل. وأشار المقري في كنز الأسرار إلى "بنو حمامة بن الجندور بن الجومي العبد الوادي". مخطوط. خ.ح.

(4) ابن خلدون: تاريخ (العبر). ج. 6، ص. 116 .

وتقتسم قبيلة أولاد سيدي على بوشنافة مجال الظهرة مع بني كيل، بل هي مندمجة مع قبيلة بني كيل ومحتمية بحمايتها في الأوقات العصيبة لصغر حجمها، وأولاد سيدي على بوشنافة هؤلاء يدعون انتماءهم إلى بيت الشرف وهم نواة لمجموع الفرق المكونة للقبيلة وهي: أولاد غزيل، أولاد بوراس، أولاد سيدي عمر، الجبابرة، أولاد التهامة (أو التهامي)، والركاعة (1).

أما قبيلة العمور العربية فقد غفلت عن ذكرها كتب الأنساب كشأنها مع بني كيل، ما عدا ابن خلدون الذي ميز نسبهم الأول (أي العمور) وقال: إنهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال، وإنما لحقوا بالإثبج الهلاليين بإفريقيا الشمالية المنتسبين لأبي ربيعة بن نهيك بن هلال (2).

وانقسم العمور في أول عهدهم إلى بطنين: قرة، وعبد الله. وكانوا آنذاك في قلة وافتراق كلمة، يستوطنون البلاد المحصورة بين الأوراس وجبل راشد المحاذية للصحراء موطن القفر والجذب.

فبنو قرة افترقوا بين القبائل والمدن ولا رياسة لهم، بينما توزع عبد الله إلى بطون وأفخاد تحت رياسة بني عبد الله ومن تنسل منهم كمحمد، وماضي وعنان، وشكر، وفارس (3). ولم نعثر على ذكر للعمور في أي تأليف أو تقييد منذ الإشارة الخلدونية في القرن الثامن الهجري إلى أواخر القرن الحادي عشر منه / 17 م، عندما مر العياشي مع ركب الحجاج لأداء فريضة الحج عبر الطريق

(1) Document pour servir à l'histoire.., T. 2, pp. 374-376.

(2) ابن خلدون: تاريخ (العبر)، ج. 6، ص. 55 .

(3) نفسه، ج. 6، ص. 55 .

الصحراوي المألوفة في شهر جمادى الأولى عام 1074 هـ / 1663 م. وأثناء وصوله إلى الكراكدة وجد خيل العمور قد أغارت على أهاليها وأخذوا لهم غنما (1).

وبعد ذلك بنحو 54 عاما ورد ذكرهم في مؤلف الهشتوكي عن حجته الثانية عام 1119 هـ / 1707 م، إذ وقف على قطيع كبير من الماشية لعرب العمور وغيرهم بموضع يدعى صونية عجراء قريبا من بوسمغون استولى عليه عبد المالك بن السلطان مولاي إسماعيل لما كان واليا لأبيه بتلك المنطقة (2).

وعلى هذا الأساس يكون العمور وبالأخص منهم بنو عبد الله قد توسعوا نحو الغرب واستولوا قبل ذلك الحين على معظم المنطقة الجبلية المتحكمة في الواحات والقصور الممتدة من بوسمغون وعسلة مرورا بعين الصفراء إلى فجيج، وشيئا فشيئا وصلت بعض فرقهم إلى واحات فندي ومـوغل، وبوكايس، فامتلكت بها البساتين والديار (3). وعرف تعمير المنطقة حركية سكانية ملحوظة خلال الأجيال المتعاقبة- استنادا للمصادر المذكورة آنفا - منذ بدء انتشارها واستقرارها في هذا المجال ولا سيما ساكنة القصور، بحكم تموضعها جنب العيون والمجاري المائية وتحكمها في منعطفات وفجج الكتل الجبلية الجنوبية معبر قوافل التجارة الصحراوية، وقوافل الحجاج إلى الديار المقدسة.

(1) العياشي: ماء الموائد. ج. 2، ص. 554، مخطوط. ج. ح، الرباط.
وأشار في موضع آخر من رحلته أن ركب الحجاج عندما رصل بالقرب من بلدة الغاسول بالصحراء الجزائرية وجد به "حيا يقال لهم العمور".

(2) هداية الملك العلام. خ.ع.ق. 147 .

(3) نقرأ في تقرير كتبه الضابط الفرنسي Monthambery حاكم عين الصفراء في 7 فبراير 1888 نقلا عن رواية شفوية أن فرقة المداييح من العمور امتدت أملاكها منذ قرنين إلى بساتين فندي وبشار.
Monthambery: Notice historique sur les Amours: 1H. 1024/ V.C. Paris.

وقد اعترى بنيتها التسكانية خلل ناجم عن عملية طرد وجذب للأسر والمجموعات، لأسباب متباينة يرتبط معظمها بالنزاعات حول المجال والمياه، وبعضها بضغوط الرحل على المستقرين، ولأسباب طبيعية: (توالي الجفاف، والمجاعة والأوبئة)، أو لأسباب غامضة نظرا لتوغلها في القدم من دون أن يترك عنها خبر فيما هو متداول من المصادر.

فابن خلدون يتحدث عن بعض من سكن القصور الصحراوية من البرابرة الزناتيين ابتداء من تيگورارين وتوات غربا إلى الشرق منها، ومن هؤلاء يالدّس ومعهم من سائر القبائل الزناتية كقبيلة ورتطغير (1). وعلى هذا الأساس تكون هذه القبيلة قد اختطت لها قصورا ببلاد فجيج وخارجها (2)، قبل أن ينزل بها عبد الرحمان بن يعلى الشريف الإدريسي بمن هاجر معه من فاس خوفا من بطش ابن أبي عافية المغراوي، فانتسب نسله إلى قبيلة "ورتطغير" وصاروا ينعتون بالورتطغيريين، فلما تجمعوا بقصرهم الحالي بالواحة الفجيجية في القرن الخامس الهجري حسبما تناقلته الرواية الشفوية سمي بقصر "ورطدغير" و"ورتدغير" ثم تحول إلى قصر الوداغير. لكن اسم قبيلة ورتطغير البربرية ومثالها لم يعد يذكر فيما كتب أوروي بعد زمن ابن خلدون.

وفي تقييد أورده مؤلف مجهول تعرض لترجمة أبي الحسن علي بن أبي غالب دفين فاس، أن عبد الرحمان بن علي (أو ابن يعلى) الشريف الإدريسي "هو القادم على بني ودغير الزناتيين النازلين ببلاد فجيج"(3).

---

(1) ابن خلدون: العبر المبتدأ والخبر. ج. 7.، ص. 114 .

(2) أشار العياشي في رحلته إلى بئر غزير المياه يسمى ولتدغير بعد رحيل ركب الحجاج من القليعة في بلاد وركلا.

(3) مخطوط في 6 صفحات بدون تاريخ. الخزانة الحسنية، رقم 3166 .

أما أحمد المقري التلمساني فقد أشار بدوره في أواخر القرن 8 هـ / 14 م، إلى عدد من القبائل الزناتية المصاحبة لأبي عنان المريني في تحركه إلى إفريقيا عام 758 هـ من بينها بنو إيش بن دمر الزناتي، وبنو مغراوة بن أبي زيد بن ونيف بن منديل (1). وكُلاً من: إيش، وبني ونيف، وبني هارون أصبحت أسماء لقصور ما زال بعضها قائما إلى الآن بفجيج وخارجها.

ولتلخيص هذه الوضعية سنكتفي بعرض جدول لأسر وجماعات غادرت مستقراتها القديمة في القصور واستوطنت غيرها. هذه الهجرات انحصرت في إطار بعدين جغرافيين: أولهما تم على مستوى المنطقة، وثانيهما انتقلت فيه الأسر المهاجرة إلى جهات أبعد داخل المغرب والجزائر. وهذه المعطيات الديمغرافية استقيناها من مصادر عدة تختلف من حيث الأهمية والقصد، فلم تكن إشاراتها للعديد من الأسر المختفية الآن من المنطقة رغم قيمتها، بما يفيد عن مصيرها لاحقا.

وإلى جانب هذا التطور في البنية السكانية، عرفت البنية السكنية بدورها تغييرا تمثل في اختفاء العديد من القصور والدشرات في مجال الواحات بالمنطقة خلال القرنين الماضيين على الأقل، ووردت عنها إشارات في بعض المؤلفات الحجية والتقاييد، بعضها ظل موجودا إلى زمن تقييد الإشارة ولم يعد له اليوم من أثر، أو فضلت عنه بقايا أطلال متلاشية اندرست رسومها بفعل عوامل الهدم الطبيعية. وتحدث العياشي في رحلته كعادة مؤلفي الرحلات الآخرين عن ظروف الطريق وما عليها من عمارة من جملتها قصر المنابهة (2) في نواحي قصر موغل، وكذا قصر

(1) أحمد المقري. الروض المعطار. مخطوط الخزانة. ح. رقم 11328 .

(2) المنابهة فرع من ذوي منصور أحد بطون قبيلة معقل العربية كانوا يسكنون صحراء فجيج حسبما ذكر الحسن بن محمد الوزان في" وصف إفريقيا" ج. 1، ص. 45 .

سندانة الواقع في المجرى الأعلى لوادي النامس، ووصف أهاليه بأنهم "قوم من متفقرة ذلك البلد" (1).

وعندما نراجع المؤلفات الحجية لمن جاء بعد العياشي في القرنين 12-13 هـ / 18-19 م لا نعثر فيها على أثر لهذين القصرين.

في أوائل القرن 12 هـ / 18 م، مر الهشتوكي في نفس الطريق إلى الحج وتعرض في حديثه لمطاردة جيش مولاي عبد المالك بن إسماعيل لقبيلة العمور في جبالهم، وأشار إلى قرية تاويل وقرى ظهر الحمار (لم يشر لها بأسمائها). وقبل ذلك في رحلته الأولى سنة 1096 هـ / 1684 م وقف على خلو مدشر المخيلي - الواقع قرب قرية تجموت - من جميع سكانه، تاركين بساتينهم وثمارها يانعة"... فسئلناهم عن أهاليها وأربابها ومتى تخرب هذا المدشر وكان خاليا من العمارة (...) ولم نتحصل في ذلك على قول يعول عليه" (2). وتحدث عن قرى واكدة العديدة: "ومررنا على واكدة وبها قرى كثيرة ورياضات الصالحين" (3)، في حين لا تشكل إلا قصرا واحدا منذ القرن الماضي على الأقل. وعندما فصل في حديثه عن إرشادات للحجاج في مؤلفه عن رحلته الثانية إلى الحج، وجه كلامه للحجاج الراغبين في سلك طريق الصحراء أن ليس بينهم وبين بوسمغون - انطلاقا من فجيج - إلا قرية أم القرار، مع أن قصورا عديدة وقرى أخرى تنتشر في هذا المجال مثل تييوت، وعين الصفراء، وعسلة، إلا إذا كان طريق الحج المعتاد آنذاك لم يكن يمر

(1) العياشي: ماء الموائد.

(2) الهشتوكي. المصدر السابق.

(3) نفسه. الحسن الوزان في وصف إفريقيا أيضا تحدث قبل الهشتوكي عن :ثلاثة قصور كبيرة وقرى عديدة" عند وصفه لواكدة (إقليم). وصف إفريقيا، ج. 2، ص. 132 .

بها، مع، أنها نقط مائية وتجمع سكاني قد يريد في الأهمية على قصر أم الكرار الفوقية والتحتية على السواء.

وتحدث أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي بدوره وفي نفس المدة بالذات في مؤلفه سنة 1121 هـ / 1709 م عن "آثار عمارة دثرة" (1) حول عين ماء أبي رزك (أو أبو رزق) وهي لا تبعد إلا قليلا عن وادي الناموس وواحة فجيج.

وفي بعض التقاييد، مع إشارات وردت عند القادري في نشر المثاني، والزياني في بستانه، واعتمادا كذلك على رسالة رفعها أهل فجيج إلى سيدي محمد بن عبد الله عن تحركات الداعية الخضر في ناحية فجيج (2)، يستفاد منها أن مجال الواحات الواقع بين قصور بوكايس وموغل غربا إلى قصور بوسمغون والشلالة شرقا داخل التراب الجزائري اليوم، كانت الغلبة فيه لقبيلة أحميان، ومعها تمكنت بعض فرقها مثل أولاد سندان من بناء قصور حملت أسماءها كقصر سندانة، لكن السيطرة على هذا المجال سيؤول إلى قبيلة العمور وأولاد جرير مع أواسط القرن 19، فهل اندثار قصري سندانة وأبي رزق مرتبط بانكفاء سيطرة احميان على هذا المجال، أم تم قبل ذلك خلال توسع العلويين في تلك المنطقة في أوائل نشوء دولتهم ودخولهم في صراع دموي مع قبيلة أحميان لإضعاف شوكتهم في المنطقة؟

في نهاية القرن الثاني عشر الهجري 18 م يتحدث محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي في رحلته الكبرى سنة 1199 هـ / 1784-85 م عن مدشر واكدة (3)، فلم تعد واكدة قرى عديدة كما نعتها الهشتوكي في بداية ذلك القرن. ثم يشير بدوره

(1) أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي: الرحلة إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام. كتبها أحمد بن الحسن بن الطالب الحسن في ثاني من ذي القعدة الحرام عام 1158 هـ / 1745-46 هـ. مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط.

(2) رسالة مبتورة مغفلة من التاريخ في ملكية صاحبها.

(3) محمد بن عبد السلام بن ناصر: الرحلة الكبرى.

إلى "مقبرة للأعراب وآثار عمارة سالفة مندثرة" في أبي رزق قرب فجيج. وهو أول من أشار إلى قصر تييوت من مؤلفي الرحلات الحجية قبله.

وتحدث "DECOLOMB" و"COLONIEU" بدورهما عن مشاهدتهما لآثار قصرين في خنق مزوغة الممر الذي يسلكه وادي زوزفانة بواحة فجيج قبل مروره بواحة بني ونيف، وأن قصور فجيج حسبما تمكن دي كلومب من عدها آنذاك عن قرب تصل إلى حدود أحد عشر قصرا (1).

وفي فجيج نفسها انقرض الكثير من القصور لأسباب عديدة أهمها الصراعات الانقسامية البالغة حد التدمير (2). فالمقري التلمساني في أواخر القرن الثامن الهجري أشار إلى انتقال البدايد وإخوانهم الجرمونيين من قصر بند بفجيج (3) إلى تلمسان (4)، وهذا القصر وغيره كثير لم يبق لها من أثر الآن بالواحة الفجيجية.

(1) Capitaine Perot: "Itinéraire de Geryville à Feguig. In Spectateur militaire, Févr. 1868, p. 219, Paris, 1882.

أنظر كذلك:

Colonieu (Col): "Itinéraire de Geryville à Figuig et retour", (B.S.G.D.O), 1891

(2) من بين الأسباب الأخرى، ضغوطات القبائل الرحلية التي دفعت بسكان بعض الدشرات إلى مغادرتها والاندماج في قصور أكبر.

(3) أبو محلي في منجنيق الصخور، حاور أحد أنصار خصمه اللدود كبير صوفية المنطقة في زمانه الشيخ عبد القادر السماحي الملقب عادة بسيدي الشيخ، ويدعى هذا المحاور بابن بدي بفجيج ولعله من بقايا هذا القصر الذي غادره أهله. مخطوط. خ.ع، تم تأليفه في آخر جمادى 1، عام 1017 هـ / 1608 م.

(4) المقري التلمساني: كنز الأسرار. مخطوط سابق الذكر.

لائحة بأسماء الاسر البربرية الزناتية والعربية والاسر الشريفة في المنطقة المهاجرة من أوطانها أو المختفية ولم يعد لها أثر.

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
ايت وساد (1)	فجيج	؟	لم يعد يذكر هذا الاسم
بنو هداج (2)	فجيج	؟	لازالت بقاياهم في قصر الحمام الفوقاني بفجيج
بنو جابر (3)	من بلدة دادي بتادلة	فجيج	لا زالت العديد من أسرهم بفجيج إلى الآن
آل بوشران الجابريين (4)	فجيج	؟	لم يعد يذكر هذا الاسم بفجيج
بنو يصليتن (5)	قصور فجيج	؟	اختفت من دون أثر
بنو مغراوة (6)	قصور فجيج	؟	اختفت من دون أثر
أولاد تريز (7)	قصور فجيج	؟	اختفت من دون أثر

(1) (2) (3) (4) أحمد بن محمد المقري التلمساني: الروض المعطار وكتاب الأنوار في نسب آل النبي المختار. مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 11328 .
ورد ذكر أولاد جابر كذلك في وثيقة خاصة مؤرخة في 1271 هـ / 1855 م.
(5) ورد أحد الشهود منهم في وثيقة حبس الشيخ أبي حفص ابن عمرو بن محمد الوسمادني الفجيجي مؤرخة في ذي القعدة عام 811 هـ / 1408 م، والشاهد المذكور محمد بن عبد الله زيتون اليصلتي. كما ورد عند ابن خلدون أيضا "بني واسين بن يصليتن" تاريخ، ج. 6، ص.120 .
(6) (7) أشارت إليهم وثيقة حبس الوسمادني المذكورة أعلاه.

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد أحساين بن واسين (1)	قصور فجيج	؟ ؟	لا زالت أسر أولاد احساين موجودة إلى حد الآن بقصر الوداغير
أولاد واسين (2)	قصور فجيج	فجيج	اختفوا من دون أثر
أولاد زروال (3)	قصور فجيج		اختفوا من دون أثر
بنو جرار (4)	كان قصرهم قائما في المكان الذي يحتله قصر الوداغير الآن	؟ ؟ ؟	انقرضوا
أولاد رفيعة (5)	على واد زوزنانة بفج تامزوغت بالواحة الفجيجية	إلى قصر زناكة الحالي بفجيج	قد يكون بعضهم غادر الواحة إلى جهة أخرى
أولاد منداس (6)	قصر المعيز وقصر العبيد بالواحة الفجيجية	؟	غير معروفة حاليا.

(1) ورد ذكر منتسبين إليهم في وثيقة كتبت على رق غزال مؤرخة في عام 931 هـ / 1524 م.

(2) (3) نفس المصدر السابق.

(4) بقي ذكرهم عالقا بذاكرة المسنين إلى الآن رغم مرور عدة قرون عن وقوع الحادث حسبما تناقلته الرواية الشفوية وتؤرخه في حوالي القرن 5 هـ . إن لقوة الذاكرة الجماعية، وانغلاقية مجتمعات القصور في المجال الصحراوي تأثير على حفظ الأخبار وانتقالها عبر القناة الشفوية من جيل إلى آخر بل ومن قرن إلى آخر.

(5) ورد ذكر أحدهم في وثيقة مكتوبة في جمادى الأخيرة عام 950 هـ / 1544 .

(6) نفس المصدر السابق.

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
الونشريسيون (1)	قصر الحمام فجيج	؟	لم يعد يذكر هذا الاسم بفجيج حاليا
أولاد عكري (2)	كان لهم قصر مستقل بفجيج شمال شرق قصر الودغيري	؟ ؟ ؟	بعد انقراض قصرهم تفرقوا في القصور الأخرى بالواحة الفجيجية
أولاد ونزار (3)	قصر العبيد فجيج	؟	اختفوا
أولاد محفوظ (4)	قصر العبيد فجيج	؟	اختفوا
أولاد علي بن سيد الملوك (5)	واحدة فجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد العيدوني (6)	قصر العبيد فجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد بن مرين (7)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا من الواحة
أولاد كزن (8)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا من الواحة

(1) ورد ذكر أحدهم هو سليمان بن محمد بن سعيد الونشريسي في وثيقة كتبت في أواخر شعبان عام 956 هـ / 1549 .
(2) نحتفظ بتقييد يذكر تشتيتهم مؤرخ في عام 1077 هـ / 1666 .
(3) (4) ورد ذكر أحمد بن امبارك بن ونزار العبيدي، وآل محفوظ في وثيقة كتبت في ذي الحجة 1094 هـ / 1682 .
(5) جاء ذكرهم في وثيقة مؤرخة في أواخر صفر، عام 1105 هـ / 1693م، وهم من جملة الأسر التي كانت لها غالبية الحصص المائية ببعض الفجارات الفجيجية.
(6) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1118 هـ/ 1706-07 م.
(7) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في شعبان عام 1142 هـ / 1729-30 م .
(8) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في ذي الحجة عام 1152 هـ / 1739-40 م .

أسماء الاسر او القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد هكوا الهارونيين (1)	قصر بني هارون كان قائما شرق قصر الوداغير بفجيج	؟	تفرقوا في القصور الأخرى
أولاد بوشامة (2)	قصر العبيد بفجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد غريس (3)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا
أولاد مرابط (4)	قصر المحارزة	تشتت سكان هذا القصر في القصور الفجيجية الأخرى	انقرض هذا القصر منذ أواسط القرن الماضي. (حوالي عام 1267 هـ)
أولاد سعيد وأولاد بقوس(5)	قصر الوداغير	؟	انقرضوا
أولاد قادي (6)	قصر الوداغير	؟	انقرضوا

(1) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في أواخر صفر عام 1176 هـ / 1762م .

(2) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في رجب عام 1183 هـ / 1769 .

(3) ورد ذكر محمد بن اغريس في وثيقة مؤرخة في زوائل ذي الحجة عاك 1188 هـ / 1775 م.

(4) جاء ذكرهم في وثيقة مؤرخة في 9 رجب عا 1197 هـ / 1783 .

(5) عايش بعض أعقابهم الأواخر، أحد المسنين (90 سنة) ممن أخذنا منه ذلك شفويا في صيف عام 1987 .

(6) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في رجب 1197 هـ / 1783 .

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
آيت قاسو (1)	أصلهم من بوسمغون بالجزائر حاليا	قصر الوداغير بفجيج	انقرضوا
بنو جليل (2)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا من الواحة
أولاد ليلي (3)	كان لهم قصر خاص بهم في خنق تاغيت بفجيج	انتقلوا إلى قصر زناكة بفجيج	
أولاد البعناني (4)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا من الواحة
آيت بورخيص وآيت باله (5)	قصر الوداغير	؟	اختفوا من الواحة
أولاد ݣاݣة (6)	قصر بني ونيف	؟	لم يعد هذا الاسم متداولا
أولاد يدير (7)	قصر المعيز (فجيج)	؟	لم يعد هذا الاسم متداولا
أولاد عامر المزوغيين (8)	في تمزوغت على ضفة نهر زوزنانة بالواحة الفجيجية	؟	اختفوا

(1) المخبر المسن المذكور أعلاه عايش بعضهم، بل إن سيدة من هذه العائلة وهي آخر الأعقاب، توفيت في هذه السنن الأخيرة.

(2) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في أواخر الحجة عام 1188 هـ / 1775 م.

(3) ورد ذكر هم في وثيقة مؤرخة في أواسط شعبان عام 1211 هـ / 1797 م .

(4) جاء ذكرهم في وثيقة مؤرخة في رمضان عام 1216 هـ / 1802 م .

(5) رواية المخبر السابق، وفي نفس التاريخ.

(6) جاء ذكرهم في وثيقة مؤروخة في أوائل ربيع الثاني 1279 هـ / 1862 م .

(7) جاء ذكرهم في وثيقة مؤرخة في محرم عام 1226 هـ / 1811 م.

(8) جاء ذكرهم في وثيقة مؤرخة في رجب عام 1296 هـ / 1878 م .

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد تيفاوت (1)	قصر العبيد بفجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد يوس (2)	قصر المعيز بفجيج	؟	لم يعد يتداول هذا الاسم في القصر إلا قليلا
أولاد أجماع (3)	قصر العبيد بفجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد هيدور (4)	أصلهم: عرب من بني عامر بن زغبة سكنوا قصر العبيد بفجيج	؟	اختفوا من الواحة
أولاد بوعبدلي (5)	قصر بني ونيف	؟	لم يعد لهم ذكر
أولاد ثابت (6)	الواحة الفجيجية	؟	اختفوا من الواحة
أولاد الناجم (7)	قصر العبيد	؟	اختفوا من الواحة
أولاد رزوك (8)	قصرز كرزاز	قصر الوداغير بفجيج	لم يعد هذا الاسم متداولا
أولاد عوهب (شرفاء) (9)	من تادلة على وادي أم الربيع	فجيج وتلمسان	لم يعد هذا الاسم متداولا
أولاد اللحيان (شرفاء) (10)	الواحة الفجيجية (قصر زناكة)	بعضهم هاجر إلى ورديغة والبعض الآخر هاجر إلى جبال زواوة	لازال بعضهم يقيم في قصر زناكة حتى الآن

(1) (2) (3) (4) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1212 هـ / 1797.

(5) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1196 هـ / 1781-82م .

(6) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1287 هـ / 1870-71 م .

(7) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1324 هـ / 1906-1907 م .

(8) أحد المنتسبين إلى هذه الأسرة كان فقيها عدلا، وقفنا على اسمه في ختام مجموعة من الوثائق العدلية بخط يده، جلها مؤرخ في النصف الأول من القرن الماضي.

(9) ورد ذكرهم عند المقري في إحدى نسخ الروض المعطار، خ.، ح. رقم 2040 ، الرباط.

(10) أحمد المقري: كنز الأسرار. كتبه في أوائل شهر محرم عام 773 هـ ونقل المخطوط إلى نسخة أخر في شعبان عام 1188 هـ على يد كاتبه الطيب بن عبد الرحمان الحاصي الشياظمي. خ. ح. الرباط

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد عزوز (أو العزوزيون (شرفاء) (1)	قصر بني ونيف (بفجيج)	هاجروا إلى قصر الصفيصفة أواخر القرن 7 هـ / 13 م حسب أحمد التقاييد، وإلى إيش والشلالة	
أولا علي (شرفاء) (2)	قصر الوداغير (بفجيج)	هاجر بعضهم إلى بلاد وكلة	اختفوا من الواحة
أولاد أبي سعيد (شرفاء) (3)	قصر الوداغير بفجيج	بلاد وركلة	اختفوا من الواحة
بنو وكلان وبنو يعلاهم (4)	الواحة الفجيجية	(هاجروا إلى تلمسان)	
أولاد ورياض (شرفاء) (5)	الواحة الفجيجية	هاجروا إلى بلاد النكور في الشمال على ساحل البحر المتوسط	اختفوا من الواحة

(1) أنظر أحمد المقري والعشماوي في المصدرين سابقا، وكذلك محمد بن محمد بن الحسن الخلفاوي في مخطوط "الدر النثير فيمن صح وثبت نسبه من الوداغير". خ.ع. الرباط..
ومختصر البيان لأحمد بن جزي التونسي كتبه عام 635 هـ واختصره قاضي قضاة تلمسان محمد بن أحمد بن عبد الله وأحمد المقري عام902 هـ / خ. ح.
(2) العشماوي، المصدر السابق.
(3) نفسه.
(4) المقري التلمساني، المصدر السابق .
(5) نفسه، وجدهم هو الولي الصالح سيدي ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن عيسى الشريف الودغيري، حسبما ورد في المصدر.

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد عمران شرفاء (1)	قصرالزاوية (فجيج)	انتقلوا إلى غريس وبعضهم انتقل إلى تلمسان والباقي منهم عاد إلى الصحراء واستقر بجوار جبل العمور	لم يعد لهم ذكر حاليا في الواحة الفجيجية
أولاد حركات (2)	قصر الوداغير (فجيج)	استوطنوا كلوان	لم يعد لهم ذكر حاليا في الواحة الفجيجية
أولاد المسواك (شرفاء) (3)	الواحة الفجيجية	هاجر بعضهم إلى تلمسان	اختفوا من الواحة
أولاد الوسمانديين (شرفاء (4) أولاد سلطان (شرفاء) (5)	جاءوا من تلمسان قصر الوداغير بفجيج	سكنوا بقصر المعيز	لم يعد لهم ذكر في الواحة بعض أحفادهم بفجيج الآن يسمون بالبوبكريين أو (أولاد بوبشر
أولاد سيمو (شرفاء) (6)	قصر المحارزة بفجيج	لقد حطم هذا القصر في منتصف القرن الماضي	لم يعد يتداول هذا الإسم في الواحة لكن بعبض أحفادهم يسمون الآن ب: أولاد رحو وأولاد مزيان

(1) أحمد المقري: كنز الأسرار. وكذلك العشماوي في مخطوط التحقيق في النسب الوثيق، الذي تحدث عن هجرة هذه الأسرة. مخطوط. خ.ع / الرباط. رقم . د. 1351 .

(2) يذكر السيوطي في كتاب النسب، أنهم من أولاد عبد الحق الجماليين الودغيريين من فجيج.

(3) من ذرية الشريف عد الرحمان الودغيري النازل بفجيج، أنظر معلمة القبائل والمدن المغربية لعبد العزيز بن عبد الله (اعتمادا على الدور البهية، ج. 1، ص . 141)، مطبوعات وزارة الأوقاف، عام 1977، ص. 69 .

(4) المقري التلمساني. المصدر السابق، جدهم هو أبو حفص عمر بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن الوسماندي داود.

(5) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1073 هـ وذكروا كذلك في أكثر من مصدر للأنساب الشريفية الفجيجية.

(6) ورد ذكرهم في وثيقة مؤرخة في عام 1194 هـ 1780/1194 م .

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد عمار شرفاء (1)	الواحة الفجيجية	هاجر بعضهم إلى قصر أم الكرار	
أولاد عزي (شرفاء) (2)	قصر الوداغير بفجيج	هاجر بعضهم إلى الظهرة واندمجوا مع قبيلة بين كيل فأصبحوا في عداد الرحالة حاليا	لازالت أسر منهم بقصر الوداغير إلى الآن
أولاد منصور (شرفاء) (3)	من قرية أولاد الحسين (قريش) المجاورة لأم الكرار	قصر الوداغير بفجيج	لم يعد يذكر هذا الإسم في قصر الوداغير
أولاد عبو لحسن (4)	من موطن بالقرب من صفيصيفة	قصر إيش	
أولاد علي بن سعيد (5)	من قصر صفيصيفة	قصر إيش	
أولاد مبارك (6)	وادي الساورة	قصر إيش	
أولاد المسعود (7)	من أولاد أنهار، فرقة قبيلة أحميان	قصر إيش	
أولاد علي (8)	من بني يعلى ناحية وجدة	قصر إيش	

(1) العشماوي. المصدر السابق.

(2) يعترف كل الفريقين: المستقر والرحالة في أيامنا هذه بنسبهما المشترك ويحتفظان معا بشجرة نسبهم الشريف، لم تحدثنا الرواية الشفوية عن سبب انتقال هذا الفرع من أولاد عزي إلى قبيلة بني وكيل ومتى حصل ذلك.

(3) ورد ذكرهم في وثيقة كتبت في 4 رمضان عام 1205 هـ / 1791 م وينسب هؤلاء للولي الصالح سيدي أحمد بن منصور المناصري. انظر كذلك العربي الهلالي. تاريخ وثائق ومعالم المطابع الدولية، طنجة 1981، ص. 109 .

(4) (5) (6) (7) (8) تقييد كتبه الفقيه العدل المرحوم محمد بن عبد الحق، استنادا على مجموعة من الوثائق لم يذكرها.

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد بوستة (1)	من قصر بني جرنيت المنقرض بواحة فجيج	قصر إيش	
أولاد يعو (2)	من صفرو	قصر إيش	
أولاد فضل (شرفاء) (3)	قصر زناكة	هاجر بعضهم إلى الحاجب واستوطن هناك	لازالوا بقصر زناكة إلى الآن
بنو عثمان بن عطية (4)	قصر بني هارون المنقرض بفجيج	؟	انقرضوا
بنو جرمون (5)	الواحة الفجيجية	؟	لم يعد هذا الاسم متداولا الآن
بنو العز المكين (6)	الواحة الفجيجية	؟	لم يعد هذا الاسم متداولا الآن
بنو كثير (شرفاء) (7)	الواحة الفجيجية	؟	لم يعد هذا الاسم متداولا الآن
بنو سمير (شرفاء) أو السميريين (8)	بجوار الواحة الفجيجية كانوا رحالة، أهل خيام سكنوا جبل بني سمير	مختلطلون مع قبيلة العمور	يبذكرون أحيانا مع من يسكن جبل بني سمير من قبيلة العمور

(1) نفس المصدر السابق

(2) نفسه.

(3) محمد بن الحسن الخلفاوي المخلوفي الفاسي الفجيجي الأصل. مخطوط سابق، ص. 299

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) نفسه

(6) نفسه

(7) نفسه

(8) نفسه، وينسبون إلى جدهم السميري الودغيري، انظر جريدة صحراء المغرب، عدد.57، 3 شوال 23/1377 أبريل 1958

أسماء الاسر أو القبائل	موطن الاستقرار الاول	المكان المهاجر إليه	وضعيتها فيما بعد
أولاد بن عزّة (1) (شرفاء)	قصر الوداغير بفجيج	هاجر بعضهم إلى قبيلة بني يزناسن	لازالت أسر منهم بقصر الوداغير
البدراويون (2) (شرفاء)	قصر الوداغير بفجيج	انتقل بعضهم إلى فاس والآخرون إلى سلجلماسة	لم يعد لهم ذكر بالواحة الفجيجية

تضم المنطقة نوعين من السكان حسب نشاطهم المعاشي، دأب كل صنف منهما في مزاولة ذلك النشاط من دون تغيير منذ قرون في شكل تقسيم لأعمال يكمل بعضهما بعضا: النوع الأول مستقر يسكن القصور ويشتغل بالفلاحة وكسب أعداد قليلة من رؤوس الماشية. والنوع الثاني يسكن الخيام ويزاول تربية قطعان كبيرة من الماشية، يرحل معها من موضع لآخر طلبا للماء والكلإ.

سكان القصور:

إذا كانت القصور الصحراوية في الواحات بمثابة نقط للكثافة السكانية في هذه المجالات المقفزة حسب قول بروديل (3)، فهي مع ذلك متفاوتة من حيث الحجم وعدد السكان. إذ باستثناء الواحة الفجيجية التي تضم سبعة قصور تشكل تجمعا سكنيا مترابطا، فإن باقي الواحات الأخرى لا تضم إلا قصرا واحدا مستقلا بنفسه.

(1) محمد بن الحسن الخلفاوي، المصدر أعلاه.

(2) إدريس بن أحمد العلوي الحسني: الذرر البهية والجواهر النبوية. ج. 2، ص. 141 ، مخطوط. خ.ع، رقم. 131 / الرباط.

(3) F. Braudel: la méditerranée... T. 1, pp. 169-170

والسكن في القصور متشابه، فالمباني مشيدة كلها بطوب من طين وخشب النخيل إضافة إلى مادة الجير بعد صهر صخوره في أفران تقليدية خاصة. وهذه المواد متوفرة كلها في عين المكان.

ويتميز البناء بشكله التراكمي، فغالبية الدور محتوية على طابق أو طابقين في القصور ذات الكثافة السكنية المرتفعة والطرق والأزقة ضيقة لا يزيد عرضها عن متر واحد إلى متر ونصف، باستثناء الطرق الرئيسية المؤدية إلى خارج القصر نحو البساتين والمسالك التي تربطها بالعالم الخارجي عبر أبواب ضخمة مصنوعة من خشب النخيل ومن جذوع المشمش والرمان، لتتمكن من خلالها قوافل الجمال المحملة بالبضائع، والخيالة وهم على ظهور خيولهم من الولوج إلى ساحات القصر السوقية بسهولة ويسر.

جميع القصور الصحراوية محاطة بأسوار وأبراج تختلف ارتفاعاتها وسمكها تبعا لأهمية القصر. فحسب الجنرال "كافينياك" الذي قاد حملة عسكرية إلى قصور الجنوب (1) فإن كل القصور محاطة بأسوار تتخللها أبراج للحراسة، وهي مبنية كلها بالطوب الطيني وتختلف عددا وطولا (2).

وتتوفر غالبية القصور في هذه الواحات على بنايات عمومية، تتلخص في مسجد بمئذنة أو بدونها وعلى كتاب قرآني، وغرفة أو غرفتين لاجتماعات أعيان جماعة الاقصر وعلى مخزن جماعي لخزن التمور والحبوب، تستخلصه الجماعة من

(1) قصر تيبوت وهو أحد قصور الجنوب المعنية بهذه الحملة بناه أبناء وحفدة سيدي بوتخليل الولي الصالح الذي توفي في عرباوات، وله ضريح بها في أوائل القرن 11 هـ / 17 م.
أنظر: Capitaine Gendre. Revue Tunisiènne. Tunis, 1909, p. 215.

(2) G. Cavaignac. Op. Cit

أرباب العائلات ، إضافة إلى ساحات عمومية تعقد فيها الأسواق ومناسبات الأفراح.

أما عن سكان القصور فليست لدينا إحصائيات عن أعدادهم، ما عدا تقديرات خلفها الأجانب خلال حملاتهم الاستكشافية لتمهيد احتلال مجال القصور منذ أواسط القرن الماضي. وهي تقديرات تتراوح بين المبالغة والاقتراب من الرقم المناسب، عمادها المعاينة المباشرة ورواية المخبرين. وسنكتفي بجدول ضمناه معطيات مختلفة جمعناها من عدة وثائق من الأرشيف الفرنسي.

- اسمه الكامل Cavaignac (Luis Eugéne) ولد في باريس بتاريخ 15 أكتبور 1822 وتوفي ب Ourne (Sarthe)، في 28 أكتوبر 1857، رقي إلى رتبة جنرال قسم (G. De division)

سكان القصور

القصور	السنة	عدد السكان حسب عدد المنازل	عدد السكان حسب عدد المجندين
عسلة	1847 (1)	60 دارا (360 ن)	
الصفيصيفة	1847	250 دارا (1500 ن)	
	1861 (2)	70 دارا (420 ن)	
	1875 (3)	33 دارا (198 ن)	
عين الصفراء	1847 (4)	120 دارا (720 ن)	
	1861 (5)	100 دار (600 ن)	
	1875 (6)	64 دارا (384 ن)	

---

(1) Cavaignac, op-cit

(2) حسب تقدير "Dastugue".

(3) حسب تقدير الجنرال "carterat". أما الجنرال "Pelissier"، خلال حملته لتلك القصور سنة 1848 فقد قدر عدد المنازل في قصر صفيصيفة في 200 منزلا

أنظر: Documents, T.2, p. 424

قدرنا عدد 6 أفراد في كل منزل، كرقم متوسط.

(4) Cavaignac, Ibid

(5) Document pour servir, op. cit

(6) Op-cit

أما الجنرال Pelissier فقد قدر عدد الدور في سنة 1849 في نحو 250 دارا.

أنظر: Documents, T.2, p. 424

القصور	السنة	عدد السكان حسب عدد المنازل	عدد السكان حسب عدد المجندين
تيبوت	(1) 1847	150 دارا (700 ن)	
أم الگرار الفوقاني	(2) 1847	ما بين 30-40 منزلا (180-240 ن)	
أم الگرار التحتاني	(3) 1847	100-120 منزلا (600-720 ن)	
واكدة	(4) 1893	42 عائلة (252 ن)	
بشار	(5) 1893	100 منزل (600 ن)	
	(6) 1895		124 مجندا (465 ن)

(1) Cavaignac, op-cit

يتكون قصرتيبوت من الفرق الآتية: الأحلاف، أولاد رحو، الشرفاء العلوين، أولاد سيدي التاج البوشيخيون، ثم أبناء المرابط السيد محمد بن الميلود المنحدر من الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف صاحب الضريح المشهور بمليانة.
أنظر: Gendre (c): Documents, Cavaignac

(2) Cavaignac, op-cit

(3) أحمد بن ناصر الدرعي تحدث عن المگرار دون توضيح من يعني بها، الفوقانية أو التحتانية يقول بأنها "قرية صغيرة فيه ناس ضعفاء". أنظر الرحلة الناصرية. مخطوط. خ ح. الرباط.

(4) أنظر: Document pour servir, T. 2, p. 614

(5) Ibid

(6) مذكرة Renault المؤرخة في 1895 .30 H. C.23. A.O.M

القصور	السنة	عدد السكان حسب عدد المنازل	عدد السكان حسب عدد المجندين
بوكايس	1883 (1)	40 منزلا (224 ن)	61 مجندا (228 ن) 1893 (2)
القنادسة	1883 (3)	200 عائلة (1200 ن)	
إيش	1883 (4)	30 عائلة (180 ن)	

حسب قانون كاريط Carette فإن عدد المجندين هؤلاء يضاف إليهم الربع من غير القادرين على حمل السلاح يُضَعّفُ الجميع ثلاث مرات ليصبح العدد كما هو مذكور أعلاه.

وتحدث كل من الهشتوكي وأحمد بن ناصر الدرعي ومحمد بن عبد السلام بن ناصر في رحلاتهم الحجية عن قرى أو مداشر بشار ويقترب بعضها من بعض.

(1) مذكرة Rochas كتبها في عين الصفراء في يونيو عام 30H. C.23. 1883 A.O.M

(2) Documents pour servir. T.2, p. 397

(3) مذكرة Rochas(1883). أما Fillias في حديثه عن حملة Wimpffen سنة 1870 إلى المنطقة فقد قدر عدد سكان هذا القصر في نحو 2000 نسمة

أنظر: Documents, T.2, p. 627 .

(4) أنشئ هذا القصر في القرن 8 هـ، واستقرت به أسر مختلفة هاجرت إليه. أنظر مذكرة Rochas. وفي مقال كتبه J.Homo و R.Hugonot، ذكر أن عدد عائلات هذا القصر في إحصاء عام 1936 وصل إلى 35 عائلة وهو ما يوزاي 210 نسمة.

ICH, Oasis de montagne. pp. 10-19, in Travaux de l'Institut de Recherche Sahariennes. pp. 97-123, 1951

القصور	السنة	عدد السكان حسب عدد المنازل	عدد السكان حسب عدد المجندين
بني ونيف	1905 (1)	33 عائلة (198 ن)	
موغل	1912 (2)	70 منزلا (420 ن)	
القصور الفجيجية	1921 (3)	(9261 ن)	

السكان الرحل

بنو كيل والعمور قبيلتان رحليتان تحتلان معظم الهضاب العليا المغربية (الظهرة) والمرتفعات على الحدود الجنوبية المغربية الجزائرية. مسكنهما تحت الخيام، وعيشهما من الأنعام. والخيمة عند الرحلي هي بمثابة دار المستقر في القصور، تحتوي على الضروري وبعض الكمالي من المتاع ومواد العيش، ينقلها معه على ظهر الجمال أينما ارتحل وينصبها متى أقام.

(1) F. Doumergue: Le Ksar de Beni Ounif. Oran, 15 octobre, 1905.

قصر بني ونيف كان تابعا للقصور الفجيجية إلى نهاية القرن 19، وبموجب البروتوكول المغربي الفرنسي لرسم الحدود الجنوبية الشرقية مع الجزائر عام 1901، ألحق هذا القصر وواحته بالجزائر.

(2) تقرير كتب في 4 مارس 1912 3H. C.22. AM.G.

(3) Russo, (Dr): "Au pays de Figuig". Bull Soc. Géo. du Maroc, pp. 467-468, 1923

لقد تعددت تقديرات الدارسين الأجانب عن ساكنة القصور الفجيجية وتراوحت ما بين 12.000 و 17.000 ن، وفي دراستنا السابقة عن هذه الواحة خلصنا بعد التمحيص والمقارنة إلى عدد: 12.883 ن. أنظر: أحمد مزيان: فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903). مطبعة فجر السعادة، 1988، ص. 49 الدار البيضاء.

تصنع الخيمة من مزيج الصوف والشعر، ويختلف حجمها حسب غنى الأسرة ومقدار ما تملكه من الغنم والإبل. منها ما يبلغ اتساعها 12-15 م، والأصغر منها بين 6-8 م ويصل علوها إلى 2 م (1).

ولأخذ فكرة عن بعض محتويات الخيمة ندرج مقتطفات من بيان مرفق برسالة بعث بها القائد المخزني في المنطقة عمر بن مسعود السوسي إلى السلطان مولاي الحسن يخبره بما سلبه جنود حاكم عين الصفراء الفرنسي لأرباب خيام من قبيلة العمور من المواشي والمتاع، منهم المقدم علي بن غلوس العبدلاوي:"... خيمة بما فيها أغراير وأقصوع وأواني النحاس".

ولعلي بن الميلو: "عشرون دبليج واقصاع وغراير وعكة سمن وحملا تمر (كذا)".

وللمداني: "خمس غراير وبرمتين نحاس وجميع أثاث خيمته من الفران ومزاويد خمسة من الدوم". ولمحمد بن عامر: "... الخيمة بما فيها من فراش وأثاث ونحاس وغيره" (2).

والوحدة الاجتماعية عند البدو الرحل هو الدوار، وتتشكل الفرقة من عدة دواوير، والقبيلة من عدة فرق لتصل إلى الاتحادية المكونة من عد ة قبائل. وحسب بعض التحريات التي قمنا بها في عين المكان وكذلك فحص ما تجمع لدينا من الوثائق فإن قبائل الجنوب الشرقي تستعمل فيما بينها مصطلحات أربعة تصف بها

---

(1) André Louis: “Nomades d’hiver et d’aujourd’hui, dans le sud tunisien”. Publié avec le concours du C.N.R.S EDI SUD, Aix, En. Provence, 1979, p. 163

(2) رسالة مؤرخة في 29 ذي القعدة، 1304 هـ / 19 غشت 1887، م.و.م / ملف فجيج.

مكوناتها السياسية والاجتماعية، كما هو الآتي: الدوار، وهو الوحدة الدنيا، ثم الفرقة وهي الوحدة السياسية ثم القبيلة والعرش (1). لكن بني كيل عندما يخاطبون من الجهات المخزنية الرسمية أو يتحدثون عن أنفسهم يستعملون مصطلح "قبائل بني كيل"، لذلك سنأخذ بالمصطلح الأول في ثنايا الأطروحة.

والفرقة هي الوحدة السياسية والحربية في القبيلة، لها جماعتها الخاصة، يمثل فيها شيوخ الدواوير، وهم في نفس الوقت رؤساء العائلات الكبيرة (2)، ممن يملك قطعان عديدة من الماشية، أو يتوفرون على ميزات شخصية تجعل منهم قادة الرأي أو الحرب في دواويرهم. وعلى رأس الجميع يوجد شيخ الفرقة يختار من بين أعيان الجماعة. هذه البنية المهيكلة للفرقة يوازيها الربع داخل القصور في الواحات. فالسلطة إذن يمارسها الشيوخ باسم أعضاء الجماعة وتجتمع الجماعة تحت رئاسة شيخها للتشاور كلما أحست بخطر خارجي، أو للاتفاق على أخذ الثأر أو لتسوية الخلافات الناشبة بين المجموعات المكونة للفرقة، أو توزيع مجالات الرعي ونقط الماء.

أما أحكام القصاص داخل القبيلة أو الفرقة، مما لا يرجع البث فيه إلى الشريعة الإسلامية فإن العرف يأخذ مجراه كما هو الشأن لدى جميع القبائل وسكان القصور الصحراوية، عبر أحكام عرفية شفوية غير مكتوبة سبق الاتفاق عليها وجرت ممارستها من قبل. ففي حالة جريمة القتل يطرد القاتل إلى فرقة أو دوار آخر

(1) من ذلك ما ورد في وثيقة لحل نزاع حول مجال الحرث والرعي قام بين طرفين ينتميان معا إلى عرش أولاد أيوب فرقة أولاد بلقاسم، كتب العقد في 14 صفر 1364، 2 يناير 1945 .

(2) Mohamed Berdouzi: "Robert Montagne et les structures politiques du Maroc prè-colonial. regards sur le Maroc". Publication C.H.E.A.M, Paris, 1986; p. 44

إلى أن تسوى دية القتيل لصالح عائلته، وتحددها في ما بين 300-400 فرنك فرنسي، أما السرقة فينتدب لها مجموعة من الأفراد عن كل الطرفين المعنيين بالحادث ويسهرون على رد الأشياء المسروقة لأصحابها ولو باستعمال القوة (1).

قبيلة بني وكيل:

ينقسمون إلى قسمين كبيرين: بنو كومن، وبنو غمراسن. وكل قسم مكون من عدة مجموعات، وفرق، ودواوير، تختلف أحجامها البشرية وثرواتها من المواشي.

وصل عدد خيام هذه القبيلة عام 1906 حوالي 3200 خيمة حسب تقديرات "بوجي" وإذا قدرنا 6 أفراد لكل خيمة سيصل مجموع سكان القبيلة إلى 19200 ن (2)

(1) تقرير الضابط المترجم مارشان Marchand، كتب في مشرية بتاريخ 16 أكتوبر 1902 151. A.O.M 1J.

(2) L.Banger "La confédération des Benis Guil". Bull. Soc. Géo. Arch. Oran, 1907. p. 1

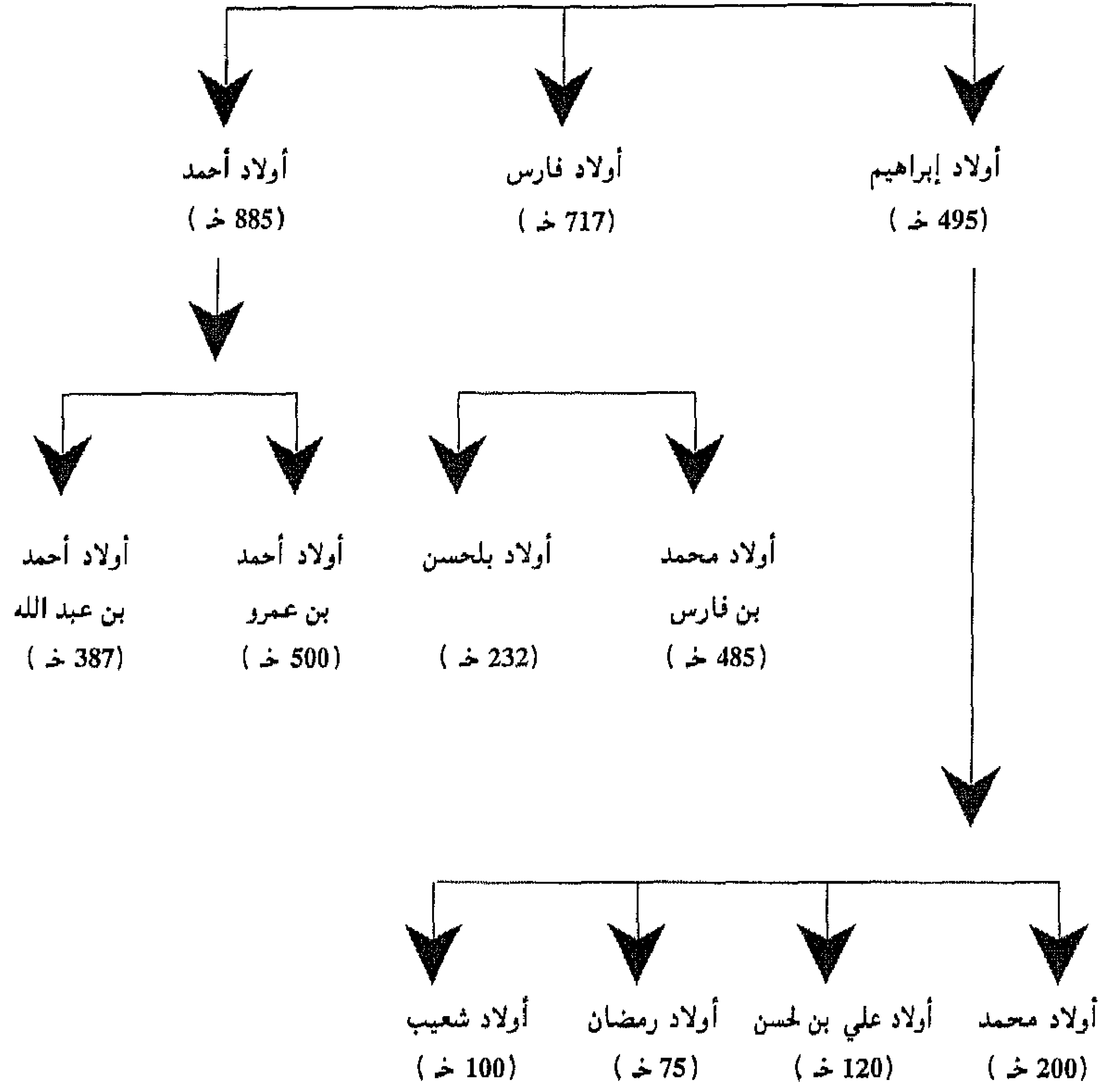
- تختلف تقديرات الأجانب عن عدد خيام هذه القبيلة. صاحبا مؤلف Documents pour servir يجعلانهم في حدود 2725 خيمة. أما الضابط مارشان Marchand في مذكرته السابقة، وكذلك Suzane Nouvel في مقالها: Nomades et sedentaires au Maroc فيقدران عدد الخيام في 3500 خيمة. وأوصل أحد الضباط الفرنسيين في تقريره بتاريخ 4 مارس 1912 عددهم إلى 4000 خيمة.

- ويتحدث هذا التقرير كذلك عن مجموعة من دواوير منسوبة لأولاد سيدي الشيخ اندمجت مع قبيلة بني كيل منذ أجيال وهي على التوالي: أولاد سيدي بن عيسى وأولاد سيدي الحاج إبراهيم، وأولاد سيدي محمد.

- وأخيرا فإن علي السوسي السملالي قدر عدد خيام بني گيل في 2200 خيمة، وذلك خلال رحلة قام بها رفقة وفد مخزني لمعاينة الحدود المغربية الجزائرية برئاسة مولاي عرفة عم السلطان سنة 1884. أنظر مؤلفه: منتهى التقول ومشتهى العقول،. مخطوط خ. ع. الرباط د. 633 .

بنوگومن

(2099 خيمة)



1- أولاد إبراهيم

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
أولاد مَحمد	أولاد الطالب محمد	40	أحمد بن لكبير، وبوحفص ولد الطاهر بن مبارك
	أولاد سليمان	50	حمامو ولد إبراهيم بن بوزيان
	أولاد عبد الرحمان	30	محمد ولد بن بوجمعة بن الضيف
	أولاد الفقير	20	العربي ولد البشير
	أولاد الزورگ	20	علي ولد اليمني
	أولاد عبد الكريم	10	محمد ولد علي بن دحمان
	أولاد محمد بن دحمان	30	الكريديم ولد النعيمي بن دحمان
أولاد علي بن لحسن	أولاد مهني بن طالب	20	الحاج سماعين بن مهني
	أولاد أحمد بن طالب	15	حمامو ولد محمد بن عبد الله
	أولاد الحسن بن طالب	15	سليمان بن المامون
	أولاد قاسو	20	معمر ولد سويح
	أولاد بوعرفة	30	محمد لخضر ولد علي بن بوعرفة
	أولاد علي بن طالب	20	دحمان ولد امبارك بن علي
أولاد رمضان	أولاد بوزيان	20	الفقير محمد ولد ابراهيم بن بوزيان
	أولاد عبد القادر	5	الفقير محمد ولد إبراهيم بن بوزيان
	أولاد عبد الرحمان بن رمضان	30	محمد بن عبد الله
	أولاد علي	20	الفقير حمزة ولد بن صالح
أولاد بوشعيب	أولاد عبد القادر	30	سليمان ولد الكبير
	أولاد علي	30	الفقير بلقاسم ولد مومن
	أولاد زريك	40	محمد ولد مبارك

1- أولاد فارس

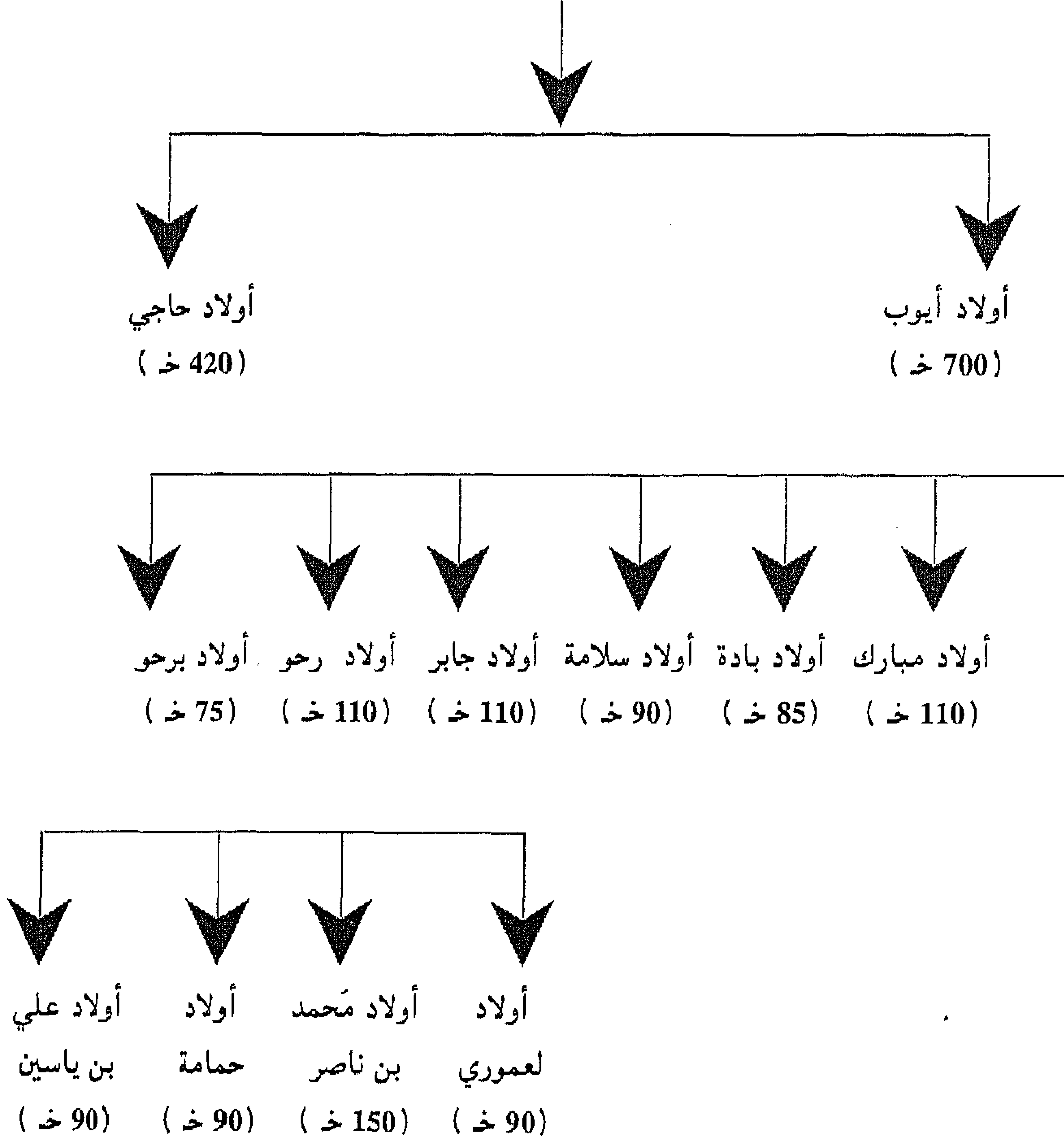
اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
	أولاد بوجمعة	8	أولاد أحمد ولد علي
	أولاد حيدة	9	سليمان بن حيدة
	أولاد بن زعين	8	بوجمعة ولد بن زعين
	أولاد مَحمد	11	اليماني ولد بوزواطة
	أولاد علي	12	محمد ولد بوستة
	أولاد عبد الله	8	امبارك ولد عبد الله عطيط
	أولاد بن عبد الله	20	امبارك ولد بن عبد الله
	أولاد مبارك	30	دحمان ولد امبارك
	أولاد المقدم الكبير	9	المقدم محمد ولد الميلود بن لكبير
أولاد محمد بن	أولاد محمد بن أحمد	100	الطالب امبارك ولد سليمان بن دحمان
فارس	أولاد مَحمد	50	علي بن دحمان وبن سماح ولد بن سليمان
	أولاد عبد الرحمان	80	محمد بن عبيد
	أولاد عزي	40	مولاي الميلود بن قدور
	أولاد بوعزة بن فارس	100	سماعيل بن زروقي، وأحمد ولد المقدم
أولاد بلحسن	أولاد الجيلالي	80	لخضر بن عزي والمقدم مومن ولد الميلود
			بوجمعة ولد بلقاسم
	أولاد بن عزة	40	العربي ولد أحمد بن حمو
	أولاد حمو	20	بن عبد الله ولد المختار
	أولاد العليبات	12	قدور ولد محمد بن محمد
	أولا علي	80	

3- أولاد أحمد

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
أولاد أحمد بن عمرو	أولاد الماحي	40	الطالب المكي بن دحمان بن ماحي
	أولاد عبد الكريم	30	محمد بن عمرو بن مختار
	أولاد مسعود	90	عمرو ولد شبيرة
	أولاد بن ناصر (النويصرات)	40	محمد بن أحمد بن زريكة
	المطاهرة	40	محمد ولد أحمد بن لحسن
	أولاد ميلود	60	محمد ولد أحمد بن دحمان
	أولاد عبيد	40	حمان ولد أحمد بن عبيد
	أولاد مجذوب	60	محمد بن فضيل
	العلاونة	100	عبد القادر ولد الطيب بن الصغير
أولاد أحمد بن عبد الله	أولاد عبد الله بن أحمد	40	المهدي ولد عبد الله بن أحمد
	أولاد عمرو	50	أحمد ولد محمد بن عمرو
	أولاد المدني بن دحمان	60	عبد الله بن المدني التويجر
	أولاد محمد	40	بولنوار ولد بن محمد
	أولاد علي	60	علي ولد أحمد بن العربي
	أولاد بوضيفة	40	ولد بن علي وبوضيفة
	أولاد حدادة	30	ركبة ولد موسى ولد الحدادة
	أولاد بن شيحة	40	النعيمي ولد بن شيحة
	أولاد العادل	15	الطيب ولد سلمان بن عادل
	أولاد بودواح	12	الفضيل ولد محمد بن عبد الله ولد بودواح

بنو غمراسن

(1120 خيمة)



1- أولاد أيوب

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
	أولا بلقاسم	30	مبارك ولد بن علي
أولاد بلقاسم	أولاد بن عمرو	30	الفقير بلقاسم ولد عمرو
	أولاد غيلان	60	بن أحمد ولد قدور
	أولاد جلول	40	محمد بن صلاح
أولاد مبارك	أولاد أحمد بن علي	20	محمد بن صلاح
	أولاد بوعيش	30	دحمان ولد بوعيش
	أولاد بوفايدة	26	محمد ولد بوفايدة
	أولاد مَحمد بن بادة	10	محمد ولد حميدة بن بادة
	أولاد مبارك بن بادة	15	بن محمد ولد مبارك بن بادة
أولاد بادة	أولاد العرج بن بادة	20	بن حمو بن العرج
	أولاد سغروشن بن بادة	20	عبد الكريم ولد أحمد بن سغروشني
	أولاد بومليفة بن بادة	10	الحسين ولد بومليفة
	أولاد فشطلة بن بادة	10	ميلود ولد فشطلة
	أولاد عبد الله	40	بوجمعة ولد أحمد بن علي ولد سلامة
أولاد سلامة	أولاد بن سلامة	40	أحمد ولد مبارك بن ميلود بن سلامة
	أولاد وهاب	10	محمد ولد بن وهاب
	أولاد عبد الله بن جابر	40	المامون ولد عبدوس
أولاد جابر	أولاد عبيود	20	ولد أحمد الحنفي
	أولاد محمد بن دحمان بن جابر	40	الماحي ولد دحمان
	أولاد بو طاهر	10	ولد أحمد بن رمضان بن الطاهر

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
أولاد رحو	أولاد محمد بن رحو	30	أحمد ولد عبد الرحمان ولد محمد بن لحسن
	أولاد بلحسين	20	محمد ولد الحسين بن الحسن
	أولاد الحسين	20	الحسن بن الحسين
	الشريطات	40	الطالب ولد أحمد بن علي
أولاد برحو	أولاد العالم		معمر ولد العالم
	أولاد برحو ولد محمد		المكاوي ولد محمد بن برحو
	أولاد المامون بن برحو		المامون ولد محمد بن المامون بن برحو
	أولاد دحمان بن دحمان		علي ولد دحمان
	أولاد الصغير بن دحمان		علي ولد دحمان

2- أولاد حاجي

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
أولاد مَحمد بن ناصر	أولاد محمد بن ناصر	80	مَحمد لن مولود
	أولاد أحمد بن ناصر	30	مبارك ولد عبد المالك
	أولاد مَحمد بن ناصر	40	محمد ولد أحمد بن فضيل
أولاد حمامة	أولاد مومن	20	محمد بن عيسى ولد مومن
	أولاد بن والي	30	محمد ولد بن والي
	أولاد بن حمامة	40	محمد ولد بن عمران

اسم الفرقة	اسم الدوار	عدد الخيام	شيوخ الدواوير
أولاد علي بن ياسين	أولاد حمادي	30	حمادي ولد عبد الله بن حمادي
	أولاد رمضان	20	المقدم الحاج ولد بن عسابة
	أولاد عيسى	20	الحسين ولد الهواري
	أولاد بن ميلود	10	بوجمعة ولد الميلود
	أولاد مَحمد بن بلقاسم	10	المامون ولد مَحمد بن بلقاسم
أولاد لعموري	أولاد لعموري	40	مولود ولد محمد بن مولود
	أولاد المداح	10	مولود ولد محمد مولود
	أولاد عبد الله	20	الحاج ولد الناصح
	أولاد بن عبو	20	الحاج (؟)

قبيلة العمور

تنقسم إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي:

1) أولاد بوبكر - 2) أولاد سليم - 3) السوالة (1)

يصل مجموع المشاة 965، ومجموع الفرسان 150 حسب الإحصائيات الأجنبية وهو ما يشكل مجموع 4187* نسمة (2).

(1) تقرير 4 مارس 1912، 3H. 22 إرشيف فانسين.

* حسب قانون كاريط.

(2) يذكر الضابط Monthanbery في مذكرته المحررة في عين الصفراء بتاريخ 7 فبراري 1888 نقلا عن رواية شفوية، أن مجموعة صغيرة العدد من العمور اندمجت في زمن سابق لم تحددها الرواية مع فرق أولاد جرير، وأصبحت الآن جزءا منها. 1H. 1024 إرشيف فانسين بباريز.

أولاد بوبكر

أسماء الفرق	عدد المشاة	عدد الفرسان	مجموع الافراد
أولاد عبد الله	200	25	846 ن
المدابيح	80	16	360 ن
أولاد كطيب	**140**	**20**	**600 ن**
	420	61	1806

أولاد سليم

أسماء الفرق	عدد المشاة	عدد الفرسان	مجموع الافراد
أولادالشحمي	100	20	450 ن
أولاد بوشارب	80	15	360 ن
المرينات	**120**	**20**	**524 ن**
	300	55	1338 ن

السوالة

أسماء الفرق	عدد المشاة	عدد الفرسان	مجموع الافراد
أولاد عليات	100	12	420 ن
أولاد عمرو	70	10	300 ن
أولاد سليمان	**75**	**12**	**333 ن**
	245	34	1053 ن

إن اللوحة التي رسمناها لساكنة المنطقة المستقرين منهم في القصور والقبائل الرحلية وضعها الضباط الفرنسيون خلال فترة التوسع الاستعماري، بناء على المشاهدة العابرة وإخبار المخبرين. فهي إذن تقديرات ليست سليمة من الزيادة والنقصان. ومع ذلك فلا تبعد كثيرا عن واقع الحال، إذ يكفي هنا أن نعطي مثال قصر "إيش" لنجد أن الفارق بين تقدير عام 1883 والإحصاء الرسمي الذي قامت به الإدارة الاستعمارية عام 1936 لا يتجاوزه مقداره خمس عائلات (50-35 نسمة) مع أن مدة خمسين عاما كافية لكل أنواع التغيير في حجم الساكنة سلبا وإيجابا.

وبالنظر لمجموع الساكنة قصورا وقبائل، فإن حجمها لا يتناسب مع المساحة الشاسعة للمنطقة، وليس من شك أن للتحولات المناخية الكبيرة الحاصلة منذ زمن بعيد، التي نتج عنها جفاف يكاد يصبح أزليا في المنطقة، دورا كبيرا في هذا العقم البشري. ولابد أن نضيف لهذه القلة البشرية ما ينشأ عن توالي سنين الجفاف القاتلة وانتشار الأوبئة، من تخريب لساكنة المنطقة، وكذا الهجرة لأسباب أمنية. وقد تميز القرن التاسع عشر بدورات عجت فيها الأوبئة والأمراض الفتاكة ضربت بلدان المغارب طولا وعرضا، بدءا من تونس على الأقل إلى المغرب الأقصى وحصدت الكثير من الأرواح، وقد أصيبت ساكنة المنطقة منها بنصيبها. فهذا شاهد عيان يؤرخ ما حلّ بواحات فجيج وإيش، وغيرهما، ومستقرات بعض فرق قبيلة العمور من الخسائر في الأرواح والإنتاج الزراعي، الناتجة عن المجاعة بسبب القحط عام 1075 هـ / 1664 وما أعقبها من سيول مطرية جارفة في السنة الموالية (1076 هـ) يقول: "وفي خمسة وسبعين قبل هذا العام (1076 هـ) مطرت السحاب حتى اشتد سيلان الوادي ولحق أناس من العمور ونجا منهم من نجا ومات منهم ثلاث وفسد أيضا بلاد ييش ولم يبق منهم إلا القليل، وقبل هذا العام اشتد الغلاء

على المسلمين ثلاث سنين حتى أكلوا الناس العلف والعظام الرميم والجلود وقد مات كثرة الناس بشدة الجوع... وهذا شهدنه (كذا) بأعيننا نجانا الله من ذلك..." (1).

هذه المجاعة المهولة وما أعقبها من أوبئة حصدت أعدادا كبيرة من الأرواح في سائر المغرب وكانت موضوعا لتأليف في شكل رسالة بعث بها محمد بن عبد الجبار العياشي لشيخه أبي سالم - وهو غائب في الحجاز لأداء فريضة الحج- عنونها ب"المشتاق لبعض ما وقع في المغرب عام اثنين وسبعين (1072 هـ) من الجوع والشقاق". من بعض ما جاء فيها عن الأقاليم الصحراوية: "... ثم في أول جمادى من عام اثنين وسبعين ظهر (أي الجوع) واشتد في بلاد الصحراء وعمها من أولها إلى آخرها مدنها وقراها" (2). كذلك عبد الكبير بن عبد الرحمان الفاسي في مولفه عن الوفيات، تحدث عن مرض الحمى الذي "مات بـــه خلـــق كثيرين" عـــام 1194 هـ / 1780 وعن الغلاء المفرط بسبب الجذب مات به خلق كثير من أهل القبائل والمدن في المغرب"وأكلت الجيف واندثرت قبائل" سنة 1241 هـ /1826 (3). أما الفقيه العربي المشرفي فقد ضمن كلا من نزهة الأبصار، وأقوال المطاعين وغيرهما من مؤلفاته العديدة، خمس محطات زمنية حل فيها الوباء القاتل وانتشـــر انتشـــارا واسعا مع البوادي والحواضر في المغرب والجزائر، وهي أعوام: 1234 هـ / 1818-1250 هـ/ 1834-1262 هـ/ 1845-1267 هـ / 1850-1285 هـ 1868 .

وقد أورد أوصاف حية عن طبيعة بعض هذه الأمراض، وتعامل الناس معها ندرج بعضها فيما يلي: "وفي عام الخمسين من هذا القرن (13 هـ) ظهر الموت بالوباء

(1) محمد بن الصغير بن علي بن عيسى. تقييد ضمن مجموع مخطوط من تأليفه، اقتبس مادته من عدة كتب ذكر أسماءها في المخطوط، تختلف تبعا لذلك تواريخ نقلها ما بين 1072-1076 هـ، مخطوط خاص.

(2) توجد هذه الرسالة ضمن مخطوط "الأحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش". الخزانة العامة، الرباط، رقم 1433.د.ص 247 .

(3) عبد الكبير بن عبد الرحمان المجذوب الفاسي: تذكرة المحسنين في وفيات الأعيان. خ. ع، رقم 12.235 : .

ولكن بوجع القلب لا بالحبة المذكورة أفنى به الأمم الكثيرة وصاحبه لا تنزع من فمه آنية الشرب فؤاده محترق وظاهر جسده أبرد من الثلج وقل من يجاوز الساعتين به. (...) والعجم الأطباء يسمونه الريح الحمراء. وفي عام 1262 هـ كان عاما هذا الوباء أيضا بهذا الوصف، وفي عام خمسة وثمانين كان بمدينة فاس بهذا الوصف" (1).

ويصف حالة الفزع الذي حل بسكان وجدة من جراء ما انتشر فيها من الوباء عام 1267 هـ "... قرية وجدة ومنها دخل إلى البوادي التي بازائها... وفزع الناس من هذا الوباء فزعا شديدا فلا يحضرون جنازة ميت ولا يأكلون طعاما سيق لها ويتسامح الناس في الطرقات والأسواق" (2).

أسباب المعاش

نقرأ في مقدمة ابن خلدون "إن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال... يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة (...) فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به

(1) نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب أحمد بن محمد وولده الحسين، عرف فيه بالشيخين الحسين وولده أحمد بن محمد التمكدشتي. مخطوط. خ-ع.ك. رقم 579 .
(2) كناشة (المشرفي) كتبها سنة خ.ع. ك. 204 .
وللمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع أطروحة محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، رسائل وأطروحات رقم 18. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992 .

أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم" (1).

لقد تعمدنا أن نورد هذا النص لما يشكله من شهادة على أمر واقع منذ زمن صاحبه في القرن الثامن الهجري إلى يومنا هذا. فسكان المنطقة ما زالوا في معاشهم موزعين في شبه تقسيم للعمل بين الفلاحة والغراسة وبعض الصنائع الحرفية وبين تربية الماشية والصيد. فالسكان البرابرة من أصل زناتة في الغالب هم المعمرون للقصور يشتغلون بغرس النخيل والأشجار المثمرة الأخرى وما سواها من أنواع المنتجات الزراعية، كما دأب أسلافهم ممن أنشأوا الواحات الخضراء في الصحراء. بينما ما تزال القبائل العربية المحيطة بمجال الواحات في المنطقة تظعن مع مواشيها من غنم وماعز وإبل من جهة إلى أخرى، غالب منتجعاتها الوطإ ما بين رمال القفر في الجنوب طلبا للدفء وهروبا من قساوة البرد شتاء، وبين فسيح الظهرة في الشمال صيفا وربيعا. وتدين الواحات الصحراوية في نشأتها وبقاءها للجريان الباطني، نظرا لطابع الجفاف المسيطر على هذا المجال. فسواء منها العيون المائية المسلوكة عبر القنوات والسواقي إلى البساتين، أو العيون المتفجرة في سفوح الجبال الجارية على السطح في شكل أودية محلية فإنها ترجع في الأصل إلى الخزان المائي الباطني في المنطقة.

---

(1) عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، من تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر... المجلد الأول، مكتبة المدرسة ودار الكتاب واللبناني للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1967، ص. 212-213.

وأهم ما يلفت النظر في نوع الكسب والمعاش لدى أهالي الواحات تشابه طرائق الإنتاج ونوعية المنتج الزراعي. فالطبيعة تتدخل بشكل حاسم في تحديد الحيز الجغرافي لامتداد المغروسات وزرع البذور وكذا نوعية المزروعات. إذ منذ نشأة الواحات في القرون الهجرية الأولى على ما يبدو، لم تتغير المنتجات الزراعية ولا حتى طرائق الإنتاج إلى يومنا هذا في المنطقة. فهذا البكري في القرن الخامس الهجري يخبرنا عن إحدى تقنيات توزيع ماء الري في الواحات حسب الأنصبة (1). وبعده العياشي في أواسط القرن 11 هـ / 17 م. يتحدث عن تقنية الخطارة في وركلا بالجزائر (2). وكلا التقنيتين لهما حظور في عدة واحات في المنطقة، المعتمدة على مياه العيون المتفجرة (3). ونفس الأمر بالنسبة للمنتجات. فإذا كانت شجرة النخيل هي المسيطرة على المجال الزراعي في الواحات لتوفر المناخ الحار الملائم لمثل هذا الغرس، ونظرا للخدمات الكبيرة التي تقدمها هذه الشجرة لسكان الواحات باعتبارها مصدر عيشهم اليومي ومن جذوعها تصنع الأبواب والسقوف لدورهم ومساجدهم، فإن الأشجار المثمرة الأخرى والمنتج من الفواكه والخضر متماثلة في جميع الواحات من درعة إلى الجريدة التونسي من دون استثناء. ويكفي أن نطالع كتب الرحلات الحجية العابرة للصحراء خلال القرنين 17-18م، لنقف على ذلك. يقول الهشتوكي في رحلته عام 1119 هـ عند وصول ركب الحجيج إلى فجيج: "... لقي جماعة من وجوه أهل فجيج الشيخ بعنب وتمر جديد ورمان وتين جديد وخوخ

(1) عبد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. نشره (دوسلان)، طبع بالجزائر عام 1857، ص. 128 .

(2) العياشي: ماء الموائد.

(3) راجع بحثنا عن المجتمع الفجيجي: "مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر". (1845-1903). مطبعة فجر السعادة، الدار البيضاء، 1988 .

وفقوس". في أم الكرار التقى معهم أهلها "بخوخ وبادنجان وقرع وشعير" (1). أما محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي في حجته سنة 1199 هـ / 1784 فإنه يصف واحة تييوت بأنها "بلدة ذات أشجار عنب وتين ورمان وخوخ وبعض نخيل (2). ويقف عبد المجيد الزبادي في حجته لعام 1158/1745-46 م على المنتجات ذاتها في واحة توزر بالجريد التونسي"... بساتين ذات عنب وتين وخوم ورمان... وبطيخ وقرع ولفت وبادنجان" (مم). وتتحدث مذكرة "روشاس" ؤقذصخن سنة يححمم عن قصر القنادسة وبساتينه الممتدة لمسافة 600 م تزرع فيها أنواع من الخضر والفواكه تحت أشجار النخيل مثل القرع واللفت، والبطيخ (4). وعند انتشار النفوذ الفرنسي في المنطقة منذ ثمانينات القرن الماضي جرب إنتاج بعض الخضر كالبطاطيس، وأخذت تستقطب اهتمامات بعض الفلاحين الأهالي في كل من واحات: إيش، فجيج، القنادسة، تييوت (5).

وإذا كانت هذه المنتجات الزراعية تكفي الحاجة بل ويحصل عنها بعض الفائض في سنوات الخصب حسب موقع كل واحة واهتمام أهاليها بهذا المنتوج أو ذاك، فإن إنتاج القمح والشعير في مربعات صغيرة ظل نقصا مزمنا لمعظم الواحات عبر تعاقب السنين نظرا لمحدودية المجال الصالح للزراعة أصلا، وعدم كفاية المحتاج من مياه الري. وتفصل البساتين في الواحات عن بعضها البعض بواسطة

(1) الهشتوكي. المصدر السابق.

(2) الرحلة الكبرى. مصدر سابق.

(3) عبد المجيد بن علي بن محمد الزبادي: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام. مخطوط خ.ع.ك 398 .

(4) مصدر سابق.

(5) J.P. Homo, R. Hugonot: “Ich, oasis de montagne”, p. 119

راجع أيضا: أحمد مزيان: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي. ص. 166 .

جدران مبنية بالطين تتفاوت ارتفاعاتها بين متر. ومتر ونصف وأكثر، لمنع الدواب من إفساد المزروعات. ويحيط بالجميع سور يبتدء من القصر وينتهي إليه تتخلله أبراج لحماية البساتين من التعديات الخارجية.

أما الحرف الأخرى من تجارة وصناعة فإن جميع نساء القصور الصحراوية ينسجن البرانس والحياك والجلابيب الصوفية، مع اختلاف جودتها من قصر لآخر. ويتعاطى الرجال للتجارة وبعض الحرف الأخرى كالبناء والحدادة وغيرهما. ولا يشارك في التجارة البعيدة المدى بواسطة القوافل، إلا قصور معدودة في المنطقة كقصور فجيج والقنادسة (1)، إما لموقعها في ملتقى الطرق القوافلية وارتفاع عدد سكانها، وهذا ينطبق على فجيج، أو لأهميتها الروحية وما يتبع ذلك من انعقاد لمواسم دينية - تجارية تقصدها مختلف القبائل وتختص بذلك القنادسة. وقامت (آن ليفانك) Anne Levinck برحلة سياحية للواحة الفجيجية عام 1884 فشاهدت وصول قافلتين كبيرتين من 2000 جمل إلى سهل بغداد، قادمتين من تافيلالت والقنادسة. وحضرت انعقاد سوق بين أهالي البلد والرواد القوافليين عبرت عن انطباعها بالقول: "لم أر مطلقا في حياتي مثل تلك الحركة من الرجال والحيوانات، وأحمال كبيرة من القمح والشعير..." (2).

وتتحدث مذكرة "روشاس" عن انعقاد سوق مهمة داخل قصر القنادسة تؤمه قوافل ذوي منيع وأولاد جرير وبني كيل وأولاد الناصر، المحملة بالبضائع من مليلية ووجدة وعين الصفراء (3).

(1) كانت قصور واكدة بدورها تشارك في التجارة القوافلية في القرن السادس عشر الميلادي حسبما ذكره الحسن الوزان في وصف إفريقيا، ج 2. ص. 132. "يرسل السكان بضائعهم إلى بلاد السودان".

(2) Anne Levinck: "L'oasis de Figuig". Revue de Géographie, juil-déc 1884, p. 23

(3) المصدر السابق.

ويشكل عبور ركب الحجيج من كل سنة لمجال الواحات مناسبة لانعقاد أسواق هامة بينهم وبين أهالي القصور يتزود منها الحجاج بحاجاتهم من أنواع المواد الخاصة بالأكل والملبس وعلف الدواب ".... وأقمنا بالبلد يومين على عادة الركب تجتمع حميان وغيرهم من الأعراب فيقوم معهم ومع أهل البلد سوق عظيم في سائر ما يحتاجه الحاج من كسوة وإبل وسمن وغير ذلك" (1). وبفضل هذه القوافل الحجية أمكن نقل بعض المنسوجات الصوفية إلى طرابلس ليبيا، بل وإلى مصر والحجاز. فحسب الهشتوكي فإن أهالي هذه البلدان يرغبون في شراء الأثواب الصوفية الواسعة الغليظة، عشرة أدرع في أربعة المصنوعة بفجيج، ويحقق الحجاج من وراء بيعها أرباحا هامة. وقد قام بهذه العملية المربحة شخصيا في حجته الثانية. "... أنا اشتريت منه ثوبا غليظا على هذا الوصف المذكور فبعته بمصر بعد أن طلبه مني أناس كثيرون بربح معتبر والله على ما نقول وكيل" (2).

فالقافلة الحجية تجمع ما بين أغراض دينية وتجارية ناهيك بما لها من دور في تبادل الأفكار والتآليف. وعند مراجعة مختلف النصوص الحجية ابتداء من رحلة العبدري في القرن السابع الهجري / 13 م. مرورا بما ألف في القرن 13 هـ / 19 م لأغراض الحج برا وبحرا نجد أن ثلثي مضمون هذه النصوص عبارة عن مطارحات أدبية أو أجوبة عن أسئلة فقهية، أو تراجم لشخصيات علمية وصوفية وما إلى ذلك، يساهم في مناقشتها علماء وفقهاء ركب الحجيج وعلماء البلدان الواقعة على خط المرور. ومن خلال ما كتبه الهشتوكي عن حجته الثانية نستنتج أن عددا

(1) محمد بن عبد السلام بن ناصر: الرحلة الكبرى. (يتحدث هنا عن سوق فجيج).
(2) الهشتوكي . المصدر السابق.

من التجار الكبار في فاس ومراكش أو غيرهما من الحواضر المغربية آنذاك كانوا يترقبون انطلاق القافلة الحجية السنوية لنقل بضائعهم لبيعها أو مبادلتها مع ما ينتجه الأهالي في طريق الحج المعهودة انطلاقا من فاس مع الركب الفاسي أو من تافيلالت مع الركب الفيلالي. ويتم ذلك إما بحضورهم الشخصي ضمن ركب الحجيج أو بإنابة وكلاء عنهم. فلدى وصول القافلة الحجية إلى الغاسول في الجنوب الجزائري حسبما أورده الهشتوكي، اختلط الحجاج مع أهالي البلد من مقيمين ورحل في البيع والشراء. وأكثر ما يجلبه الحجاج معهم لهذه الأسواق: التوابل والكبريت، والرصاص، والبارود، والأثواب الكتانية. وبهذه المواد تمكن تجار فاسيون في هذا الركب من احتكار ما يعرض للبيع من سمن ولحوم وغيرها خلال مقام القافلة بالغاسول "وقد باع تلك الليلة ومن ذلك بعض الفاسيين شيئا كثيرا واشترى سمنا كثيرا غير أنه صنع فعلا لا أظنه ينبغي له ذلك، وذلك أن له أصحابا فأرسلهم إلى الطرقات فكلما أتى عليهم رجلا أو امرأة أو سواهن بما يباع يأتون به إليه حتى اختص سائر الليلة بذلك" (1).

أما القبائل العربية الرحلية في المنطقة كما سبقت الإشارة، فمكسبهم الوحيد هو الماشية، بألبانها ولحومها يعيشون ومن شعرها ووبرها يلبسون وينسجون خيامهم. يتقلبون في مجالات الظهرة بين الوطإ والجبال طلبا للماء والمرعى. ويتميز بنو كيل باحتلالهم لفسيح الظهرة يخترقونها في مختلف الاتجاهات في كل فصول السنة، فتكون تنقلاتهم بعيدة المدى تتجاوز 400 كلم من الشمال إلى الجنوب في رحلات خريفية شتوية إلى الجنوب من نونبر إلى ماي، وصيفية-ربيعية إلى الوسط

(1) الهشتوكي. نفس المصدر.

والشمال. وتعتبر هذه القبيلة أكثر تنقلا وأكثر مجالا من قبيلة العمور لمحدودية مجالها ما بين واحات القصور والجبال الجنوبية. وقد قسم بنوكيل مجال تنقلاتهم في الظهرة وعلى أطرافها بين فرقهم المتعددة ففي بني كومن نجد: فرق عرش أولاد فارس ينتقلون بمواشيهم وخيامهم ما بين نقط: عكلة السدرة، تندرارة، حاسي الحجار، حاسي الكلب، عكلة موسي، تمايد بن سالم، الفراطيس، كلول، وادي درمل، الركاني، جبل بوعرفة، وشط تيگري. وهذه المراتع ترتادها معهم فرق عرش أولاد إبراهيم. وتنتقل فرق عرش أولاد أحمد ما بين نقط: تاملالت، أم الشكاك، عين الشعير، بلغياطة، بن غيلان، بوغارة، معتركة، كعدة دبدو، حوض الواد الشارف. وهذه توجد كلها غرب مواقع فرق العرشين الأولين.

أما الفرق المنتمية لبني غمراسن فإن مجال تنقلها يقع غرب مجال تنقل فرق بني كومن. ففرق عرش أولاد أيوب يتنقلون ما بين وادي الشارف ومعتركة والكعدة وسهل تاملالت، وتلزازة وعين الشعير وموغل وبوكايس والكراعة وعين أوراك والمنكوب وجبل عنتر وبن كورين. وتنتقل فرق عرش أولاد حاجي ما بين بوكايس وجبل بشار والقنادسة وسهل تاملات وبوغارة وتلزازة وبن زيرك (1).

والجدير بالذكر أن جميع هذه المنتجعات المقصودة من طرف فرق بني كيل أو غيرها من القبائل المتنقلة في الظهرة، هي قبل كل شيء نقط تواجد الماء، إما في شكل عيون أو آبار محفورة، أو معاطن (2) تجمع مياه الأمطار أو أودية جارية موسميا.

(1) تقرير كتب في 4 مارس 1912 3H. C:22 A.M.G.
(2) تسمية لأماكن تجمع ماء المطر.

ويعتبر شط تيكري وما حوله أهم مراعي الظهرة على الإطلاق ، تنتقل إليه قبائل أخرى عدا بني كيل كأحميان والمهاية وبنو مطهر في فصل الشتاء والربيع لدفئه وخصوبة مراعيه ووفرة مياهه طيلة السنة (1). ويلي شط تيكري في الأهمية سهل تاملالت وتتكون مراعيه من نبات الشيخ مع وجود العديد من الآبار وينابيع الماء (2) وتتكون مراعي تيكري من نباتات رقيقة ملساء تقبل عليها الماشية بنهم ومن نبات ذي مذاق مالح ينبت في قيعان أوديته له تأثير مهم على صحة الأغنام.

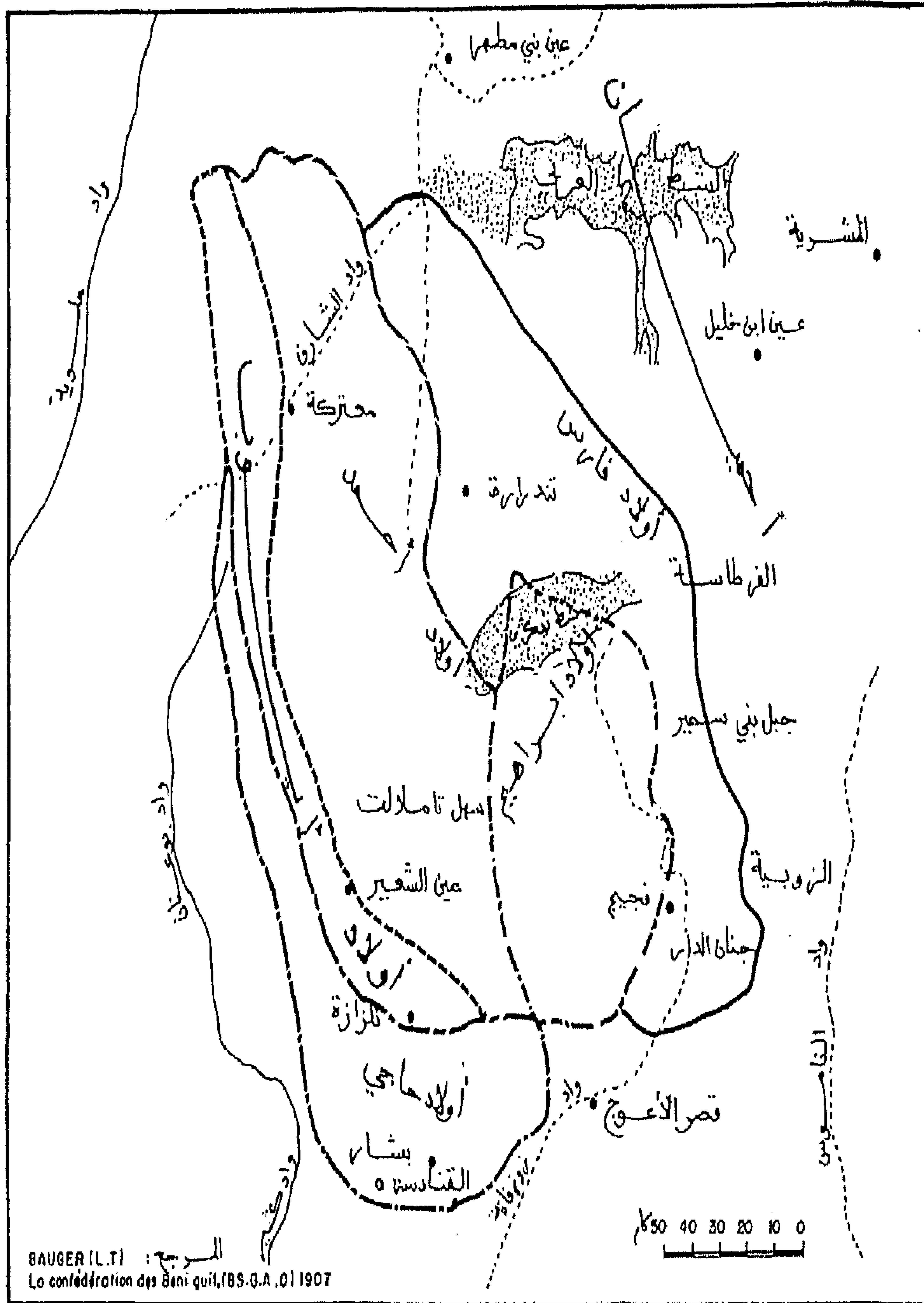
وقد احتجت جماعتي ذوي منيع وأولاد جرير في رسالتيهما إلى الحاكم الفرنسي لدائرة بشار وتاغيت، وبني عباس وتلزازة ونواحيها بتاريخ 25-26 مارس 1911 على احتكار بني كيل وأولاد الناصر لمراتع الظهرة، ويدعون أحقيتهم في ارتيادها منذ أسلافهم إما بالمشاركة مع بني كيل في مجالين محددين لكل منهما وإما انسحاب بني وكيل إلى سهل تافراطة ونواحي تاوريرت صيفا ، ثم يعودون في فصل الخريف إلى مراتعهم بالظهرة بعد إخلاءها من ذوي منيع وأولاد جرير (3). وتحتفظ ذاكرة القبائل الرعوية وساكنة البادية بوجه عام بكثير من الأمثال والأشعار عن أحداث وذكريات تركت أثرا في نفوس أفرادها ، ومن جملتها هذين البيتين الشعريين عن ذكريات امتداد مجالات الانتجاع لدى قبيلة بني كيل داخل التراب الجزائري فتلتقي هنالك في فترات من السنة بقبائل قادمة من الجنوب التونسي لنفس الغاية، في فترة مجهولة من تاريخها قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر.

---

(1) أشار علي السوسي في منتهى النقول، لخصب هذا الشط وأضاف: "فأين ما حفروا وجدوا الماء وما عداها في الظهرة فهو بارد".

(2) L. Bauger. Op-cit, p. 23

(3) نسخة من الرسالتين في أرشيف "فانسين". 1H. C. 1062



توزيع مجالات الرعي على أعراش وفرق قبيلة بني كّيل

حـــســـره على نوجع ســـقـــر (1) ◆ ◆ ومـن كـــــانـت نـازلـتـــــهـــــا
يهـدّ (2) لو من نـفطة (3) لطوزرْ (4) ◆ ◆ وهـذا بـنـي قـــــيـل نـازلـهـــــا

وماعـدا تربية الماشيـة فإن بني كيل لا يزاولون أي نشـاط زراعي إلا نادرا، ويقتـصرون في هذه الحالة على زراعة القمح والشعير في أحواض بعض الأودية المنعوتة عندهم بالمعادر (5) خلال تساقط الأمطار البكرية في فصل الخريف. وقد سجل الضابط صخوشزم أن فرقا من بني كيل قامت في خريف عام يقبن بحرث مجموعة من المعادر لزرعها بالقمح والشعير، منها فرقة أولاد أحمد بن عمرو في وادي الشكاك، أولاد أيوب في معادر سهل تاملالت، أولاد إبراهيم في معدر المساغم ومعدر بوعرفة، أولاد محمد بن أحمد من أولاد فارس قرب باب الرواح، أولاد ميلود في تنزارة، أولاد رحو في عين أوراك والنسيسة، أولاد سيدي بن يسى في فرطاسة الغربية. ويدعي هذا الضابط أن استتباب الأمن الذي أقره الفرنسيون في المنطقة قبل ذلك بسنتين كان حافزا قويا لهذا التوجه نحو عملية الحرث المذكورة (6).

(1) سوگر، بلاد توجد في الجنوب الجزائري
(2) يسرعوا السير إليه.
(3) نفطة، مدينة صحراوية في الجنوب التونسي
(4) توزر، مدينة صحراوية وسط واحة النخيل في الجريد التونسي كانت تعبرها قوافل الحجاج في الماضي، أنظر المصادر الحجية المذكورة.
(5) جمع معدر، وهو حوض وادي جاف يفيض بالمياه عند تساقط كميات مطرية مهمة، فتكون ترتبه خصبة.
(6) L. Bauger: "La confédération des Beni Guil, p. 38

بالإضافة إلى هذا النشاط الزراعي البوري المباشر الذي لا يتطلب مجهودا يوميا، فإن للعديد من الأسر الكيلية ملكيات خاصة في شكل بساتين مسقية أو نخيل على الأراضي البورية في العديد من الواحات الجنوبية كفجيج وبواكيس وسفيسفة وموغل والأحمر وغيرها. بيد أن هذه الملكيات الزراعية يتعهدها خماسون من أهالي تلك القصور، وتكتفي الأسر الكيلية المالكية لهذه البساتين بالتخييم بقربها لفترة من خريف كل سنة ترقبا لجني محصول التمر. ومتى أخذت نصيبها من المحصول، غادرت الواحات إلى أوطانها، فتنقطع علاقتها بهذه البساتين إلى خريف السنة المقبلة.

أما قبيلة العمور فإن تنقلاتهم غير بعيدة المدى، إذ هي تنحصر في الغالب ما بين جبالهم المعتادة وقصور الجنوب إلى حد واحة فندي. وكان نفوذهم فيما مضى يمتد إلى أبعد من ذلك نحو مجالات قبائل الأغواط شرقا، إما من أجل المرعى أو من أجل الإغارة والنهب. فالعياشي في رحلته الحجية بعد مغادرة الركب للغاسول ووصوله إلى الكراكدة وجد خيول العمور قد أغارت على أهاليها وأخذوا لهم عدداً من رؤوس الغنم (1). وعلى العموم فإن أماكن ظعنهم قبل بسط الفرنسيين لنفوذهم في المنطقة تتوزع حسب الفرق وفصلي الشتاء والصيف كالتالي:

أولاد بوبكر:

✓ أولاد عبد الله: شتاء: يتنقلون بين الركاني، درمل، المعدر الأحمر. صيفا: مابين: إيش، عين سفيسيفة، العنبة، كلول، تاوسرة، المگرون، وجبل

(1) العياشي، المصدر السابق.

بني سمير، وهو أغنى جبل بالمياه والمرعى والحطب، لذا ترى بعض تشكيلاتهم الفرعية تعزف عن كل انتقال خارج الجبل إلا لماما (1).

✓ **أولاد كطيب**: شتاء: يتنقلون بين شبكة التمايد، الأعوج، وادي الناموس، الفيجة، المكرار.

صيفا: المكاليس، عسلة، السوم.

✓ **المدابيح**: شتاء الرمادية، الكعادي (المعدر الأحمر).

صيفا: ولكاك، الفراطيس، نواحي جبل الدوك.

✓ **أولاد سليم** المرينات: شتاء: يتنقلون ما بين الفيجة، الرويبة، كارت العشوة.

صيفا: مير الجبل، جبل مزي، جبل مكتر (أي في الجبال الواقعة جنوب عين الصفراء والسفيسيفة).

✓ **أولاد بوشارب**: شتاء في السدرة، المصيلحة، مخيزن، فوناسة.

صيفا: في الحيرش، الكطار، العرنوك، تاوسرة، المكرون، ضايت الذيب، العنبة، (شرق وشمال شرق عين الصفراء).

✓ **أولاد الشحمي**: شتاء وصيفا: يتنقلون في نفس أماكن تنقل أولاد بوشارب.

السوالة: شتاء: يتنقلون ما بين بولرفض، الملاحة، خناق الناموس، تنية الزبوج، الويزدن، المزيرات.

صيفا: مابين الرونجي وبين الطوارق ومقطع الدلي.

(1) Bernard A.N. Lacroix: "L'évolution du nomadisme en Algérie". P. 80.

فالسوالة تنتقل في المجال ما بين عسلة، عين الصفراء، وقليلا ما تصل إلى المكرار وفوناسة، وصفيصيفة (1).

وعلى أية أية حال، فالمجالات المذكورة لا تعني حدودا ترابية قارة للعمور بل تصل تنقلاتهم إلى عكلة عبد الجبار وشط تيگري شمالا والي المگرون والنعامة شرقا، وإلى فندي جنوب غرب، خلال فترات الوئام بني كيل واحميان وألاد.

ولقبيلة العمور ملكيات زراعية من بساتي ونخيل في واحات الجنوب. فأولاد عبد الله يملكون نخيلا في واحة فجيج والأراضي التابعة لها، وفي واحة بني ونيف وفندي وجينين بورزق وحجرة مگيلد وتيبوت وعين الصفراء وصفيصيفة.

أما أولاد كطيب فلهم نحيل في المگراز التحتاني وإيش وفناسة. ويملك أولاد الشحمي نخيلا في الواحة الفجيجية (2). ولأولاد سليم نخيل وبساتين في المگراز التحتاني وفي عسلة. وعلى غرار بني كيل يهتم العمور خلال سنوات الإمطار بحرث أحواض بعض الأودية في مجال تنقلاتهم. وقد سجلت سنتي 1879-80 عملية حرث واسعة للشعير والذرة قامت بها فرق العمور في عدة نقط مائية كأولكاك وعين رحو وعين المعدر الأحمر ووادي الحلوف ودرمل والأعوج، وفنذي (3).

وإلى جانب تربية الماشية وبعض الزراعة الموسمية من سنين لأخرى، يسعى العمور إلى البحث عن مواد أخرى للعيش فيحترف بعضهم صيد الحيوانات في الجبال وبالأخص منها الأروي، والبقر الوحشي. بينما يتخصص الآخرون في

(1) Documents pour servir, T.2, pp. 250-252

(2) Op-cit

(3) Monthambery: Notice historique sur les Amour. Ain Sefra, le 7 fév 1888. 1H. 1024, V.N, Paris.

استنباط القطران من شجر السرو البري، وهذه المادة مطلوبة لدى مالكي الجمال، إذ تطلى بها مرتين في السنة لتجنيبها الإصابة بالأمراض (1).

ولقد ترك العلامة أحمد بن أبي القاسم بن عبد الجبار البرزوزي الفجيجي قصيدة عن تنقلات الرحل خلال فصول السنة في المنطقة انطلاقا من فجيج منذ القرن 10 هـ / 16 م نقتطف منها الأبيات الآتية:

إذا رحلوا من فجيج الظعون ◆ وأم إلياس (2) لهم قرارا
توجهوا نحو الشباك التي ◆ توعدو فيها مع الأجرا
بزرفانة (3) مشتاهم في الرمال ◆ وكل بها قد قضى أوطارا
بصفصاف (4)صافت مرتاعهم ◆ دعاهم لوقت الشمال السراء
وداروا برأس مدورهم ◆ ووادي الزريق (5) لهم مظهرا
ونخلة ذات السحوق التي ◆ بأسفل ذوي الأربعين جرا
أبو يعلا (6) ذاك علا شرفا ◆ وواد انبراك من الغرا
وفي عياش (7) طاب عيشهم ◆ ثنايا الجروز (8) كل معذرا

---

(1) Cavaignac. 1H. 211. V. C

وقد لاحظ بنفسه في ليلة 18-19 ماي بعض الأشخاص من العمور يوقدون النار في شجر السرو فوق جبل عنتر لاستخلاص مادة القطران.

(2) (3) (4) (5) (6) هذه الأسماء الطبوغرافية تتعلق بأودية وجبال وأحواض مراعي في القسم الجنوبي من المنطقة ستظهر في الخريطة الطبيعية (التضاريسية) للمنطقة.

(7) جبل عياش.

(8) جبل كروز.

ومــحــجــوبة حــجــبت عنهم◆ ◆وســتــر الإلاه على عنتــرا (1)
ومنهل وردهم في مــغل (2)◆ ◆نزلنا واد الجديد مسوا عنصرا
تنزرا (3) نزران في جــبلهــا◆ ◆من الثلج خــوفــا من النمــرا
أبو عــرفــا (4) عــرفنا أنعــمــا◆ ◆وزائرهم قــد غــدا شكرا
لتــجــري (5) التي هي مطلبــهم◆ ◆لاينــاء مــاء الســمــا البــدرا
وعكلة مــوسى (6) كــدا بابهــا◆ ◆وبالأمن مــا منهم سفــرا
وتاهت ظعــونهم في المروت◆ ◆كــان الســراب لهم شــجــرا
ومــالوا إلى وادي أرجــامــهم (7)◆ ◆وجــرف العــزيز دنت لدورا
ومــرجــعــهم لخناق الجــبــال◆ ◆وجبل المعــيــز (8) به عــرعــرا



(1) جبل عنتر.
(2) يراد به قصر موغل شمال غرب فجيج.
(3) تترارا: توجد على السفح الشمالي الغربي لجبل كروز.
(4) أو عرفا: يقصد به جبل بوعرفة.
(5) يقصد به شط تيكري - (مرعى غني بالكلأ وهو مقصد جميع القبائل الرحالية في الظهرة ونواحيها).
(6) عكلة، أي مكان تجمع الماء (بئر). وعكلة موسى توجد بحوض تيگري غرب فرطاسة الغربية.
(7) وادي بولرجام ينبع من مرتفع العنكر... ليصب في شط تيكري.
(8) جبل المعيز يوجد شمال غرب واحة فجيج.

الفصـــل الثاني
العلاقات الاقتصادية والاجتماعية
بين المستقرين والرحل

I- تبادل المنافع بين الرحل والمستقرين

أ- التبادل

يخضع جانب مهم من المعاملات التجارية لأهل القصور مع الرحل إلى ضبط موثق يرجع إليه الطرفان أثناء رغبة أحدهما في تصفية الحساب أو الزيادة والنقصان في الدين. هذه المعاملات المتعددة الأغراض تكتب في عقود مستقلة أو في كنانيش بحوزة التاجر القصري، وتذيل بتوقيع العدل. يبتدأ العقد دائما بجملة "يشهد على نفسه فلان ابن فلان أن بذمته وماله..."، وينتهي بجملة "... والأجل بينهما إلى (...) ولا يبريه إلا أداء الواجب". فالعقود جميعها مكتوبة بهذه الصيغة، ولا يختلف عنها البعض إلا اختلافا طفيفا. هذا الأسلوب يعبر عن المستوى الثقافي لمتفقهة ذلك العصر ممن كان يتصدر خطة العدالة. بل يكتفي التاجر أحيانا بانتداب أحد حفظة القرآن ممن كان له بعض الاهتمام بمطالعة كتب الفقه ومعرفة برسوم الحروف، وشيء من سلامة الأسلوب، ليكتب له عقود البيع بالدين أو غيره من أنواع المعاملات مع الزبائن الرحل.

فما هي مواد التبادل بين الطرفين؟ إنها مواد استهلاكية في الأساس تهم المأكل والملبس وتنقسم إلى قسمين: مواد منتجة محليا مثل الصوف، والسمن، والغنم والماعز عند الرحل، وتمر وملابس صوفية عند أهل القصور، ومواد مجلوبة من خارج المنطقة كالحبوب (قمح وشعير) يختص بجلبها الرحل من أسواق الشمال المغربي، ومنطقة التل الجزائري. في حين يضطلع تجار القصور -خاصة التجار الفجيجيون وتجار قصر القنادسة - بجلب السكر والشاي، والبن، والزيت والصابون، والشمع، والكتان... إلخ ومن خلال مواد التبادل هذه تتضح صورة ولو أنها غير كاملة عن نوعية عيش الساكنتين.

وما يلاحظ كذلك أن المواد المنتجة محليا -سواء لدى القصور أو عند الرحل- لم يطرأ عليها أي تغيير منذ عشرات، بل مئات السنين.

عند وصول ركب الحجاج إلى المشرية (في الظهرة الجزائرية)، يتحدث صاحب نسمة الآس عن تسوق الحجاج مع عرب لغواط وغيرهم "فملئوا الركب غنما وسمنا وشعيرا وجلود بقر الوحش وغير ذلك" (1).

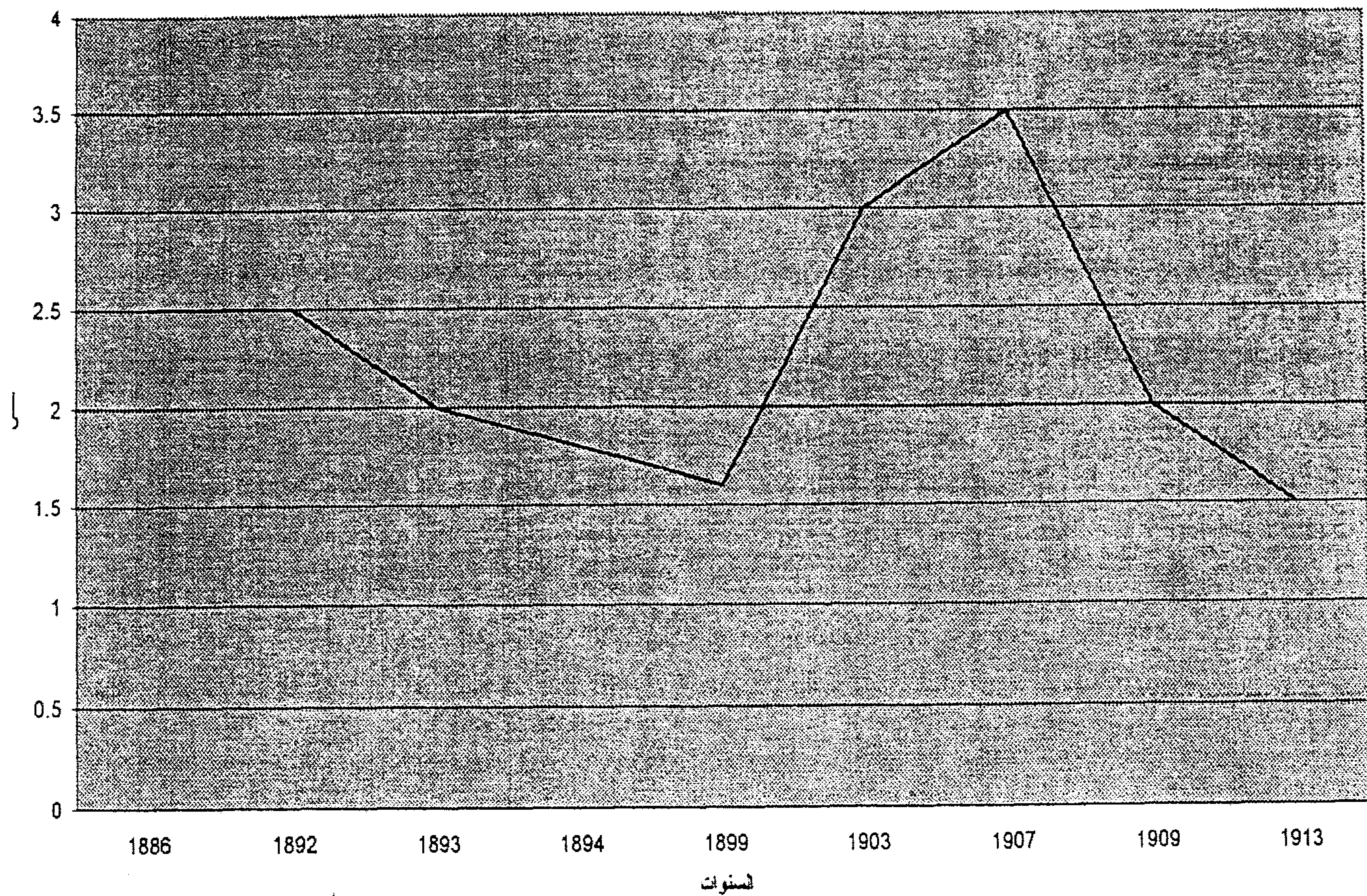
وهذا محمد بن عبد السلام بن ناصر خلال حجته عام 1199 هـ / 1784 يتحدث عن لقاء ركب الحجاج مع قبيلة أولاد جرير في أبي يعلا ما بين بشار وفجيج و"أوسعوا الركب بالغنم والسمن وما يحتاجه من الإبل فتبايع الناس واشتروا" (2).

وفي ما تصفحناه من وثائق تجار فجيج في القرن 13 هـ / 19 م يواجهنا السلهام والحايك من الصنع الفجيجي على رأس قائمة مواد التبادل مع الرحل. ومن ذلك: "اعترف لدى كاتبه الجيلالي بن محمد بن أحمد الجيلي الشعيبي أن بماله وذمته خمسة أدوار ومثقال لما سكه السيد محمد بن محمد بن إبراهيم الودغيري ترتبت فيه من ثمن سلهام "(...) أواسط جمادي الثانية عام 1284 هـ / 1867" (3).

---

(1) أحمد بن عبد القادر القادري: نسمة الآس في حجة أبي العباس. كانت حجته عام 1100 هـ 1688 .
(2) الرحلة الكبرى.
(3) وثيقة خاصة.

ثمن الصوف (بالفرنك)



وفي لائحة للمواد المجلوبة إلى سوق عين بني مطهر في شتنبر 1908 من طرف قبائل منطقة الظهرة: بنو كيل. بنو مطهر، أحميان، أولاد سيدي علي بوشنافة، لمهاية وغيرهم، ومن فجيج أيضا، نقلها "أ.كور" A. Cour من سجل (بيرو عرب) الذي أسسه الفرنسيون في عين بني مطهر بعد احتلالها عام 1904، نجد من بين المواد المجلوبة إلى هذا السوق: الغنم، الماعز، الصوف، السمن، الجلود، القمح، الحياك الصوفية، البرانس... الخ (1). وما زالت هذه المواد موضوعا لبعض ما يبادله الرحل مع سكان القصور إلى اليوم، شاهدة على مدى نفاذ بقايا عادات استهلاكية ترسخت مع الزمن في ما يشكل البنية الاستهلاكية للطرفين فلم تتنحّ كلية رغم ما عرفته هذه البنية الاستهلاكية حاليا من تغير كبير لدى المستقرين في القصور، بل وحتى عند الرحل. ويمكن إضافة البيع والشراء في العبيد، وهؤلاء كانت وضعيتهم لا تختلف عن أي بضاعة تخضع للعرض والطلب، أو كأي ملك خصوصي ينتقل بالإرث من الأب إلى الأبناء.

وكانت ملكية العبيد مطلوبة سواء من الرحل أو المقيمين في القصور، إذ كلا الطرفين في حاجة إلى سواعد تستخدم لرعي الماشية وللأعمال الزراعية والبناء. لكن امتلاك العبيد ليس في وسع الجميع، بل هو امتياز للأسر الكبيرة الغنية القادرة على تشغيل العبيد وإطعامهم، إضافة لما يرمز إليه هذا الامتلاك من وسيلة للمباهات ومظهر من مظاهر النعمة والرفعة الاجتماعية تزيد من الرصيد الرمزي لشيخ الفرقة أو الدوار، وعضو الجماعة لدى الرحل وعند أهل القصور. وكثيرا ما تكون المرافعات لدى القضاة والعدول في قضايا المعاملات والتركات وما إليها، وسيلة هامة يطلع من خلالها الباحث

(1) A. Cour: Notes sur la région de Berguent''. Bull. soc. géogr. Arch, Oran, 1909, p. 69

على مضمون واقعة من الوقائع الاجتماعية وملابساتها ما كان يتأتى له الاطلاع عليها لولا قيام النزاع بين طرفين أو أكثر، خلف من ورائه عقودا مكتوبة للفصل فيها.

وفي هذا السياق لدينا وثيقتان من نوع العقود العدلية تهم قيام نزاع بين فجيجيين أحدهما من قصر الوداغير والآخر من قصر زناكة مع خصميهما الكليين من عرش أولاد فارس، الأولى مؤرخة في أواخر شوال عام 1292 هـ / 1875، والثانية مؤرخة في 19 جمادى الأخيرة عام 1309 هـ / 30 يناير 1891، تتناولان موضوعا واحدا يتلخص في شراء الكليين لعبدين من الفجيجيين ويدعيان معا أن العبدين بهما عيب (عطب)، جسماني لم يطلعا عليه وقت الشراء. فحكم القاضي بتعويض رمزي في الحالة الأولى مع إبراء ذمة البائع، وبإبطال ادعاء المدعي لعدم تقديم الحجة (1) في الحالة الثانية.

ولختم هذه النقطة نورد مثالا ثالثا يتعلق بتحرير الشيخ أحمد ولد علي بن بوجمعة الفارسي من قبيلة بني كيل لوصيفه المسمى ابريك" حرره لوجه الله (...) وأعطى له ناقة وآشياه (كذا) شهد على نفسه بحضرة السيد مولاي أحمد بن عز والطالب أحمد بن الطيب والفقيه السيد عبد السلام الجومي" (2).

تمثل القصور التواتية محطة أولى في الجهة الشرقية لجلب هؤلاء العبيد من أسواق "تمبوكتو" وغيرها من مراكز السودان الغربي، وكان بعض التجار الفجيجيين وتجار القنادسة وبعض الأفراد من قبيلة ذوي منيع يتعاطون لهذه التجارة، فيسافرون من أجلها إلى الأسواق لجلب العبيد والإماء ثم يعيدون بيعهم كأي بضاعة تجنى منها

(1) وثيقتان خاصتان في ملكية صاحبهما.
(2) وثيقة خاصة مبثورة في آخرها، غير مؤرخة، ولعل الفقيه الجومي المذكور هو محرر الوثيقة..

الأرباح (1). وكان المبادلات بين الرحل والمقيمين في القصور يتم جزء كبير منه بالدين، وهذا الانطباع يخرج به كل باحث مثلنا يجد نفسه أمام العشرات من عقود البيع والشراء بالدين بين الرحل والتجار الفجيجيين كنموذج. وليس في وسعنا بالطبع أن نلم بمقدار التبادل التجاري بالدفع المباشر لأنها لا تحتاج إلى تسجيل. وهذا التعامل بالدين يكون فيه الوفاء بأداء ما في الذمة لآجال محددة حسب الاتفاق بين الطرفين، إما في شهر أكتوبر أو في شهر أبريل من كل سنة بالنسبة للرحل، وإلى آجال غير محددة لسكان القصور، تقرن بشهر أو شهرين أو أكثر الموالية لتاريخ كتابة العقد على مدار السنة. لكن أغلبها يحدد في الشهور الخريفية والشتوية، لأن معظم الملابس الصوفية يتم صنعها في فصل الصيف وتباع للرحل في الخريف وبداية الشتاء. ولن تجد أي قصر من قصور الجنوب الشرقي المغربي إلى قصور لغواط وبيسكرة داخل الجزائر لا تشتغل نساؤه بصناعة الملابس والزرابي الصوفية. "يصنع أهل واكدة البرانس والحياك والزرابي الصوفية البيضاء ويبادلونها بالشعري والنقود مع الرحل" (2).

وهذا نفس ما تحدث عنه الجنرال "كافينياك" خلال حملته إلى منطقة القصور في أبريل عام 1847 إذ قال عن قصر عسلة: "تتعاطى نساء هذا القصر لصناعة البرانس غير الجيدة " (3). وإلى الملابس الصوفية تضاف مادة التمر، ويتم جني محصولها في الخريف أيضا، أما الرحل فباستطاعتهم دفع ما على

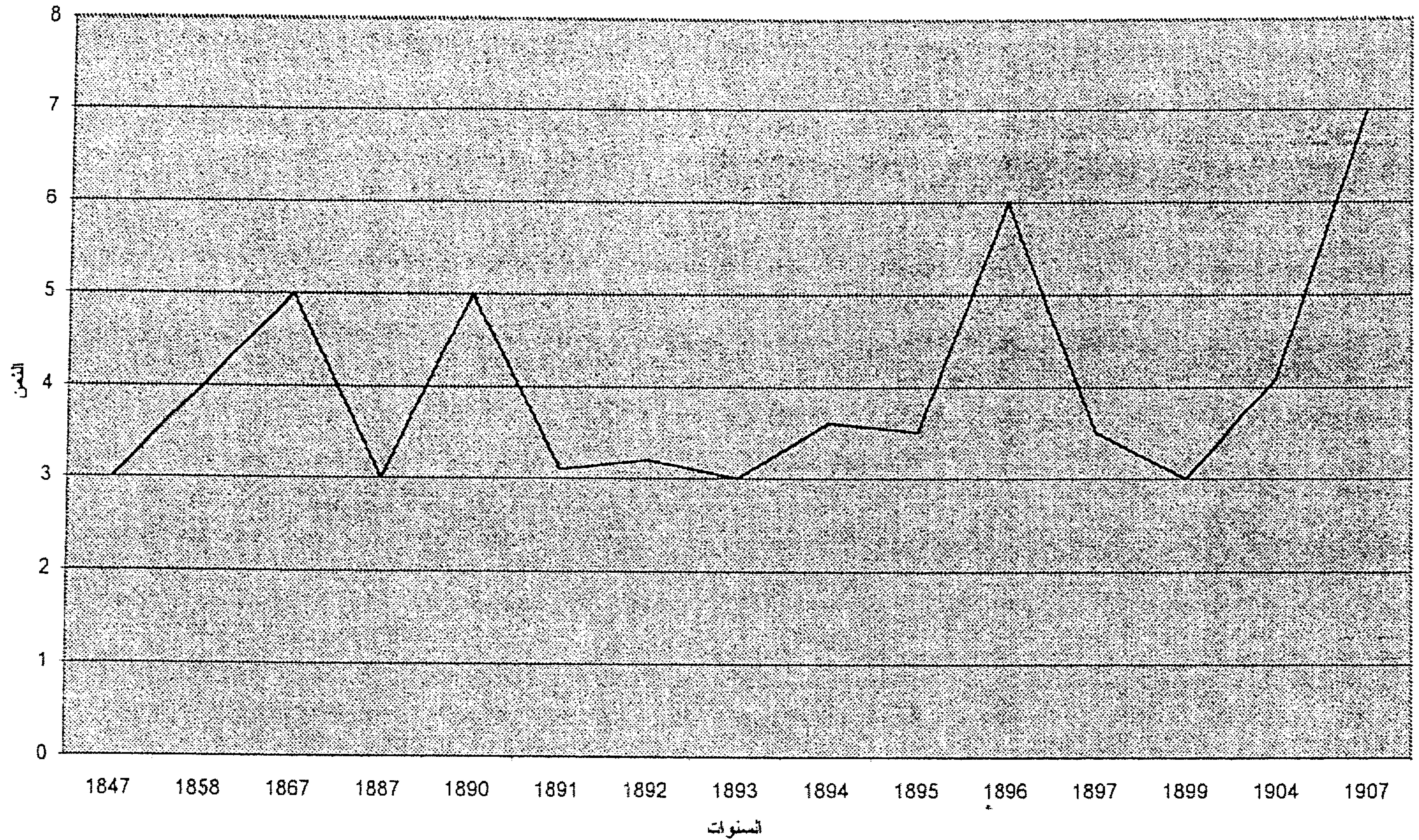
(1) أنظرالحاج بن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية عام 1241 هـ / 1825-26 . مخطوطة ترجمها عن العربية إلى الإنجليزية "وليام. ب هودسن" قنصل أمريكا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي. مؤسسة الترجمة الشرفية سنة 1830 لندن. وقد أعاد ترجمتها إلى العربية من الإنجليزية أبو القاسم سعد الله في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، ج. 2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان، طبعة ثانية 1990، ص. 257.

(2) Documents pour servir. T. 2, p. 614

(3) Cavaignac. 1H, 211, Ar. Vincenne

ذممهم من ديون لأهل القصور في فصلي الخريف والربيع عقب تساقط الأمطار وتكاثر الكلأ، وهما فصلي توالد الماشية وما ينتج عن ذلك من كثرة الألبان ومشتقاته، والسمن والصوف. وإذا كان الرحل في العادة هم الذين يؤمون أسواق القصور للبيع والشراء، وقد ذكر هذا عن مشاهدة إذ أن أبا العباس محمد الناصري في حجته الآنفة الذكر يذكر عن فجيج ما يلي: "وأقمنا بالبلد يومين على عادة الركب تجتمع أحميان، وغيرهم من الأعراب فتقوم معهم ومع أهل البلد سوق عظيم في سائر ما يحتاجه الحاج من كسوة وإبل وسمن وغير ذلك" (1)، فضلا عما تفصح عنه أوراق التجار في القصور، فإن المستقرين هم أيضا ينتقلون إلى مراتع الرحل في رحلات قد تقصر أو تطول، يصل إشعاعها إلى ما يفوق 150 كلم، في فصلي الخريف والربيع، يقايضونهم عددا من المواد المنتجة محليا أو المجلوبة مقابل مبالغ نقدية أو عينية من منتجات الماشية. بعض هذه المواد تُوثَّق دينا لصالح من رجحت بضاعته إلى الآجال المعلومة (2)، ولدينا وثيقة مخزنية تتعلق بهذه النقطة وهي عبارة عن رسالة بعثها قائد فجيج محمد بن عمر المراكشي إلى السلطان مولاي الحسن مؤرخة في 8 ذي الحجة عام 1311 هـ / 12 يونيو 1893 يشكو فيها من تجاوزات السلطة الفرنسية على الحدود الجنوبية الشرقية ضد أحد رعايا السلطان من تجار فجيج خرج إلى مراتع الرحل (قد يكونوا من العمور، أو أحميان) بقصد الاتجار "ينتهي لكريم علمه دام عزه (...) أنه كان في السابق في شهر سفر

(1) محمد بن عبد السلام بن ناصر: الرحلة الكبرى.
ورد في مذكرة Rochas السابقة أن قصر القنادسة: "يباع في سوقها الغنم والقمح والشعير والسمن والصوف، وتؤمه قبائل ذوي منيع، أولاد جرير، وبنو كيل، وأولاد الناصر".
(2) راجع أحمد مزيان: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي. ص: 206



استخلصنا أثمان السلهام الواردة في المبيان عبر عدد من السنوات (1748-1907) من مجموعة عقود أسرية بفجيج

الماضي، الشريف مولاي الحاج الودغيري الفجيجي خرج كعهدة أهل فجيج يبيعون ويشترون عند أعرابي حيازتهم من بني جيل وأحميان والأعمور وغيرهم نعم سيدي فإذ به قبضوه أهل الإيالة الجزائرية في الحدادة في بلاد الصحراء... وأخذوا له من المال عدد سبعة مائة دور وخمسة وأربعين دور ريالا ظلما وعدوانا..." (1).

وهذه رسالة أخرى في الموضوع بعث بها "عبد السلام بن محمد الشرادي" القاطن بوجدة إلى السلطان مولاي عبد العزيز يشتكي فيها من عرش أولاد أحمد بن اعمر من قبيلة بني كيل لإقدامهم على قتل ولد عمه "مبارك الشرادي" ونهب ما كان بيده من نقود ومجموعها "خمسة عشر مائة دور" أثناء متاجرته وسط هذا العرش (2).

فالتعامل بالدين بين القصري والرحلي يكاد يكون أزليا لا فكاك منه، بل هو مطلوب في العلاقة بين الطرفين لارتباط كل منهما بالظرفية الطبيعية وما تجود بها من خصب ونماء، ولأن سعي كل منهما للمحافظة على استمرار تلك الشبكة من العلاقات الاجتماعية يحتاج إلى الإرادة الطيبة والوفاء بتأدية الديون من كلا الطرفي. ويبين توفر هذه الإرادة الطيبة وروح الوفاء بالالتزامات انتقال الديون من الآباء إلى الأبناء لتسديدها عنهم متى سمحت الظروف.

وظاهرة التبادل بالدين نجدها في عدة مناطق من العالم حيثما وجد نمطين مختلفين من الإنتاج يجاور أحدهما الآخر: فلاحون <------> سكان المدن، رحل<-----> سكان القصور. فالأنتربولوجي إيفانز بريتشارد يقول عن التبادل بالدين في إيرلندا الجنوبية أنها "تساهم في حفظ الانسجام في علاقات الفلاحين وسكان المدن" (3).

(1) مديرية الوثائق الملكية، ملف الحدود المغربية - الجزائرية.

(2) مديرية الوثائق الملكية / ملف وجدة. مؤرخة في 14 محرم 1895/1313 م.

(3) ايفانز بريتشارد: "الدراسات الأنتروبولوجية الحديثة". ترجمة شبيب بيضون. مقالة في مجلة الفكر العربي، عدد 37-38، سنة 1985، ص 90-91 .

ب- الشراكة في تجارة الغنم.

بيدنا أربعا وعشرين وثيقة مؤرخة ما بين (1313-1325 / 1895-1907-08م) تتعلق بتوظيف الأموال في البادية من طرف القصور الفجيجية لأجل الشراكة في تجارة الماشية تهم ثلاثة فجيجيين مع شركائهم الرحل من قبائل بني كيل والعمور وأولاد جرير.

أحد هؤلاء التجار الثلاثة منح مبالغ نقدية لثمانية أشخاص من الرحل أغلبهم من بني كيل، بلغ مجموعها بالعملات الثلاثة الرائجة في المنطقة آنذاك ما بين (1318-1325/1900-1907-08) ما يلي:

. 935 دور فرنسية

. 200 دور (بومدفع) إسبانية.

. 200 ريال حسنية مغربية .

وحسب ما يلاحظ من الصفقات المعقودة بين هذا التاجر وأصحابه من الرحل فإنه وظف في تجارة الغنم خلال عام 1318/1900، وحدها مبلغ 535,5 دور فرنسية.

ولكي نأخذ فكرة عن أهمية المبالغ النقدية الموظفة في تجارة الغنم، فإن مبلغ 935 دور يوازي ثمن قطيع مهم من الغنم يصل حجمه إلى حوالي 360 رأس، استنادا إلى وثيقة منفردة ورد فيها ثمن الكبش الواحد هو 13 فرنكا سنة 1318/1900 (1). وبالطبع فإن ثمن الكبش الواحد يختلف حسب الحجم

(1) وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق تحويل 935 دور إلى ما يساويها من الفرنكات على اعتبار أن الدور الواحد يساوي 5 فرنكات، فكانت النتيجة كما يلي:

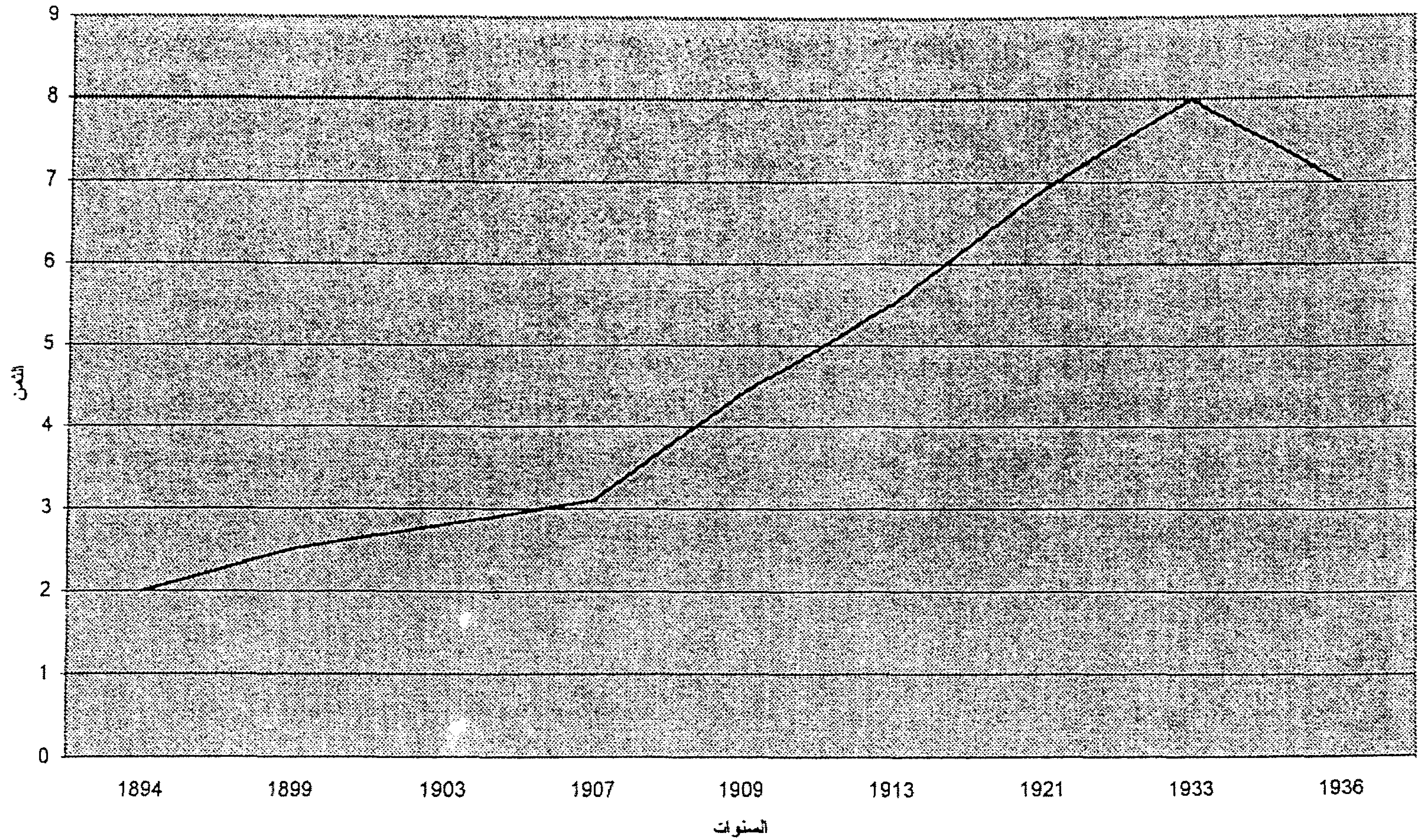
$\frac{5x935 \text{ ف}}{13 \text{ ف}}$ = 359 رأسا من الغنم

والسمنة، ويتراوح على العموم ما بين: 12-15 فرنكا. هذه الشراكة في تجارة الغنم استمرت بين تجار القصور الفجيجية وقبيلة بني كيل على الخصوص طول فترة الحماية، بل وحتى بعد تحرر المغرب من الاستعمار بنفس الأسلوب وبالصيغة الموروثة من نصوص الوثائق السابقة عن الفترة الاستعمارية. بعض هذه المعاملات التي جرت بين تجار فجيجيين كبار، ومشاركيهم من الرحل أصبحت موثقة أكثر مما كان عليه العهد في السابق، وصار العقد ينتهي عادة بإمضاء عدلين وخاتم القاضي وتوقيعه، مع رقم تسجيله في كناش العدالة بفجيج.

وما يمكن استنتاجه من هذه المعاملة الشراكية بين الطرفين، أن تجار القصور الذين استطاعوا جمع رأس مال نقدي مهم من تجارتهم انتقلوا إلى استثمار جزء كبير منه في تجارة الغنم، وصارت الماشية بالنسبة للمستثمر ومربي الماشية معا وسيلة للمضاربة وكسب الأرباح (1). وقد يعاد استثمارها مجددا في الماشية أو في ضروب أخرى من التجارة ولا سيما عند تجار القصور الذين كانت لديهم عقلية تجارية موروثة لا تحدها دائرة المعاملة في الغنم.

(1) الشراكة من أجل الاتجار في الغنم بين مربي الماشية وصاحب رأس المال النقدي لم يكن وليد القرن الحالي كما يفهم من أطروحة الأستاذ الطاك، بل سبق التعامل بهذا النمط من الشراكة التجارية منذ أواسط القرن 19 على الأقل، حسبما نعلم من الوثائق المتوفرة لدينا. بوطيب الطاك: "من التحولات الرعوية - زراعية إلى التمدين في المغرب الشرقي". مجلة كلية الآداب، فاس، عدد 11، ص . 219 أنظر أطروحة الطاك بوطيب لنيل دكتوره الدولة في الجغرافية البشرية المعنونة كالتالي:

Des mutations agro-pastorales à l'urbanisation dans le Maroc oriental. Université de Toulouse, Le Mirail, 1987, T.1, chap. 5 (dactylographiée).



هذا المبيان استخلصناه من عدة عقود لاسر فجيجية كانت تتاجر في الماشية مع الرحل مربيي المواشي - ثمن كبش واحد

ج- خزن المواد والنقود

يعتبر الخزن شكلا آخر من أشكال المعاملة التجارية بين الرحل وأهل القصور. فرغم كونه عبارة عن تسليم الشيء المراد حفظه من الرحلي للقصري ليضعه أمانة عنده لوقت الحاجة إليه، إلا أن هذه الأمانة كثيرا ما تتحول إلى موضوع للبيع والشراء بموافقة صريحة أو ضمنية من صاحبها. فماذا يخزن الرحل عند أهل القصور ولماذا هم مضطرون إلى ذلك.

إنهم يخزنون المواد المنتجة من مواشيهم: صوف، سمن، قشدة، إضافة إلى القمح والشعير ، وهاتان المادتان يحرص الرحل على جلبهما من مناطق إنتاج الحبوب في الشمال بانتظام كل سنة. بل يقدم الرحل على خزن السلاح، والبارود، والنقود والأفرشة عند أصحابهم في القصور، إذ أن حياة الترحال تفرض عليهم التنقل المستمر في مجال واسع كمجال الظهرة والأحواض الجبلية المتاخمة لها في الجنوب والجنوب الغربي بحثا عن الكلإ الأوفر ونقط الماء الدائمة، فليس بوسعهم نقل مخزوناتهم من هذه المواد من مكان إلى آخر بيسر وأمان، بل يمكنها أن تتعرض للتلف والنهب، إما بكثرة ترحيلها أو بفعل التناحر وشن الغارات، وهذا يحدث كثيرا بين القبائل المتعادية، بل حتى بين الفرق والدواوير داخل القبيلة الواحدة أثناء حدوث الخلافات بينها قبل تمكن شيوخ الجماعة من تسويتها. وهذه الأسباب وحدها قد تكفي لدفع الرحل لخزن جزء من فائض موادهم الاستهلاكية والنقدية عند المستقرين في القصور. وقد وردت الإشارة إلى هذا الذي استنتجناه، عند ابن خلدون في حديثه عن قصور قبيلة مطغرة جنوب شرق تلمسان الواقعة وسط مجالات عرب بني عامر بن زغبة في الصحراء آنذاك: وقد تملكوها لحط أثقالهم

وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة" (1). وعند تأمل كلمة خزن نجدها تؤدي وظيفة واحدة لدى الطرفين معا، فالمستقرون في القصور يخزنون جميع المواد الغذائية من حبوب وتمر وسمن وخضر يابسة ونقود، وكل ما له قيمة في أكبر حجرة في الدار يطلق عليها قصر الخزين. أما الرحل فتعتبر القصور الواحية نفسها بمثابة مخازن لهم يحفظون فيها كل ما يشكل بالنسبة لهم ثروة ووسائل عيش. فظاهرة الخزن إذاً عادة قديمة قدم استقرار وتعايش النمطين الإنتاجيين المختلفين في المنطقة وتشكل جزءا من نسيج العلاقات الاقتصادية المتنوعة بين الرحل وأهل القصور. ولم ينس أصحاب المؤلفات الحجية ذكرها خلال عبورهم لطريق الواحات إلى الحج خلال القرنين 11 هـ / 17 م – 12 هـ / 18 م وهم في هذه الحالة شاهدوا عيان بفعل احتكاكهم المباشر مع الرحل والمستقرين، ونقتصر على ما كتبه أحمد بن الصغير الدرعي حول عين ماضي بأنها "قرية جامعة... أهلها طلبة علم... وتخزن الأعراب عندهم الزرع والسمن والتمر ولا نخيل بها" (2).

ولقد درسنا ما يزيد عن 40 وثيقة تخص خزن المواد (صوف، سمن، قمح، شعير، نقود... إلخ) موزعة على فترة زمنية تقدر ب 73 سنة ما بين (1254-1327/1838-1909م) جمعت عددا من سكان القصور الفجيجية مع العرب الرحل من قبائل بني كيل وأولاد جرير، وأحميان، ولم يتغير فيها شكل الخزن سواء ما يتعلق منها بمواد الخزن أو الأدوات المعتمدة في كيل الحبوب والسمن

(1) ابن خلدون : تاريخ (العبر). مجلد 6. ص. 245 .
(2) أبو مدين أحمد الصغير الدرعي. المصدر السابق.

(السطلة، المد، القَدَح)، ولا طريقة توثيق الخزن ومن نماذجها: "اعترف برشان بن محمد بن غانم أنه خزن عنده صاحبه محمد بن المختار بن فارس الجيلي 47 صطلة قمحا... و15 صطلة شعيرا... أوائل ربيع النبوي عام 1271(1) نونبر 1854 ".

ويظهر من بعض عقود الخزن أن عملية التوثيق لا تتم دائما في وقت الخزن بالذات، بل تتأخر أحيانا إلى وقت المحاسبة ومراجعة ما بذمة الطرفين المتعاملين، لذلك تستبدل كلمة "خزن" في العقد بكلمة "ظهر" فكأن الشيء المخزون قد نسي مقداره وصار مجهولا فظهر من جديد، لأن كلمة ظهر في هذه الحالة تفيد الحاضر المعبر عن شيء كان قد وقع في الماضي وأن العقد لم يكتب حتى ظهر ذلك الشيء المخزون وتحققت قيمته، فاتفق الطرفان وتراضيا على ذلك. "اعترف دحمان بن الشيخ العزاوي أنه ظهر من زرعه المخزون عند جلول بن معلي 11 سطلة قمحا وقدحين من السمن المعدان للخزين... في رجب عام 1307 (2)".

ويرافق هذه العملية أحيانا بعض النزاع والترافع لدى الأحكام القضائية بين الرحلي وصاحبه عندما يقع الخلاف بينهما في تقدير قيمة الشيء المخزون نتيجة لعدم توثيقه في حينه، خصوصا إذا تحول كليا أو جزئيا من حفظ وأمانة إلى عرض للبيع من طرف المؤتمن عليه، أو إذا ما بادر صاحب الأمانة إلى سحب أقساط منها في فترات متعددة من عند المخزون لديه ولم يتم ضبطها من هذا الطرف أو من الآخر (3). بل كان الطرفان يتوقعان حدوث ذلك عندما يتشعب التعامل التجاري

---

(1) وثيقة خاصة.

(2) وثيقة خاصة.

(3) نحتفظ بوثيقة في هذا الشأن سجلت خلافاً عن قيمة المخزون بين كيلي وودغيري من فجيج مؤرخة في 22 شوال 1322 هـ / 30 دجنبر 1904 .

بينهما، بين مقايضة ودين مع غياب المحاسبة والمناقشة في حينها. "وكّلَ محمد بن عبد الله بن أحمد بن مبارك الفارسي الجيلي محمد بن التهامي بن حسون السليماني ليقبض له 85 جَزَّة من الصوف المخزونة عند محمد بن الطيب على وجه الأمانة والحفظ وعلى ما يعرض لذلك من محاكمة ومخاصمة وإقرار وإنكار... في صفر عام 1309 (1)"1891 م.

أما القصور الأخرى الواقعة شمال شرق فجيج أو جنوب غربه، فإن التقارير الأجنبية (الفرنسية) أتت بتغطية كاملة عن القبائل التي تقوم بخزن ودائعها وبأنواع المعاملات مع أهالي هذه القصور. فالجنرال "كافينياك" Cavaignac، أورد في تقريره لسنة 1847 لوحة عن القصور الستة الواقعة شمال شرق فجيج وفرق القبائل التي تخزن ودائعها فيها وهي على الشكل التالي:

- قصر عسلة. يخزن فيها: أولاد سيدي أحمد المجذوب (أحميان شراكة وأولاد سيدي بن عيسى، وأولاد سيدي التاج (أولاد سيدي الشيخ الغرابة).
- قصر تيبوت. يخزن فيها: أولاد امبارك، الصبانجة، المگّان (أحميان غرابة).
- قصر المگراز التحتاني. يخزن فيه: السندان، أولاد سرورو (أحميان غرابة).
- قصر المگراز الفوقاني. يخزن فيه: الخيامة، اكرمة الغرابة (أحميان غرابة).
- قصر عين الصفراء. يخزن فيه: المطارف، الدعامشة، الجنبة (أحميان غرابة).
- قصر صفيصيفة. يخزن فيه: المغاولة، بني عقبة (أحميان غرابة) (2).

---

(1) وثيقة خاصة.

(2) Cavaignac. Op. cit, 1H. 211, Vincenne.

ويلاحظ في هذه اللوحة غياب قبيلة العمور، رغم أن "كافينياك" نفسه عندما غزا هذه القصور وقف العمور في طريقه وناوشوه بما لديهم من سلاح طيلة الفترة التي قضاها متنقلا بعساكره من قصر إلى آخر. وإذا كان الأمر كذلك، فإن لهذه القبيلة من المصالح في هذه القصور ما يتجاوز مجرد الخزن والتبادل التجاري مما ليس في وسع كافينياك إغفاله.

ولإعطاء فكرة عامة حول القبائل وفروعها المعنية بخزن ودائعها لدى جميع القصور المدروسة نورد الجدول التالي الذي استخلصناه من الوثائق الفرنسية المكتوبة في القرن الماضي.

اسم القصر	القبائل الخازنة
قصر إيش	العمور (أولاد عبد الله، أولاد بوشارب، المدابيح (1) الزوا. (أولاد سيدي الشيخ (2).
قصور فجيج	
قصر الوداغير	بنو كيل. (أولاد محمد، أولاد علي بن ياسين، أولاد رمضان: من عرش أولاد إبراهيم، وكذلك عرش أولاد فارس (3) ✔ العمور. (أولاد عبد الله، أولاد كطيب، المدابيح) (4) ✔ أحميان (الرزاينة) ✔ أولاد جرير. كذلك أولاد سيدي علي بوشنافة (5)

(1) Documents pour servir. T.2, pp. 253-254

(2) مذكرة Rochas يونيو 1883 . 30 H. 23. A.O.M

(3) Documents. Op. cit, pp. 272-273

(4) Ibid, p. 254

(5) ثلاث وثائق محلية خاصة مؤرخة على التوالي: الأولى في أواخر ذي القعدة عام 1869/1867. والثانية في أواخر محرم 1865/1282. والثالثة في أواسط ذي القعدة 1283 هـ / 1867 .

اسم القصر	القبائل الخازنة
قصر زناكة	✔ بنو كيل. (أولاد شعيب: من عرش أولاد إبراهيم، ثم أولاد عبد الله بن أحمد، أولا عمرو، أولاد محمد، العلاونة، أولاد مجذوب، أولاد ميلود، أولاد الناصر. أولاد عبيد: من عرش أولاد أحمد بن عبد الله، ثم أولاد جابر من عرش أولاد حاجي (1) ✔ العمور (أولاد كطيب، أولاد عليات (2) ✔ أولاد جرير (3)
قصر أولاد سليمان	✔ بنو كيل (أولاد أحمد بن عبد الله (4)
قصر المعيز	✔ بنوكيل (أولاد علي من عرش أولاد أحمد) ✔ العمور (أولاد كطيب) (5)
قصر العبيد	✔ بنوكيل (أولاد محمد، أولاد علي بن لحسن، أولاد رمضان من عرش أولاد إبراهيم (6)
قصر الحمام الفوقي	✔ بنوكيل (عرش أولاد فارس) (7)
قصر عسلة	✔ أحميان (شراكة) ✔ أولاد سيدي الشيخ (الغرابة (8)

(1) Documents, T.2, pp. 272-273

(2) Ibid, p. 254.

(3)(4)(5) Ibid, pp. 272-273

(6) وثيقة محلية خاصة مؤرخة في 26 ذي القعدة ، 1320/ 28 فبراير 1903 .

(7) نفسها.

(8) Cavaignac, 1847

القبائل الخازنة	اسم القصر
✓ العمور (أولاد عليات، السوالة) ✓ أحميان . (الغرابة) (1)	**قصر عين الصفراء**
✓ العمور (السوالة)(2) ✓ أحميان (الغرابة) (3)	**قصر تيبوت**
✓ العمور (المدابيح، أولاد بوشارب (4) ✓ أحميان (الغرابة) (5)	**قصر صفيصيفة**
✓ العمور، (أولاد كطيب، أولاد شحمي، السوالة) (6) ✓ أحميان (الغرابة) (7)	**قصر أم الكراز التحتاني**
✓ العمور (المرينات، أولاد شحمي، أولاد كطيب) (8) ✓ أحميان. (الغرابة) (9).	**قصر أم الكراز الفوقاني**
✓ بنوكيل. (أولاد محمد بن ناصر، أولاد حمامة، أولاد علي بن ياسين من عرش أولاد حاجي	**قصر بوكايس**
✓ بنو كيل (أولاد محمد بن ناصر، أولاد حمامة، أولاد علي بن ياسين من عرش أولاد حاجي) (10)	**قصر موغل**
✓ بنو كيل (أولاد محمد بن ناصر - أولاد حمامة، أولاد علي بن ياسين) (11)	**قصر الأحمر**

(1) وكذلك تقريري 4 مارس 1912

(2) Documents, T2, p. 254.
(3) Cavaignac.
(4) Documents. T2, p. 254
(5)Cavaignac
(6) Documents. T2, p. 254

وكذلك تقرير 4 مارس 3H. 22/1912

(7)Cavaignac
(8) Document T.2, . 272-273
(9) Op-cit.
(10) Op-cit.

القبائل الخازنة	اسم القصر
✔ بنو كيل. (أولاد محمد بن ناصر، أولاد حمامة، أولاد علي بن ياسين من عرش أولاد حاجي) أولاد جرير	قصرسفيسيفة
✔ أولاد جرير (1) ✔ ذوي منيع	قصر بشار
✔ ذوي منيع (2)	قصر القنادسة

2- القضاء والتدريس

لدينا مجموعة من الوثائق تتضمن قضايا مختلفة رفعها أشخاص من قبيلتي بني كيل والعمور للبث فيها طبقا للأحكام الشرعية لدى القضاة، والمحكمين العدليين بفجيج نورد نماذج منها.

◆ تحاكم كيلي نائبا عن زوجته وأخيها حول متروك والدهما من إبل وغنم، وحمير وخزين (وثيقة غير مؤرخة).

◆ نزاع بين كيليين ورجلين من أولاد سيدي بن عيسى البوشيخي حول جمال ضاعت للأخيرين في الظهرة. مؤرخة في أواخر جمادى الأولى عام 1308 / 11 يناير 1891.

(1) Documents. T.2, p. 373-397.

قصر صفيصيفة مدشر صغير يوجد جنوب غرب فجيج وهو غير قصر صويصيفة الواقع شمال شرق فجيج قرب قصر إيش وعين الصفراء.

(2) Ibid, p. 373

(3) مذكرة Rocahs سابقة الذكر.

◆ جواب الفقيه المتمكن السيد أبي القاسم بن زيان حول نازلة تهم إيداع كيلية لجملها عند أخيها، ثم مات ولم تطلب منه ذلك الجمل، ولم يوصي لها به. فكان جوابه أن لا شيء لها لأنها لم تطالب بحقها من أخيها عندما كان حيا. وهذا ما يدخل في باب العارية حسب جواب الفقيه (1).

◆ تحاكم عموريان حول متروك ابن عمهما من الغنم والجمال والبقر مؤرخة في أوائل ذي الحجة عام 1282/ أبريل 1866 .

◆ تحاكم عموريان من عرش أولاد عبد الله: المدعي ابن امرأة توفّيت، والمدعى عليه زوج تلك المرأة يطالبه المدعي بتمكينه من ميراث ما جمعته أمه من المال في حياتها من السعاية. (وثيقة مؤرخة في 23 ربيع الثاني عام 1319/ 9 غشت 1901.

◆ أحد القضاة الودغيريين من قصور فجيج يعقد قران رجل وامرأة من قبيلة بني كيل فرقة أولاد بن لحسن، بصداق مقداره مائتا دور فرنسية قدم منها 45 دور والباقي مؤجل. (مؤرخة في 2 شعبان 1330/ 17 يوليوز1911).

◆ قاضي ودغيري من فجيج يكتب عقد إبراء أحد المگراريين من جميع ما تطالبه به زوجته المطلقة المنتسبة إلى بلاد الأغواط، إبراءا تاما. (كتب العقد في أوائل محرم 1867/1284).

◆ أحد الأشخاص من بني كيل عرش أولاد فارس كتب عقدا عند قاضي من قصر الوداغير بفجيج يهب لزوجته ولأولاده كل ما هو مخزون من قمح، وشعير، وسمن وآلة الحرب وكتب العقد في جمادى الثانية 1864/1281 .

(1) وثيقة غير مؤرخة على عادة أغلب النوازل.

◆ نزاع بين جلول بن عبو العموري مع محمد بن عبد الله الفارسي الجيلي حول شراكة في الغنم نتج عنها خسارة بسبب موت بعض الشياه، واصطلحا في النهاية على أن يعوض أحدهما الآخر أمام أحد المحكمين العدول من قصر الوداغير بفجيج، كتب العقد في جمادى الثانية عام 1877/1294 .

◆ وثيقة حبس يشهد فيها المحبس المسمى محمد بن التومي لقطيبي العموري على نفسه بتحبيس ما يملكه من عقار بقصر بني ونيف وأحوازها وما يملكه من متاع وحلي وماشية على ولده وعلى من سيولد بعده على سنة أحباس المسلمين، وكتب العقد في أوائل صفر عام 1849/1266، من طرف الفقيه محمد بن محمد بن زيان السماحي من آل سيدي الشيخ القاطن بقصر بني ونيف وهو قصر تابع لفجيج.

والتجأت قبيلة بني كيل أيضا إلى التعاقد مع فقهاء من قصور فجيج أو من تافيلالت ومن وجدة وغيرها للعمل وسط خيامها كقضاة لمدد مختلفة قد تطول أو تقصر، ترفع إليهم نزاعات الأشخاص والفرق للحكم فيها وفق الشريعة الإسلامية، وكذا كتابة عقود الزواج والطلاق والإرث وغيرها ولم نعثر على أي وثيقة مخزنية تتضمن تعيين السلطان أو من ينوب عنه لقاضي رسمي وسط قبيلة بني گيل، وكل ما عثرنا عليه، رسالة من أحد شرفاء دار سيدي لحسن مولاي السعيد وإخوانه من وجدة يشتكون فيها للسلطان مولاي الحسن من إقدام أولاد سليمان بن العادل من المهاية أصلا، القاطنين مع عرش أولاد أحمد بن عبد الله من بني كيل على قتل أخيهم مولاي عبد القادر بن محمد بن عبد الله العلوي المتولي خطة القضاء عند قبيلة بني كيل، مع تقاعس شيوخ هذه القبيلة وقواد ناحية وجدة عن القبض على

الجناة (1). ولم يتبين من هذه الرسالة ما يشير إلى الصفة المخزنية الرسمية لوظيفة القاضي المغتال.

ونظرا لكون فجيج مركزا دينيا وثقافيا رئيسيا في المنطقة فإن القصور الأخرى كثيرا ما يستأنف متنازعوها أحكامهم إلى قضاتها ومحكميها (2). بل ينتدب بعض فقهاء فجيج لمباشرة الأحكام القضائية في عين المكات. فقصر إيش على سبيل المثال تعاقد مع أحد فقهاء قصر الوداغير بفجيج لمزاولة هذه الخطة مقابل 150 فرنكا فرنسيا في السنة خلال ثمانينات القرن الماضي (3). وكانت القصور الفجيجية أيضا مصدرا لعدد من حفظة القرآن الراغبين في تدريس القرآن لأبناء الرحل والإمامة عليهم في الصلوات الخمس وقراءة الحزب. يعقدون مع شيوخ الفرق أو الدواوير ما يسمى بعقد المشارطة، يلتزم هؤلاء الحفظة بمزاولة هذه المهام الدينية-التعليمية مقابل أجرة نقدية وعينية حسب شروط العقد المتفق عليه من الجانبين. وفي رسالة أحد أعيان قصر الوداغير لبعض معارفه مؤرخة في 6 ربيع الثاني 1330/ 25 مارس 1912 يخبره فيها أن الفقيه أحمد بن أبي القاسم بن زيان قد سافر إلى مواطن قبيلة بني كيل ليشارط عند إحدى فرقها (4).

وظاهرة المشارطة هذه كانت شائعة لدى جميع القبائل، بل تشكل أحد صور العلاقات الاجتماعية والثقافية بين البوادي والمدن في الشمال الإفريقي بوجه عام. فالقصور وهي بمثابة مدن صحراوية تهيىء العديد من حفظة القرآن والمتفقهين في

(1) مديرية الوثائق الملكية، ملف وجدة، مؤرخة في 15 ذي الحجة عام 12 غشت 1889/1306 .
(2) ذكر ينو Renault في مذكرته المؤرخة في 20 شتنبر 1895 أن قبيلة ذوي منيع وأولاد جرير كانت تستأنف أحكامها إلى فجيج وتافيلالت 30H. 23. A.O.M
(3) مذكرة Rochas في يونيو 1883 30H. 23. A.O.M. .
(4) وثيقة محلية خاصة في ملكية صاحبها.

الدين، بعضهم ممن تنغلق في وجوههم أسباب المعاش وسط قصورهم يضطرون إلى هجر أسرهم لمدد زمنية قد تستغرق سنين عديدة يشتغلون خلالها بالتدريس والإمامة عند الرحل بالمشارطة، وقد تتحول هذه الإقامة المؤقتة إلى إقامة دائمة أحيانا، إذا ما تزوج الفقيه بأعرابية من الدوار أو الفرقة المشارط عندها. ويقول أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته الحجية عام 1121 هـ بعد مغادرته للغاسول إنه التقى ب"سيدي عبد الكريم التواتي كان مشارطا عند أعراب هناك من الأغواط يقرء أولادهم ويصلي بهم ثم تزوج عندهم" (1). إنها صورة من صور العرض والطلب، يختلط فيها ما هو اقتصادي بالثقافي-الديني، والاجتماعي، فهي علاقات بين نمطين من الإنتاج لا غنى لأحدهما عن الآخر، بحكم الضرورة والاختلاف في أسباب المعاش.

3- ضغط الرحل على المستقرين

أجمعت كل المؤلفات والدراسات القديمة والحديثة على تغلب القبائل الرحلية على سكان القرى والقصور المستقرين منذ القديم (2). فابن خلدون في تاريخه تحدث عن تغلب قبائل النضر بن عروة الرحلية المنتبذين بالقفر مما يوالي جبل راشد على الزناتيين المستقرين بتلك الجهات، فوظفوا عليهم الأتاوة: "أصاروهم خولا ورعية" (3). أمّا الحسن بن محمد الوزان فقد قال عن سكان قصر واكدة "وكلهم من الذين يدفعون الأتاوة للعرب" (4). وفي القرن الموالي (17 م) لما كان العياشي في

(1) أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق.

- أحد حفظة القرآن في وجدة بعث رسالة إلى القائد عمار بن محمد بن عبد الصادق العامل السابق على وجدة يشكو إليه حالة من قلة الشغل واليد الفارغة ويرجوه أن يساعده ببعض المال لشراء ما يلزمه من لباس ومؤونة للخروج إلى البادية من أجل المشارطة، كما كان عهده سابقا. رسالة مؤرخة في 6 محرم 1297 هـ / 1879-1880 مديرية الوثائق. م. / ملف وجدة.

(2) Nadir Marouf: “Les rapports vilel-campagne au Maghreb”.

ضمن ندوة: تطور العلاقات بين البوادي والمدن. منشورات كلية الآداب بالرباط 1988، ص. 120 .

(3) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج 6، ص . 116 .

(4) وصف إفريقيا. ج 2، ص. 132 .

طريقه إلى الحج وقف على أحوال أهل قرية الكراكدة القريبة من الغاسول وهم في أشد الضيق من الغلاء" وقد غارت عليهم خيل من خيول العمور في الأمس فأخذوا لهم غنما بقيت لهم" (1).

وفي أواخر القرن 18 م بعث العلامة محمد بن محمد السنوسي الراشدي الفجيجي من قصر الوداغير رسالة إلى السلطان مولاي سليمان يطلب منه الإنعام عليه بكسوة وقدر من المال، وبعض الكتب كتيسير ابن عطية وابن حجر العسقلاني على صحيح البخاري، وموطأ مالك بن أنس وبغلة جيدة، وأضاف يقول: "وأما ذوي منيع وأولاد جرير فقد حلفت بالله تعالى لا علمن سيدنا بأفعالهم فهم الذين يجمعون العسكر والجيش الكثير ويغيرون علينا وعلى العرب أحميان وغيرهم" (2). أما تقارير الضباط العسكريين الفرنسيين عن أحوال القصور في المنطقة الشرقية منذ الحملة العسكرية للجنرال "كافنياك" عام 1847 إلى أوائل القرن 20 م فإنها تتحدث كلها عن سيطرة القبائل الرحلية على هذه القصور. إنها سيطرة اقتصادية حسبما يبدو من مضمون هذه التقارير، لأنها تركز على ما بحوزة هذه القبائل من بساتين ونخيل في القصور. فعلى سبيل المثال تتحدث مذكرة كتبت في 2 شتنبر 1885 عن استلاك قبيلة العمور لمعظم بساتين ونخيل قصر المكرار التحتاني، وأن أهل قصر واكدة لا يملكون في واحتهم إلا نصف بساتينها (3).

(1) العياشي: ماء الموائد. مخطوط سبق ذكره.

(2) وثيقة محلية خاصة مؤرخة في 4 ذي الحجة عام 1800/1214. ويظهر من مضمون الرسالة أن كاتبها كانت له معرفة سابقة بالسلطان سليمان أيام الدراسة سويا في جامع القرويين.

(3) 30H. 23. A.O.M. Aix- En Provence.

وكذلك الأمر بالنسبة لواحة قصر بشار إذ النصف الباقي من نخيل وبساتين هاتين الواحتين الأخيرتين هو في ملكية قبيلتي أولاد جرير وذوي منيع والزاوية القندوسية. أما قصور موغل وسفيسيفة والأحمر وبوكايس وفندي، فإن معظم بساتينها ونخيلها في حوزة قبيلتي بني كيل والعمور (1).

وفي رسالة رفعها أهل قصر موغل إلى القائد محمد بن عمر المراكشي قائد فجيج والمنطقة في أواخر القرن 19 م يشتكون فيها مما كانت تلحقه فرقتي أولاد حمامة وأولاد مسعود المنتمية لقبيلة بني كيل من الضيق والضياع بأهالي هذا القصر وخاصة في موسم جني التمور، قد يكون مضمونها نموذجا لما كان يعانيه أهالي القصور الصغيرة العاجزين عن مدافعة الرحل. تقول الرسالة: "... واليوم يا سيدي فهما أصحابك نظروا ما احنا (كذا) فيه مع جيراننا أولاد حمام وأولاد مسعود فهما (كذا) ضيعونا في غابتنا بأجمعها لا من أضرار (كذا) ولا من كل شيء وهدوا (كذا) حيطانها ونزلوا في وسطها بتسعين خيمة إلا على سبيل الضياع ولحقونا إلى ديارنا (...) وحنا لا جهد إلا جهد الله والضياف كثيرة ولا عذرونا ولا نظروا فينا مسألة لأننا منزلهم نحضوا (كذا) لهم متاعهم خزين وغيره واليوم تنظر سيدي كيف تفعل لنا" (2).

---

(1) Documents pour servir. T .2, pp. 397-550

- أنظر كذلك تقرير كتب في المشرية بتاريخ 1902/10/16 Provence .En . Aix .A.o.M .151 .1J

(2) وثيقة محلية خاصة غير مؤرخة، وهي ترجع إلى الفترة التي حكم فيها القائد محمد بن عمر المراكشي الواحة الفجيجية وما يواليها ما بين: (1890-1896)، و (1900-1901).

تعابير هذه الرسالة مشحونة بالشعور بالغبن والظلم، وهي تُفصح عن معاناة وصلت حدا لم يعد هؤلاء يطيقون تحملها، إنها شهادة صريحة تلقائية، من النوع الذي عبر عنه "لا دوري Ladurie" بالشاهد المباشر بغير وسيط (1). ذلك أن الأمر لم يعد ينحصر في حيازة هؤلاء الرحل لقسم كبير من منتج التمور، بمالهم من حق الملكية، بل أصبحت إعالتهم بما هم من رجال ونساء وأطفال تحت الخيام طيلة مقامهم بهذه الواحة على حساب أهالي القصر، شيئا يتجاوز إمكانياتهم المحدودة، بل اعتبروه من ضروب الغبن المسلط عليهم من هذه القبيلة. وغلبة الرحل على أهل القصور كانت ظاهرة عامة في كل جنوب شمال إفريقيا، وتعتبر جزءاً من الواقع الاجتماعي بهذه المجالات خلال الفترة المدروسة إلى بداية القرن الحالي. إذ نحن نصادف صورا مماثلة لذلك الضغط تمارسه قبائل آيت عطا وذوي منيع على قصور تافيلات (2)، خاصة عندما تتأزم العلاقات بين الطرفين. وهذا الوضع نفسه كان واقعا معاشا في مجتمع قصور درعة بصفة مزمنة ابتداءا من القرن 12 هـ / 18 م. إذ كانت هذه القصور تتعرض لأعمال النهب والإغارة على قوافلها التجارية ومزارعها من القبائل الرحلية وخاصة قبائل آيت عطا. ولم تستطع التجريدات العسكرية المخزنية المرسلة منذ منتصف القرن 18، وطوال القرن 19 م لردع المغيرين على تخليص أهالي القصور من عبث الرحل ووضع حد لها، لأن الحملات المخزنية إلى تلك البقاع الصحراوية البعيدة عن المركز كانت ظرفية، وسرعان ما تعود

(1) E. Le Roy Ladurie: "Montaillon, village occident de 1294 au 1324 (Gallimard), 1982
وردت هذه الإشارة ضمن كتاب تيودور. س. هيمرو. معنون كالتالي: "تأملات حول التاريخ والمؤرخين".
عرض وتحليل مصطفى العبادي في مجلة عالم الفكر، يونيو 1989، عدد 1 من المجلد العشرين، ص. 253 .

(2) Mezzine Larbi: Contribution à l'histoire de Tafilalt. (Thèse de 3° cycle), 3T dactylographiée, p. 569, Paris, 1977.

القبائل الرحلية إلى ممارساتها التسلطية الأولى، ولذا كان لزاما على أهالي القصور الدرعاوية أن تعقد مع قبائل آيت عطا القوية اتفاقيات تتعهد فيها بحماية القصور من كل مغير، مقابل عطاءات وامتيازات يقدمها سكان القصور لهؤلاء مكنت الكثير منهم من حياز البساتين والدور في القصور فتحولوا إلى حياة الاستقرار بدل النجعة والترحال (1).

إن الأمثلة المدرجة أعلاه قد تشكل في ذهننا صورة قاتمة عن علاقات البدو الرحل مع المستقرين في البوادي وخاصة منها القصور الصحراوية، لكن علاقات المستقرين بالرحل ليست علاقات توتر ونزاع دائم، فلا يستطيعون التمادي في تبادل العنف، لأنهم طرفي إنتاج متكامل، ولا يستغني جانب عن الآخر مهما حاول، بل كان البدو الرحل والمستقرون في القصور والمدن الصحراوية يتعاونون على صد حملات الجيوش الأجنبية، وهذا ما أفصح عنه تقرير الجنرال "كافينياك" خلال حملته إلى القصور الشرقية مما كان يسميه المحتلون الفرنسيون بالجنوب الوهراني. فقد تعاون سكان قصور: تييوت، والمكرارين وعين الصفراء مع قبيلة العمور الرحلية في مدافعه الفرنسيين أثناء حملتهم تلك، كما يتحدث "فرنان بروديل" عن تعاون البدو مع أهالي المدن -(يقصد بذلك المدن الصحراوية)- في شمال إفريقيا لصد هجمات العساكر التركية (2) المنطلقة من حواضر الشمال، مركز سلطتهم في كل من تونس والجزائر. فوضعية القصور في الجنوب الشرقي لم تكن إذن بالدرجة التي نتصور، بل يطبعها تبادل المنافع بين الطرفين في إطار علاقات سلمية عادية في أغلب الأوقات، حسبما رأينا من الأمثلة التي أدرجنا نماذج منها سابقا.

---

(1) أحمد البوزيدي: الحياة الاجتماعية لدرعة (مطلع القرن 17 م - مطلع القرن 20 م). بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ 1988، كلية الآداب، الرباط، ج. 1، ص. 269 .

(2) Brauel. F: La méditerannée et le monde mediterranien. T1, p. 164.

والواقع أن النزاع بين سكان القصور والرحل حول استغلال الموارد الفلاحية أو غيرها من المنافع لم تكن بالضرورة دائما أكثر حدة من الخلاف بين القصور فيما بينها، فقد سبق أن أوضحنا في دراسة سابقة (1) كم كان النزاع شديد الضراوة فيما بين القصور الفجيجية لأجل احتكار الماء. وتتحدث وثيقة محلية عن تقاتل جرى بين سكان قصر المگرار التحتاني وبين أهل قصر إيش في الحادي والعشرين من جمادى الأولى عام 1256 / يوليوز 1840؛ عندما اعترض الأولون قافلة لأهل قصر إيش محملة بالبضائع كانت قادمة من فجيج، فنتج عن تقاتلهما العديد من القتلى والجرحى في صفوف الطرفين (2).

ولم تكن وضعية القصور الصحراوية على حال سواء، فالقصور الفجيجية مثلا لم تخضع لسيطرة الرحل كباقي القصور الأخرى في المنطقة. وكانت هناك بكل تأكيد خلافات بين بعض فرق بني كيل أو العمور وأولاد جرير، وبين قصر أو أكثر من القصور الفجيجية بسبب القتل الخطأ أو اعتداء فردي غير مسؤول، وهذا تنجم عنه غارات الرحل، إذا ما كانت الضحية من إحدى فرق القبيلة، فيفضي الأمر إلى تبادل النار بين الفرقة والقصر المعني بالجناية لأخذ الثأر. وغالبا ما تسوى هذه المنازعات إما بمبادرة من جماعتي الطرفين أو بتدخل طرف خارجي، ولنا عن ذلك عقد مصالحة بين جماعة قصر الوداغير وجماعة أولاد إبراهيم من بني كيل مؤرخ في أواسط ذي الحجة عام 1877/1294، في شأن قتيل سقط لهؤلاء برصاص رماة الوداغير عن خطأ، اتفقت الجماعتان بعدما "كثر التشاجر والتشديد فيما بينهم

(1) أحمد مزيان: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي. 1988

(2) وثيقة خاصة أطلعني عليها إمام مسجد قصر "إيش".

كما أن هذه المعلومة عن الحادث نقلها شفويا من أحد سكان قصر "إيش" الكاتبان:

J.P. Homo et Hunogot: Ich; oasis du montagne. P. 190-110

والمشاحة والميل إلى العداوة والتجنيح إلى وقوعها حتى أفضى الأمر إلى الضرب بالبارود" (1)، على المصالحة بينهما، لما قبل الوداغير أداء دية المقتول المتفق عليها وقدرت بتسعمائة دور بين نقود وسلعة.

وأحيانا يتدخل أصحاب الزوايا، أو تتدخل السلطة المخزنية المركزية مباشرة لردع الطرف المعتدي بواسطة رسائل التهديد والوعيد المرسلة إلى شيوخ القبائل الرحلية المعنية، فقد سبق أن أدرجنا رسالة العلامة محمد بن محمد السنوسي الراشدي الشاكية عن تعديات أولاد جرير وذوي منيع على القصور الفجيجية، فلم يتأخر جواب مولاي علي بن عبد الله (2) نيابة عن السلطان مولاي سليمان في رسالة تهديد ووعيد لقبيلة أولاد جرير، مؤرخة في 13 رمضان عام 1215 هـ/1800 م، بالكف عن إداية أهل فجيج وغيرهم "وإلاَّ فتنالكم عقوبة مولاوية بحول الله (...) تأتي على مالكم ورقابكم (...) وإن خالفتم وبقيتم على غيكم تقطع عليكم الصحراء والغرب ويؤخذ مالكم حيثما ظهر بها وتقطع رقابكم" (3).

ونحن نعلم كذلك أن القصور الفجيجية كان لها مجال زراعي يمتد خارج واحتها المركزية إلى درمل وخنق فوناسة وجنين بورزق على مسافة: 60-80 كلم. بل إلى جبل بني سمير ووادي الحلوف شمال شرق فجيج. فخلال النزاع المغربي الفرنسي على واحة بورزق عام 1855، استظهرت أسرة من أولاد العلامة محمد بن عبد الجبار الفجيج بعقود قديمة لملكيتهم للعديد من نخيل هذه الواحة، ترجع إلى عام 1050 هـ / 1640 (4).

(1) وثيقة محلية خاصة، وهي عبارة عن عقد عدلي وقعه ثلاثة عدول وأثبته ثلاثة قضاة.
(2) لم يتبين من الوثيقة الحيز الجغرافي التابع لسلطة هذا المسؤول المخزني .
(3) وثيقة خاصة.
(4) ورد ذلك في شهادة عدلية تؤكد صحة ملكية الفجيجي

وتتداخل أملاك الفجيجيين الزراعية في جميع هذه الجهات مع أملاك عدة قبائل ومجالاتها الرعوية كقبائل العمور وأولاد جرير وذوي منيع. ومن الطبيعي أن تنشأ نزاعات حولها بين الأطراف المذكورة من حين لآخر، يرفع بعضها إلى القضاء ليبث فيه إذا كان الأمر يتعلق بنازلة شرعية، بين أرباب العائلات، كما حدث بين أسرتي "عبو لكحل" من قبيلة العمور وبين أولاد عزي الودغيريين من فجيج، عندما قام نزاع بينهما حول أملاك النخيل والماء وأرض الحراثة بجبل بني سمير (1). فتداعا الطرفان أمام قاضي فجيج. فادعى الطرف الفجيجي أنه غُصِبَ في أملاكه بذلك الجبل، واستظهر الطرف العموري بعقد شراء أجدادهم لتلك الأملاك من أجداد المدعين منذ عام 1110 هـ / 1698-99، فحكم القاضي بصحة دعوى العموري وكتب عقد الإثبات بحضور القائد المخزني بفجيج محمد بن علي الكسيمي بتاريخ أواخر ربيع الأول عام 1889/1307 (2).

هذه الأحداث كانت ظرفية ولا تقاس بشيوع الألفة، ودوام سريان علاقات التبادل وأشكال الاتصال السلمي بين الطرفين، مما يتيح لهما استثمار الأموال في التجارة والتملك في كل من البادية ومجال الزراعة في القصور.

وبحوزتنا مجموعة من الوثائق (20 وثيقة) تهم عقود بيع ورهن واسترداد لأملاك زراعية لفجيجيين ينتمون لقصور: الوداغير وزناكة والعبيدات، كان يستفيد منها رحل ينتمون لقبيلتي العمور وبني كيل تمت في ظروف عصيبة مرت بها الواحة خلال فترات القحط والمجاعة، تتراوح تواريخها ما بين الثلث الأول من القرن 19م، وأوائل القرن 20. وقد تم بيع غالبية هذه الملكيات الزراعية للرحل أثناء مجاعة

(1) يبعد عن فجيج بحوالي: 30-40 كلم، شمال شرق.
(2) وثيقة خاصة مذيلة بخاتم القائد المخزني.

عام 1315 هـ / 1897-1898 (1) وحسب الرواية الشفوية (2) فإن هؤلاء الرحل كانت لهم ملكيات زراعية بالشراء والرهن في غابات جميع القصور الفجيجية الأخرى غير القصور الثلاثة المذكورة.

لم تكن هناك إذن هيمنة بمفهومها التسلطي للرحل على القصور الفجيجية. فهل يرجع ذلك إلى القوة الديموغرافية على اعتبار أن ساكنة القصور الفجيجية كانت أقوى تجمع سكني استقراري في المنطقة؟ من المؤكد أن لعنصر الديموغرافيا دورا كبيرا لضمان علاقات متوازنة بين طرفي الإنتاج المختلفين: الرحل والمستقرين في القصور، لكنه في اعتقادنا ليس عاملا وحيدا في خلق تلك الوضعية غير المريحة لدى ساكنة القصور الأخرى المتفرقة الضعيفة ديمغرافيا في الجنوب الشرقي، وقد أجبرتها الظروف على تفويت بعض أو جل مجالها الزراعي للرحل. فعندما نناقش واقع هيمنة الرحل على ساكنة القصور بدرجة أقل أو أكثر فإننا نتساءل عن مدى تأثير تفاوت الثروة الاقتصادية بين الطرفين كعامل مؤثر، فسح المجال لتدخل متزايد من قبل الرحل لامتلاك وسائل الإنتاج الزراعي بواحات القصور.

إن هيمنة الرحل بدرجات متفاوتة على ساكنة القصور ترجع حسب رأينا إلى واقعين: واقع الغلبة الديموغرافية وواقع غلبة الاقتصاد الرحلي، والتراكم النسبي للثروة لدى الرحل، عكس محدودية ووسائل الوفرة وإنماء الثروة من الإنتاج الزراعي لدى القصوريين، فباستثناء مجموعة من التجار الفجيجيين الذين حصل لديهم رأس مال نقدي من التجارة، راح البعض منهم يستثمرون قسما منه في المضاربة في الماشية مع شركائهم الرحل وكذلك إقبال بعض التجار في قصر القنادسة وعلى

(1) أنظر أحمد مزيان: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي (فجيج)، ص. 211 .

(2) سجلنا هذه الجلسة الاستجوابية في صيف عام 1990 بمدينة فجيج مع مُسِنٍّ يبلغ عمره 89 عاما من قصر

رأسهم أصحاب الزاوية القندوسية لجلب السلع والبضائع من وجدة، وعين الصفراء، وقاموا بدور الوسيط في تجارة توات مع غيرهم من بعض تجار القصور الأخرى بما فيهم تجار تافيلالت عن طريق تنظيم قوافل تجارية كبيرة (1). فإن حالة عموم الساكنة القصرية لا تتجاوز حد عيش الكفاف.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لساكنة القصور الفجيجية التي لا يقتصر مجالها الزراعي على ما يغرس ويزرع في واحتها الرئيسية المحيطة بالقصور، بل تملك نخيلا وتزرع حبوبا في واحات أخرى تبعد عن الواحة الأم بعشرات الكلمترات (2) في مختلف الاتجاهات، فما بالك إذاً بباقي القصور الأخرى الضعيفة ديموغرافيا في المنطقة، المكتفية بالبساتين المحيطة بجدران قصورها.

ولا يعني هذا أن الرحل كانوا في معظمهم ينعمون بثروة حيوانية تكفل لهم أمنا معاشيا نقيضا لما لدى أهل القصور، بل يصيب السواد منهم من الضنك والضياع في سنين الجفاف والمسبغة ما يشبه أو يفوق وضعية أهل القصور في ظروف مماثلة (3).

لكننا إذا ما صدقنا الأرقام الواردة في تقارير الضباط الفرنسيين المشاركين في توسيع النفوذ الفرنسي في المنطقة خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي، عن رؤوس الغنم والماعز والإبل مما حازته فرقهم العسكرية النظامية أو الگومية في

(1) مذكرة Rochas يونيو 1883 . 30H.23.A.OM Aix EN P

(2) أنظر أحمد مزيان: مساهمة: مساهمة في دراسة المجتمع الواحي (فجيج). ص. 128-129-130 .
أنظر كذلك مؤلف. Documents pour servir في عدة صفحات.

(3) تحدث لي أحد المسنين وعمره حوالي 85 عاما من قصر الوداغير بفجيج خلال صيف 1989 عن أحوال أعراب قبيلة بني كيل ممن كان يملك القليل مما أصابهم من جوع وضياع أثناء الحرب العالمية الثانية فيما يسمى عندهم بعام (البون) ومعناه توزيع المواد الاستهلاكية على السكان بالتقنين بواسطة البطاقة في ظل الحماية الفرنسية. بل ذكر أن الكثير من هؤلاء مات جوعا ويتذكر المخبر أمثلة عن هذه الحالات بالمشاهدة.

غاراتهم ضد قبائل بني وكيل، والعمور وأولاد سيدي الشيخ، وأولاد جرير وذوي منيع، وكذا ما يقع من سلب المواشي بين القبائل أثناء تبادل الغارات ونشوب القتال بينها، يحصل لدينا انطباع بأن هذه القبائل كان العديد من رؤساء دواويرها وأسرها يملكون قطعانا هامة من الماشية، وهي الثروة الوحيدة عند الرحل، توفر لهم رصيدا نقديا كبيرا في فضاء واسع من أسواق القصور والمدن تمتد من وجدة ونواحيها شمالا إلى قصور بشار والقنادسة وعسلة جنوبا، ومن المشرية شرقا إلى عين الشعير وتافيلالت غربا. ويقول الجنرال "Lacretelle" في مذكرته المؤرخة في 17 يونيو 1881، إنه قاد طابورا عسكريا معززا بفرقة من الگوم سنة 1852 تحرك به لملاحقة قبائل أولاد سيدي الشيخ وأحميان لإخضاعهم، ووصل في تحركه هذا إلى ما وراء الواحة الفجيجية فاشتبك مع العديد من فرق القبيلتين المذكورتين وتمكن من الاستيلاء على 60.000 رأس من الأغنام (1). وبقطع النظر عمّا يرد في تقارير العسكريين الفرنسيين من المبالغة وتضخيم خسائر الأهالي الجزائريين والمغاربة على السواء في منطقة الحدود، فإن هذا الرقم يعبر مع ذلك عن أهمية الثروة الحيوانية التي في حوزة هذه القبائل الرحلية.

ولنستمع إلى مثال آخر يتعلق هذه المرة بنزاع بين قبيلتين مغربيتين: فقد أغار بنو كيل على أولاد جرير سنة 1894 بسبب النزاع حول المرعى ونقط الماء، فتمكن بنو كيل المتفوقون عددا من سلب خصومهم 500 جمل و 20 قطيعا من الغنم (2).

(1) أرشيف فانسين، باريز. 1H. C. 1049. A.MGH

(2) رسالة الحاكم العام للجزائر إلى وزير الحربية في 23 نونبر 1894، H..C.19, A.M.G

وفي لوحة إحصائية أوردها "لامارتنيير ودولاكروا" قدّرا ما يملكه بنو كيل من المواشي على الشكل التالي:

470.000 من الغنم.

55.000 من الماعز.

7.300 من الإبل (1)

وهذه التقديرات التي نأخذها بكثير من الحذر -لأنها أخذت من أفواه المخبرين من أفراد رحل جزائريين جماعين للإخبار، لهم احتكاك بقبيلة بني كيل وبغيرها، ويعملون لصالح الفرنسيين بتعويض مادي- قابلة للنقص والزيادة. بيد أنها تعطينا انطباعا عما يمكن أن تشكله ثروة قبيلة كبيرة مثل بني كيل من أهمية. ولنا أن نحتكم مرة أخرى لصنف آخر من الأخبار اعتمدناه غير ما مرة من قبل، ويتعلق الأمر بالرحلة الحجية، فصاحب رحلة الآس في حجة سيدنا أبي العباس عند رجوعه من الحج عام 1100 هـ / 1688 م يخبرنا بما اجتمع بيد الحجاج من الغنم بقصد استهلاك لحومها في طريقهم "ودخلنا الظهرا وسارت معنا دولة كبيرة من الغنم للحجاج فضلت لهم مما ذبحوا فجعلوا لها رعاة من صعالك الركب يسوقونها بالإجارة(2).

(1) Document, T.2, P.372-373

-أما الكاتبة "Sazane Nouvel" في كتابها: "Nomades et sedentaires" ص. 97 فقد رفعت عدد ما بحوزة بني كيل من الماشية إلى الأعداد التالية: الغنم 900.000 رأس، الماعز: 160.000 رأس، الإبل: 15.000 رأس. ولا يخفي ما في هذه الأرقام من مبالغة بالمقارنة مع ما سجل أعلاه. أما :"Marchand" فقد أعطى تقديرات أخرى مشابهة للأولى عام 1902، الجمال: 7300 رأس، الغنم: 244.000 رأس، الماعز: 35.150، مذكرة كتبت في المشرية بتاريخ 16 أكتوبر 1902 .

(2) عبد القادر بن أحمد بن الحسن القادري، مخطوط سبق ذكره.

أما الهشتوكي في رحلته إلى الحج عام 1119 هـ / 1707-1708 فقد نقل عن أحدهم من سكان المنطقة قوله: أن الأمير عبد المالك بن السلطان مولاي إسماعيل أغار بجنوده على قبيلة العمور وغيرها في بلاد الأبيض واستولى من يدها على 1500 من الإبل و 118.000 رأس من الغنم (1) فإذا كانت قبيلة العمور ومن بجوارها الأقل عددا من حيث عدد الأفراد بهذا القدر من الثروة الحيوانية، إذا ما صدقنا كل هذه الأرقام الأخيرة، فإن ثروة بني كيل -وهي القبيلة الأكثر أنفسا والأوسع مجالا للظعن والنجعة في كل المنطقة - ستكون أضخم بكثير مما لدى قبيلة العمور.

وإلى عنصر الثروة هذا نضيف عنصرا آخر، ويتجلى في حيوية القبائل الرحلية، إنها قبائل مجبولة على روح الحركة والمغامرة والقتال، عكس سكان القصور المستقرين الميالين إلى السلم، الملتصقين بمجالهم الزراعي مصدر عيشهم الأساسي. فالبدو كما قال ابن خلدون: "قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم.. وأهل الحضر مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئا من أمر أنفسهم" (2). ونظرا لما يتراكم من رأس مال نقدي لدى الأسر الرحلية المتوفرة على قطعان كبيرة من الماشية فإنها تنزع إلى استثمار جزء منها في شراء البساتين وخراريب المياه في واحات القصور، وقد يتم تفويت جزء من هذه الملكيات الزراعية إلى الرحل عن طريق الرهن، عندما لا يجد القصري من وسيلة لرد أموال كانت مودعة لديه واستهلكها، أو دينا اقترضه من صاحبه الرحلي وعجز عن تسديده. وهكذا تحولت العديد من البساتين في القصور الجنوبية الشرقية وخاصة منها قصور تييوت وعسلة وعين الصفراء وصفيصيفة

(1) هداية الملك العلام

(2) ابن خلدون: المقدم. الباب الثاني. ص 219 .

والمكرارين وفندي وموغل وواكدة وبشار، إلى أيدي مالكيها الجدد من الرحل المنتمين إلى قبائل العمور وأحميان وبني كيل وأولاد جرير وذوي منيع، وتحول جزء من سكان القصور إلى خماسين يزرعون ويسقون ويتعهدون البساتين والنخيل بخمس الإنتاج لصالح الأولين. وقد يؤول الأمر ببعض الأسر الرحلية إلى تفضيل الاستقرار كليا أو جزئيا في القصور فتتوزع الأسرة الواحدة المكونة من الأبناء الكبار والأب والأحفاد بين سكن الخيمة في البادية وسكنى الدار في القصر. وقد توزع الأسرة مقامها في فترات خلال السنة بين الخيمة والدار. وبهذا الشكل تمكن عدد من الرحل من الانتقال من حياة الترحال والظعن إلى مستقرين أو نصف مستقرين. وهذه الحالة تنطبق بوضوح على قصر القنادسة حسبما تضمنته مذكرة Rochas، إذ يتكون القصر من 200 عائلة يشكل فيها أولاد بلكيز -وهم غرقة من قبيلة ذوي منيع- 70 عائلة، تحولت إلى حياة الاستقرار (1) (أي ما يزيد عن الثلث). ويعبر هذا التحول عن مظهر من مظاهر التكسير الذي يصيب النسق القبلي المعتاد على حياة النجعة والرحلة، وقد يفضي مع مرور الزمن إلى ضعف أو انحلال للروابط بين المجموعة المستقرة وبين مجتمعها الترحالي السابق. ألا يمكن إذاً أن نتحدث هذه المرة عن تأثير المستقرين على الرحل؟ إنه تأثير متبادل مهما اختلفت درجات السلم والترتر في الزمن، ومهما كانت قوة الغلبة إلى جانب الطرف الرحلي.

لقد سبق أن أكدنا على واقع تضييق الرحل على أهل القصور بشن الغارات أحيانا من أجل النهب، وتصدر في الغالب من مجموعات رحلية غير منضبطة،

(1) المصدر السابق. 30H.23..A.O.M

وشن الغارات المتبادلة هذه تحدث كثيرا حتى ما بين القبائل نفسها. وقد يقع التضييق بمزاحمة الرحل وهم يسوقون مواشيهم إلى الأجنة وأطراف الواحات في أيام الجذب، فينجم عن ذلك الكثير من الضرر على عيش ساكنة القصور. وأمام عجز غالبية هذه القصور عن المدافعة، فإنها تضطر إلى طلب أو قبول حماية قبيلة أو فرقة كبيرة من قبيلة لاتقاء غارات وتضييق القبائل الأخرى المغيرة مقابل تعويض متفق عليه بين الجانبين. والحماية هنا يطلق عليها في العقود مصطلحات مثل: "الخاوة" (1) و"الصحبة". وتتم على مستويين: عام وخاص. الأول تنوب فيه كل من جماعتي القبيلة والقصر عن باقي الأهالي لكتابة وإمضاء عقد "الخوة" أو "الصحبة" الجماعي لضبط العلاقات بين الطرفين، وهذا الشكل من الصحبة متواطأ عليه منذ القديم بين القبائل الرحلية والقصور على طول جنوب الشمال الإفريقي من قصور درعة إلى قصور الجريد التونسي (2). بل نجد نفس مصطلح عقد "الخوة" لدى بوادي الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية، تؤمن مصالح وعمل المنتجين الزراعيين في القرى في ظروف طبيعية مقابل تأدية ضريبة "الأخوة" للبدو الرحل، لقاء توفيرهم للحماية العسكرية (3).

(1) أي الأخوة.

(2) أورد "جيلبير كيوم " في مقاله عن توات، أن كل قصر فيها كان يوقع "عقد الأخوة" مع إحدى القبائل من أجل الوقاية من هجمات الرحل، مقابل إتاوة سنوية. أنظر:

Gilbert Grand Guillaume: Régime économique et structure du pouvoir: le système des foggara du Touat. (R.O.M.M), sep. 1953

(3) د. أنطوان عبد النور: الريف والمجتمع الفلاحي. مجلة الفكر العربي المعاصر. عدد 12، 1981، ص. 99. تصدر عن مركز الإنماء القومي ببيروت.

أما المستوى الثاني فيتم بين كبير أسرة الرحلي ونظيره في القرية أو القصر، وينعت العقد الموقع بينهما عادة باسم ؛عقد الصحبة". ونجد هذا الشكل في البوادي التونسية، وخاصة منها منطقة الجريد، يعرض الرحلي صحبته على من يقبلها من المستقرين فيتم العقد بينهما على أن يوفر الرحلي حمايته لصاحبه مقابل ما اصطلح عليه هناك "بالعلاكة" السنوية، وهي عبارة عن طربوش ولباس صوفي وقدر من المواد المعاشية كزيت الزيتون، والتمر، والتين الجاف (1).

والصحبة أو الأخوة فيما سبق ذكره على أية حال لا تعني الإخاء بمفهوم العلاقات الإنسانية القائمة على المودة والمصاحبة التلقائية، بل تعبر عن ضعف طرف مرغم على أداء تعويض عن أمنه أمام جار قوي يعجز عن مدافعته.

وفي القصور الفجيجية نعثر أيضا على مصطلح "الصاحب والخليل" لكن هذين المصطلحين يختلفان عن مفهوم الصحبة في البادية التونسية، إذ هما لايعنيان أي شكل من أشكال الحماية ولا يتمان عن إكراه، أو يخضعان لعقود مكتوبة مشهود عليها بعدلين، بل تتم الصحبة بين كبير الخيمة الرحلي ونظيره القصري تلقائيا حسب الأعراف، بفعل تعدد اللقاءات وطول الممازجة والألفة، ضمن أشكال من المعاملات التجارية: منها خزن الودائع النقدية والعينية من لدن الرحلي عند القصري ووقوف طرف مكان آخر لأداء ما عليه من دين، أو انتصابه موكلا لدى الشرع في حالة الغيبة. بل ينزل الرحلي ضيفا على دار القصري كلما قدم إلى الواحة للتسوق، ويكون القصري في المقابل ضيفا على خيمة الرحلي كلما سافر إلى

(1) André Louis: Nomades d'hiver et d'aujourd'hui dans le sud tunisien: (C.N.R.S). EDISUD, 19, pp. 32.33

البادية لأغراض تجارية. إنه شكل من أشكال العلاقات المتوازنة بين الرحل والمقيمين في المجالات الصحراوية، قد تنفرد به القصور الفجيجية في هذه المنطقة المعنية بالدراسة. فالخزن، والتبايع بالدين، والصحبة، ظواهر اجتماعية من أنظمة التعامل بين نمطين اجتماعيين مختلفين محكوم عليهما بالضرورة أن يتعايشا في وسط إيكولوجي يتسم بالشح والقساوة.

إن هيمنة الرحل على أهل القصور تختلف حسبما رأينا من مجموعة قصرية إلى أخرى تبعا لحجمها الديموغرافي وحيوية ساكنتها. وهي على العموم غلبة اقتصاد تربية الماشية المدر للأرباح من جراء بيع لحومها ومشتقات ألبانها وأصوافها، على الاقتصاد الزراعي لواحات القصور المحدود في رقعته الجغرافية، وذي الإنتاج غير القابل للتسويق باستثناء محصول التمور في دورات الإخصاب ذي الإنتاج الجيد. إضافة إلى مصنوع الأثواب الصوفية. وهذه الغلبة الاقتصادية تعزز من فعاليتها واستمرارها قوة الرحل الديمغرافية وحيويتهم وسرعة تحركهم واستعدادهم الدائم للدفاع عن مصالحهم بقوة السلاح . فإذا كانت الحواضر في الشمال تملك من الوسائل والمعنوية والاقتصادية ما تمارس به أشكالا من الهيمنة على البوادي (1) المحيطة بها، فإننا نجد العكس في مناطق الجنوب، البعيدة جغرافيا عن قبضة السلطة المركزية، حيث تنتقل الهيمنة إلى أيدي الرحل على سكان بعض القصور المستقرين، وهي هيمنة اقتصادية بالرجة الأولى تصحبها ممارسة العنف أحيانا.

(1) عبد الرحمان المودن: "التوتر والانفراج في علاقات البادية والمدينة في مغرب ما قبلل الاستعمار"، ضمن ندوة تطور اللعاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 10، 1988، ص. 43 .

الفصل الثالث
الزوايا الدينية في المنطقة

1- ظهور الزوايا في المنطقة

أ- ظروف النشأة

عندما نتأمل خريطة "رين" RINN المرفقة بمؤلفه "مرابطون وإخوان" (1) في الجزائر، نلاحظ أن إتجاهات انتشار الطرق الصوفية المنتمية للمنطقة أو من خارجها تتكثف في الجنوب عبر أحزمة من الخطوط المتباينة الألوان (2) تتخذ شكل قوس يمتد من عين ماضي إلى واحات كورارة وتوات عبر فجيج ، فهل امتدادها على هذا النحو مجرد صدفة؟ لن نتردد عن الإجابة بالنفي إذا ما أخذنا بالمعطيات التالية:

إن انتشارها في المنطقة يتبع الطريق الذي كانت تسلكه قوافل التجارة الصحراوية وقوافل الحجاج، الرابط بين الجنوب المغربي والجنوب الجزائري من الغرب إلى الشرق انطلاقا من درعة وتافيلالت وتوات، مخترقا أهم المراكز الجنوبية مثل: كرزاز والقنادسة وبشار وفجيج وعين الصفراء وتيوت والغاسول والأبيض وبوسمغون وعين ماضي والأغواط وبسكرة وما بعدها، ونحو تلمسان وبجاية في الشمال، أو في اتجاه طرابلس ليبيا في الشرق.

وكان لبعد المنطقة عن مراكز القرار السياسي في الشمال بالمغربين الأقصى والأوسط تأثيره الواضح على العلاقة بين الطرفين، إذ لم تكن يد الشمال مبسوطة على هذا المجال بشكل مباشر وفعال إلا في بعض الأحايين عبر الفترات التاريخية (3) وبالنظر لهذا المعطى السياسي ولشساعة المنطقة ووضعها الديمغرافي

(1) Rin Louis, maraBouts et Khouans: Etude sur l'islam en Algérie, 1884.

(2) كل خط انتشار زاوية دينية في المنطقة وضع له لون معين في الخريطة.

(3) يرى (ج. دراك) أن المرابطين الراغبين في الابتعاد عن تأثير السلطة المخزنية يلجأون إلى المرتفعات الجبلية للاستقرار والاختلاء بها.

أنظر: Georges Drague: Esquise d'histoire religieuse du Maroc. Paris 1951, p. 84

وتنوعها التضاريسي، فإن المنقطعين للعبادة كانوا يجدون بغيتهم في أوديتها ومغارات جبالها فيقيمون بها لتبعدهم لمدة طويلة عن كل اتصال آدمي، ولا تخفى حاجة كل سالك في أول مراحل تعبده للمجاهدة وترويض النفس على تحمل الجوع والعطش وقساوة الطبيعة، ليسمو الجانب الروحي في ذاته على الجانب المادي. ولن يجد العابد الطامع في مراقي الولاية مكانا أوحش ولا سماء دائمة الصفاء تضاعف من حوافز الخلوة، أحسن من فضاءات هذا المجال الصحراوي. لذا نجد الهشتوكي في رحلته إلى الحج عام 1119/1707-08 يتحدث عن فرار "الأولياء والسياح من كل بلد" إلى مسجد بأعلى وادي النخيل على مقربة من الغاسول قلما "يخلو من منقطع للعبادة وهو في خلاء من الأرض" (1).

ولقد ارتبطت المنطقة منذ القديم (2) بأشهر حواضر العلم في الشمال كتلمسان وفاس ومراكش وقسنطينة وبجاية، بل شهدت بعض مراكزها كفجيج على الخصوص وكذا المراكز المجاورة لها كعين ماضي وبوسمغون، حركة علمية نشيطة تعددت فيها زوايا العلم وكتاتيب تعليم القرآن ومبادئ الدين (3). ولأجل ذلك رحل إليها ومنها عدد من طلبة العلم ممن ينتسبون في الأصل إلى المنطقة أو من خارجها، فنالوا منه القسط الأوفر. وانخرط بعضهم في مدارج التصوف طمعا في نيل الولاية. وقد ترجم لهم أو أشير إليهم في عدة مصادر، نذكر منهم على سبيل

(1) الهشتوكي، هداية الملك العلام، ويقول الحضيكي عن مسجد النخيل هذا: "مسجد معظم محترم (...) يرتحل الناس لزيارته من بلاد بعيدة، كان مأوى الصالحين ومجمع الأولياء". محمد بن أحمد الحضيكي في رحلته إلى الحج عام 1153 هـ / 1740-41، مخطوط: خ، ح، الرباط.

(2) على الأقل منذ القرن التاسع الهجري.

(3) وصف أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته الحجية أهل عين ماضي بأنهم "كلهم طلبة علم (...) يقرأون خليل".

المثال: الشيخ سليمان بن أبي سماحة (1) والعلامة المشهور عبد الجبار بن أحمد بن موسى البرزوزي الفجيجي صاحب المؤلفات والتصانيف العديدة والخزانة العلمية (دار العدة) الشهيرة بفجيج (2). والشيخ أبو الحجاج يوسف بن أبي مهدي عيسى الشريف الفجيجي، ترجم له إبن عسكر في الدوحة فوصفه ب"ذي الأقوال الزاهرة والكرامات الظاهرة"، صحبه وتتلمذ عليه عام 955 هـ / 1548 (3). وتعرض أبو زيد عبد الرحمان بن إبراهيم الصومعي التادلي في "تشوفه الصغير" لمجموعة من الشرفاء الفجيجيين نالوا درجة من العلم والولاية منهم: الشيخ ورياش بن عيسى ابن أبي عبد الرحمان ابن علي الحسني الفجيجي والشيخ محرز بن علي بن أحمد بن يعقوب العرهبي الفجيجي "نزيل حوز تازة". وكذا الشيخ ميمون الصحراوي بن محمد بن علي بن عبد الله الحسني الفجيجي، من الكرامات المنسوبة إليه حسب المؤلف أن الوحوش تجتمع حوله كلما ظهر لها (4).

---

(1) الولي الصوفي له ضريح مشهور بقرية بني ونيف القريبة من فجيج، درس بفاس وغرناطة، وتتلمذ للصوفي الكبير سيدي أحمد بن يوسف الملياني، أنظر Houari Touati: Entre Dieu et les hommes, lettres, Saints et Sorciers au Maghreb au 17° s, PARIS. 1994, p. 195

(2) ترجم له وأشير إليه في عدة مصادر منها على الخصوص الرحالة الأندلسي الوادي آشي في تبته، وابن مريم في البستان ومحمد حجي في الحركة الفكرية... إلخ. أخذ العلم عن عدد كبير من علماء وقته المشهورين كأبي عبد الله ابن مرزوق الحفيد، وأبي إسحاق إبراهيم اللنتي التازي وأبي العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق، توفي العلامة عبد الجبار حوالي: 920 هـ / 1514 بفجيج.

(3) ذكر ابن عسكر أنه شاهد له كرامات كثيرة، وذهب إلى الحج فأقام بمكة مجاورا للمسجد الحرام مدة 16 سنة وأخذ "عن مشايخ أجلة منهم أبو محمد عبد الله الغزواني والشيخ أبو عيسى الفهري والشيخ الحطاب... ولم ندر حيث كانت وفاته" الدوحة، مطبوعة على الحجر، وذكر صاحب "التشوف الصغير" أن عبد الرحمان ابن الشيخ يوسف بن عيسى العرهبي الفجيجي المترجم له كان مقربا من السلطان أحمد المنصور السعدي ومووليا اقتضاء خراج تادلا.

(4) عبد الرحمان التادلي، التشوف الصغير، اعتمدنا نسخة مخطوطة في ملكية صاحبها كثيرة الأخطاء، لا نعتقد أنها نسخت من الأصل، لمحمد بن أحمد الصديق اليعقوبي الرشيدي الحسني، نسخها يوم الجمعة شهـــر رجب 1944/1364.

وفي أوائل القرن 12 هـ / 18 م أورد الهشتوكي أسماء ثلاثة صلحاء بفجيج أحدهما يدعى الحاج مبارك بن هبة الله الفجيجي، قال عنه إنه "انتظم معه في سلك القراءة ببلاد نغازى سنين عديدة". وله اليوم ضريح بقصر المعيز يزار كبقية الصلحاء بفجيج. أما الصالحان الآخران فمن أصل سوسي وقد توفيا ب فجيج عند رجوعهما من الحج أحدهما هو "الولي الصالح أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمان الجزولي التميلي" (1). وثانيهما "الحاج المبرور سيدي محمد بن عبد الرحمان بن داود الكرسيفي الدار التميلي الكشيمي النجار" (2).

أما أبو العباس محمد بن ناصر في رحلته الحجية أواخر القرن 12 هـ / 18 م. فقد أشار إلى أحد الصلحاء المدعو "سيدي منصور" توفي ودفن بنواحي توات وترك ذرية بقصر تييوت ونواحيه. وعند وصوله بلدة أبي سمغون (3)، ذهب لزيارة أحد المعتزلين عن الناس للعبادة "في خلوة يزار فيها وله صيت ظهر عليه" (4) اسمه محمد بن زيان من أولاد سيدي الشيخ.

ونختم هذه السلسلة ببعض من ترجم لهم الكتاني في السلوة في القرن 13 هـ / 19 م. من أصل فجيجي عاشوا وتوفوا بفاس، وحصلوا فيها قيد حياتهم على قدر من علوم الظاهر والباطن. منهم: "العارف الكامل أبو عبد الله سيدي محمد

(1) بحث الهشتوكي أثناء مروره على فجيج إلى الحج عن قبره لزيارته فلم يجد من يدله عليه. "هداية الملك العلام".

(2) قال الهشتوكي إنه "لقي بمصر الأجهوري وأخذ عنه وأجازه، توفي بفجيج وقبره هنا مشهور يزار ووفاته إما في سنة 1037 أو 1038". 1627-28 .

(3) نسبة لنازلها "أبي سمغون" يعد من أولياء البلد.

(4) أبو العباس محمد بن ناصر الدرعي، الدرحلة الكبرى. 1197/ 1782-83 .

ابن الحاج محمد بن يعقوب بن أبي القاسم الفجيجي السليماني الجراري" (1) كان من أتباع وخاصة الشيخ العربي الدرقاوي، توفي يوم الاثنين 17 ذي القعدة عـــام1264/ شتنبر 1848. وكذلك "الحاج عاشور الحسني الإدريسي الفجيجي" وصفه بالولي الصالح ونسب إليه كرامات "وأحوال غريبة". توفي في 9 ربيع الأول عـــام 1264 هـ / فبراير 1846 (2) ثم "سيدي محمد بن عمرو بن الشريف (...) عبد القادر الفجيجي الإدريسي". قال عنه إنه من "الراسخين في العرفان وممن له في الطريقة الشأن" توفي بالطاعون (3). وممن أقبر بفاس من صلحاء المنطقة: محمد ابن القاسم القندوسي . أصله من القنادسة وقد عرف بنفسه في تأليف له سماه: "التلوين في التمكين في مطلع الصلاة على صاحب الوحي المبين (4). وادعى أن أجداده في الأصل من قبيلة الأوس بالمدينة المنورة وهذا النسب هو من جملة مكاشفاته حسبما ذكر. توفي يوم السبت 12 جمادى الأولى عام 1278/ نونبر 1861.

ب- الزوايا المحلية

يجب أولا أن نفرق بين زوايا محلية نشأت ونشرت طرقها في المنطقة وخارجها. وبين زوايا ليست من هذا المجال الجغرافي لكنها استطاعت أن تنشر فيه إشعاعها الروحي وتنشئ لها تمثيليات. وسنركز في معالجة هذه النقطة على الزوايا المحلية، وأشهرها: البوشيخية والكرازازية والقندوسية والتيجانية.

(1) يذكر عنه الكتاني أنه أخذ عن عدد من شيوخ العلم ووقف على تأليف له سماه: "مرتع القلوب من حضرة علام الغيوب"، وكان له حسب الكتاني "تلامذة وأتباع..." السلوة. 2، ص 15 مطبوع على الحجر.

(2) السلوة. ج 3. ص 20 .

(3) لم يذكر تاريخا بالتحديد بل اكتفى بالقول أن المترجم له توفي عام وفاة شيخه أبي القاسم الوزير. السلوة، نفس الجزء والصفحة.

(4) انتهى من تأليفه في 19 ربيه الأول عام 1269 هـ / دجنبر 1852، مخطوط خ. ع الرباط .

الزاوية البوشيخية

نسبة إلى الولي سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة الملقب بسيدي الشيخ (1) ولد حوالي عام 1533/940 (2)، درس بفجيج وهي أنئذ مقصد طلاب العلم من مختلف الجهات. استهوته الثقافة الروحية فاندرج في سلك التصوف فتتلمذ للشيخ محمد بن عبد الرحمان السهلي صاحب زاوية السهول (3)، وأخذ كذلك عن الشيخ أحمد بن موسى السملالي السوسي الشهير (4).

استقر بفجيج وأنشأ بها زاوية بقصر الحمام الفوقي فكثر أتباعه وداع صيته في المنطقة وجاءه الطلاب والمريدون من أماكن بعيدة لنيل البركة وأخذ الأوراد وصقل مداركهم الصوفية، نخص بالذكر منهم أحمد بن أبي محلي الساوري من بني عباس، الذي لازمه لمدة وصاهره تم انقلب ضده لأسباب لم يصرح بها، وألف فيه مجموعة من التآليف ملأها قدحاً وتشهيرا (5). فرد عليه شيخه المترجم له

(1) يتواتر أولاد سيدي الشيخ سلفا عن خلف أنهم ينتسبون إلى الصحابي أبي بكر الصديق. جاءوا من المشرق في تاريخ غير مضبوط، وتوقفوا لفترة بمصر ومنها إلى تونس، ومكثوا بها طويلا من عام 699-802 هـ. وحظوا فيها بعناية كبيرة من حكامها الحفصيين، ثم غادروها بقيادة شيخهم معمّر بن سليمان العليا ومعه خدامه وأتباعه قبائل الأكرنة (من الطرافي)، وأولاد ازياد والرزاينة، وقد توفي سليمان العليا هذا بالأربعاء التحتانية، أما حفيده السيد أبو سماحة فقد توفي بمصر وترك بالأربعاء التحتانية ولده سليمان، غادرها إلى فاس من أجل الدراسة ثم رجع إلى المنطقة واستقر بفجيج وبنى زاويته بقصر بني ونيف وانقطع فيها للعبادة إلى أن توفي ودفن وسط زاويته في تاريخ ما من القرن 10 هـ / 16 م.
أنظر: Rinn, marabouts, P. 350 وكذلك. Houari Touati, op-cit. p. 204

(2) حسبما يستخلص من مخطوط "مناقب الشيخ سيدي عبد القادر..." لمؤلفه الفقيه أحمد بن أبي بكر السكوني جمع فيه أخبار الشيخ عبد القادر سيدي الشيخ وكراماته. أنظر Houari Touati, Ibid .

(3) توجد على مقربة من بوذنيب.

.(4) Houari Touati, op-cit

(5) منها: منجنيق الصخور، والإصليت الخريت... الخ.

بقصيدته التائية المسماة الياقوتة في التصوف (1). ولم تكن علاقة الشيخ عبد القادر سيدي الشيخ طيبة مع علماء وفقهاء فجيج، بل نشب بينه وبين بعضهم خلاف من مثل ما ينشأ في العادة بين أهل الظاهر والباطن. فعلى قول ابن أبي محلي كانت علاقة الشيخ متوترة مع العلامة الأصولي أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار المعاصر له ومع غيره من علماء البلد، في حين دافع عنه وأخلص له فقهاء فجيجيون آخرون ميالون لعلم الباطن، كما أخذه ومارسه الشيخ عبد القادر. منهم على سبيل المثال أحمد بن أبي بكر السكوني صاحب تأليف المناقب سابق الذكر.

وما عدا قصيدة "الياقوتة" وقصيدة ثانية ترتل في الحضرة أثناء اجتماع مريدي هذه الطريقة، لم يسجل للشيخ عبد القادر أي تأليف آخر عدا رسالة جوابية مطولة تنسب إليه أرسلها إلى السلطان زيدان بن أحمد المنصور السعدي، تتعلق بالسؤال عن تفصيل "تفصيل الأصل والفصل والكيفية والحال والوفاء والعهد بالمقال والفعال" (2). وهي هموم تندرج في مدارج العلم الصوفي. هل هي انشغالات صادقة يقصد بها السلطان ملأ فراغه الروحي في وقت بدأت فيه بوادر الأزمة السياسية تلوح في الأفق بعد وفاة أحمد المنصور؟ . أم أن السلطان زيدان كان يرمي من وراء رسالته هاته إلى امتحان الشيخ عبد القادر واختبار طريقته، بعد ما

(1) أوردها أحمد بن أبي بكر السكوني في "مناقبه"
أنظر كذلك: J.Berque: les Oulemas fondateurs, insurges du Maghreb, Sindibad, Paris, 1981،
وكذلك عبد المجيد القدوري في بحثه لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث، حول تحقيق ودراسة عن الإصليت.
وهذه القصيدة "الباقوتة" يشرح فيها الشيخ عبد القادر سيدي الشيخ تجربته الصوفية على النهج الشادلي تبعا للكتاب والسنة.
(2) مضمون أسئلة السلطان زيدان كما وردت في الرسالة. وثيقة خاصة.

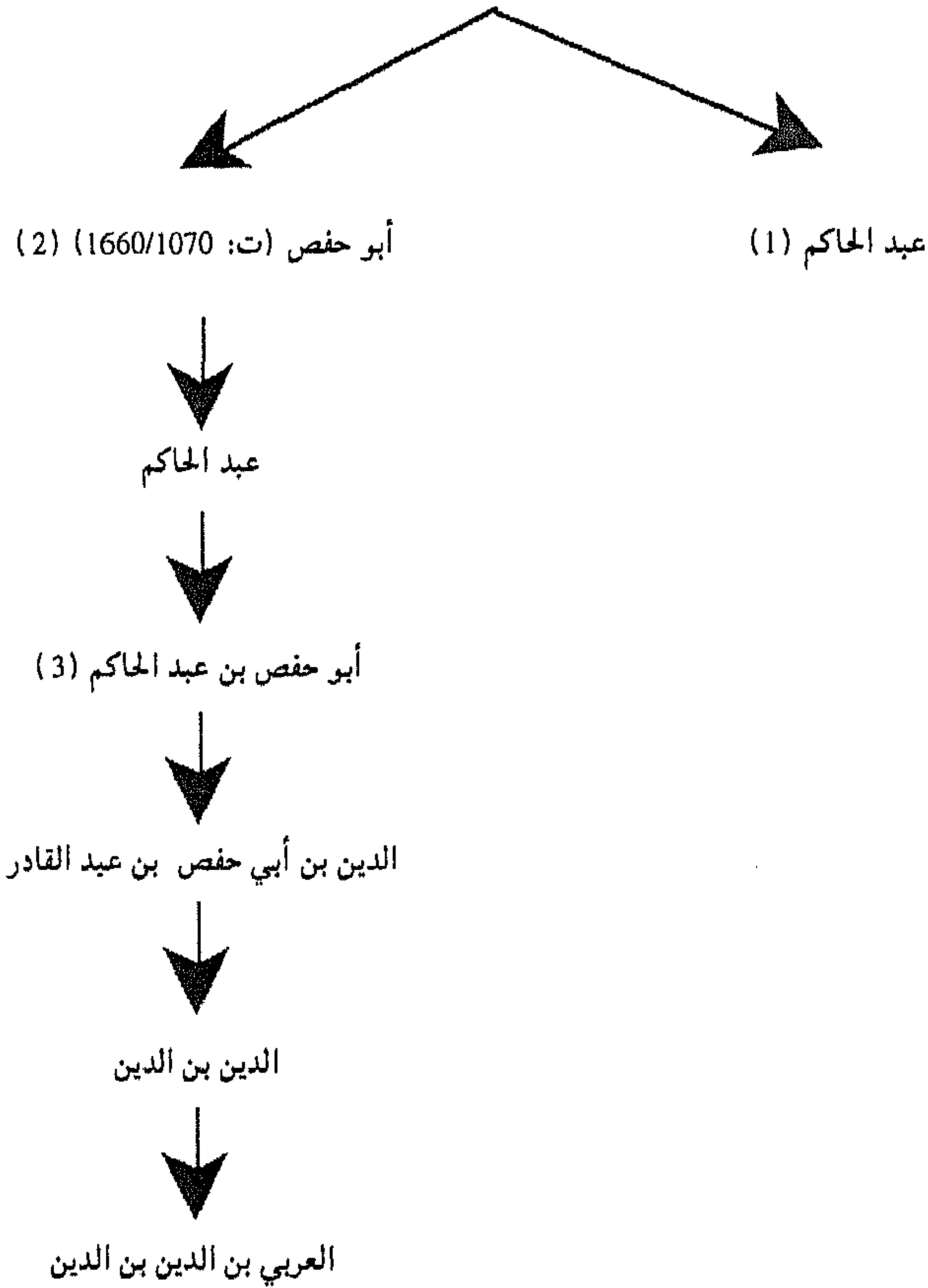
شاع أمره وانتشر في الآفاق، وبالأخص في منطقة المغرب الشرقي والغرب الجزائري بكامله. إذ يصفه أحدهم في تقييد با "الشيخ الأجل القطب الأكمل تاج الأصفياء وسلطان الأولياء وإمام أهل التمكين" (1). ويذكر كتاب "المناقب" أن الشيخ عبد القادر كان أيضا رجلا محاربا. فقد شارك بجانب المجاهدين الجزائريين في الحرب ضد الإسبان لتحرير وهران (2).

وكان الشيخ عبد القادر كثير الترحال انطلاقا من مستقره بفجيج إلى غيره من قصور الجنوب وزاوية شيخه السهلي ثم إلى نواحي البيض جنوبا. ومنه إلى الشمال بدءاً ببلاد بني يزناسن ووجدة إلى تلمسان ووهران ونواحيها (3). وقد غادر فجيج بصفة نهائية ليستقر في الشلالة الظهرانية إلى أن وافاه الأجل بين كراكدة وروبا شرق جبال القصور يوم الجمعة ثاني جمادى الثانية عام 1025 هـ / 1616 عن عمر يناهز 85 سنة ودفن بالبَيِّض الذي سمي بعد ذلك بالْبَيِّض سيدي الشيخ.

(1) تقييد خاص غير مؤرخ، لم يرد فيه اسم صاحبه.

(2) Hourari, op-cit, p. 198

(3) Ibid, p. 205



(1) ترك ستة عشر ولدا آخرين لم يشتهروا مثل الأولين أعلاه.

(2) ذكر العياشي في رحلته أن أبا حفص كان كثير الحج ورعا صالحا. وقد حج معه عام 1059 وعام 1654/1065 ماء الموائد، المطبعة الحجرية، ج. 1، ص. 43 .

(3) ترك الزاوية لعمِّه الدين بن أبي حفص بن عبد القادر ثم هاجر إلى المشرق وتوفي بالقاهرة. أنظر: Rinn, p. 349

الزاوية الكرزازية

أسسها الشيخ سيدي أحمد بن موسى بن خليفة بن محمد الحسني الكرزازي (1)، حيث يرفع نسبه إلى الولي الكبير عبد السلام بن مشيش. ولد بكرزاز أحد القصور الصحراوية جنوب بني عباس على خط وادي الساورة حوالي عام 907-98 هـ (2)، وتوفي عام 1016-1017 هـ (3) عن سن تناهز 108 سنة بعد حياة كرس جلها للعبادة والتربية الدينية. أخذ عن الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الراشدي الملياني وعن تلميذه الشيخ عبد الرحمان السهلي. وتتحدث الرواية المناقبية (4) عن رؤيا ظهرت للشيخ أحمد بن موسى في إحدى الليالي منح فيها السر، وأذن له بإعطاء الذكر لمن يتلقاه منه وفق الطريقة الشادلية وبناء رباط للعبادة. وبعد وفاته تولى خلفه الشيخ محمد تسيير أمور الزاوية كما هي عادة معظم مؤسسي الزوايا والطرق الصوفية، إذ ينتقل سر الطريقة ورئاسة الزاوية وراثيا بالتتابع بين الأبناء والأحفاد، ويتداولها الإخوة بينهما في حالة عجز الابن البكر عن إسناد الرئاسة لولده من صلبه.

وبيدنا مصدران لسلسلة الأشياخ الكرزازيين، أحدهما تقييد مخطوط (5)، وثانيهما مؤلف الضابط "رين" (Rinn) (6) وبينهما اختلاف كبير. فإذا كان ما

(1) اسمه السلالي الكامل: أحمد بن موسى بن خليفة بن موسى بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أحمد بن عبد السلام بن مشيش. أنظر محمد مرزاق، محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة، ص. 61 .

(2) محمد بن محمد الكرزازي في"المناقب المعزبية في ماثر الأشياخ الكرزازية" يجعل ولادته عام 1492/898 أنظر محمد مرزاق. المرجع السابق.

(3) أحد التقاييد الخاصة يجعل وفاته عام 1013 هـ / 1604 .

(4) حسبما نقله "Rinn" في Marabouts et Khouan, p. 342

(5) ورقة مخطوطة توجد بحوزتنا.

(6) مرجع سابق.

نقله "رين" من مصدر لم يفصح عنه، يشوبه الاضطراب والتناقض (1) فإن التقييد المخطوط على المعكس من ذلك أكثر انسجاما بما أورده من تاريخ وفيات شيوخ الزاوية المتعاقبين، رغم ما به من ثغرات قليلة. الشيء الذي جعلنا نعتمده كأساس مع مقارنة مضمونه بما ورد عند "رين" (2).

وتتشكل سلسلة الأشياخ الكرزازيين اعتمادا على المصدرين كالتالي:

أحمد بن موسى (الولي المؤسس) ت. عام 1016/1313 هـ) (3)



محمد بن أحمد بن موسى (ت. عام ؟)



عبد الرحمان بن محمد الملقب ببوفلجة (ت عام 1114 هـ / 1702 م) (4)



محمد بن عبد الرحمن (ت عام 1136 هـ / 1723-24 م).



محمد بن محمد (ت. 1150 هـ / 1737-38 م)

(1) يبدو أن "رين" (Rinn) أخذ أسماء سلسلة الأشياخ الكرزازيين عن طريق الرواية الشفوية من دون أن يقوم بغربلتها وتصحيحها بالمقارنة بين مختلف أقوال مخبريه.

(2) خصص أبو عبد الله محمد بن محمد الكرزازي تأليفا تناول تراجم أشياخ الزاوية الكرزازية وكراماتهم سماه "المناقيب المعزية" سبق ذكره. هو الآن في ملكية أحدهم بمدينة وجدة. ذكره محمد مرزاق في بحثه السابق الذكر.

(3) حسب "رين" (Rinn) في المرجع السابق، ص. 345 .

(4) يقول عنه اليعقوبي صاحب "فتح المنان" الولي الأشهر والكبريت الأحمر الشيخ عبد الرحمان الكرزازي" نقل عنه ذلك، محمد المصطفى البشير القندوسي في مؤلفه ؛طهارة الأنفاس.." مخطوط . خ. ع. الرباط .

لكبير بن محمد (ت 1177 هـ / 1763-64 م)



محمد بن لكبير (ت 1183 هـ / 1769-70 م)



علي بن محمد (ت. 1194 هـ / 1780 م)



محمد بن عبد الله (ت 1210 هـ / 1795-96 م)



عبد الله بن (؟) (ت 1235 هـ / 1819-20 م)



محمد بن علي (ت. 18 ربيع الأول 1288 هـ / يونيو 1871 م)



لكبير بن محمد (ت. 1297 هـ / 1871-82 م)



أحمد بن لكبير (تولى مشيخة الزاوية في 6 شعبان 1297 هـ / يوليو 1880م)



أبو فلجة بن محمد بن محمد (كان على رأس الزاوية عام 1317 هـ / 1899-1900 م) (2)

(1) وردت وفاته عند :رين" في عام 1881 وهذا أحد التناقض الحاصل بين المصدرين "رين" ص. 348 .
(2) ورد اسمه ذيل رسالة بعث بها إلى السلطان مولاي عبد العزيز باسم "المرابط سيدي أبو فلجة (كذا) بن سيدي محمد بن محمد الكرزازي" مؤرخة في 13 ذي الحجة عام 1317 هـ /14 أبريل 1900 مديرية. و. م. ملف الصحراء الشرقية.

أسسها الولي محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي زيان القندوسي. يصل نسبه حسبما دونت كتب المناقب إلى الولي المشهور أبي عبد الله محمد بن عجال الغزواني (1). ولد بقرية بالتحتانية من قصور بني كومي جنوب قصر تاغيت على وادي زوزفانة، حيث توفي والداه (2) وهو صغير السن. خرج من بلدته قاصدا سجلماسة (تافيلالت) لقراءة القرآن وما سماه اليعقوبي "العلم الشريف" (3)، وليس له من زاد عدا 40 موزونة محلية (4) تسمى "الفرفورية". استقر بسجلماسة عدة سنين (5) لازم فيها شيخه مبارك ابن عزي العنبري، فحفظ القرآن ودرس "العلم الشريف" على يده ثم انتقل إلى فاس إثر وفاة شيخه العنبري ومكث بها ثماني سنين نزل خلالها مدرسة سيدي مصباح التي تفرغ فيها لدراسة "العلم الشريف الظاهر والباطن" (6) وغيرها من العلوم الرائجة آنذاك بالمدينة، ثم درس في جامع القرويين على عدد من العلماء المشهورين في وقته منهم: محمد بن عبد القادر الفاسي وعبد السلام جسوس وأحمد بن الحاج. وارتبط مع البعض الآخر

---

(1) من أكابر أولياء مراكش، نعته ابن عسكر في الدوحة ب"شيخ المشايخ العارف بجلال الله... عقد الأولياء وواسطة سلكه "أصله من قبيلة غزوان العربية. عاصر السلطان الوطاسي محمد الشيخ وقد سجنه بفاس خوفا مما ينجم من خطر على ملكه بعدما أشيع عنه من كرامات، فذاع صيته بين الناس، ثم أطلق سراحه ورحل إلى مراكش واستقر بها إلى أن توفي عام 935 هـ / 1528 .
أنظر ترجمته في دوحة الناشر. ص 70-71 المطبعة الحجرية. وفي النسخة المطبوعة الصادرة عن دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1٩٦٩، ص 96. تحقيق محمد حجي.

(2) محمد المصطفى البشير القندوسي : طهارة الأنفاس، نقلا عن فتح المنان لليعقوبي، وكذلك أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي، حـ 1، ص. 512 .

(3) فتح المنان.

(4) صرفها ابن أبي زيان ب 4 موزونات رشيدية. فتح المنان.

(5) عندما سأل اليعقوبي أبي زيان عن عدد هذه السنين أجابه "بأنه ترك أناسا صغارا في بلده ووجدهم بأولادهم ولم يثبت على العدد" لكن أبي زيان قبل رجوعه إلى بلدته أقام بفاس ثماني سنوات إضافة لما مكثه في سجلماسة. فتح المنان.

(6) فتح المنان.

بالصحبة والمذاكرة والمراسلة كالعلامة محمد المسناوي (1) والحسن بن رحال ومحمد بن زكري ومحمد ميارة. وأكثر مذاكراته معهم في علوم التفسير والحديث والتصوف (2). وكان اليعقوبي والتازي من تلاميذه الملازمين له، وسمعا منه فصولا من حياته مباشرة من غير وسيط، قد أجمعا في مؤلفيهما (3) على خروجه من فاس فارا بنفسه، خوفا ولا شك من بطش حاكمها لما بدأت تظهر عليه بعض كرامات المتصوفين :فتح الله عليه" (4)، وأخذ الناس يتحدثون بها مما رمز له اليعقوبي با"الخير والصلاح" (5). فشاع ذكره في المدينة. ونحن نعلم أن سياسة السلطان إسماعيل كانت مناهضة للمتصوفة بإطلاق، وخاصة من تظهر عليهم خوارق العادات تغري الناس بالانجذاب إليهم والانبهار بقدراتهم غير العادية.

ثم استوطن محمد بن أبي زيان القنادسة على بعد 25 كلم جنوب بشار مباشرة بعد فراره من فاس (6). وبهذا المكان ستبدأ مرحلة جديدة من حياته، فكبر

(1) ذكر اليعقوبي أن المسناوي كان "يثني عليه خيرا (أي على أبي زيان)... وكان لا يقطع رسائله عليه إلى أن توفي".

(2) طهارة الأنفاس.

(3) فتح المنان، ومنهل الظمآن. استنادا على النص الذي اقتبسه المصطفى القندوسي من المصدرين في تأليفه سابق الذكر . طهارة الأنفاس).

(4) اليعقوبي، فتح المنان.

(5) نفسه.

(6) اتفق على ذلك كل من اليعقوبي والتازي، وهذا يخالف ما ادعاه "رين" في المرجع السابق من أن أبي زيان انتقل مباشرة من تافيلالت إلى الحج وهناك بمكة ظهرت عليه الكرامات وعند رجوعه من الحج توقف عند قبيلة :ذوي منيع" في وطنها بمنطقة وادي الساورة وكير في المكان المسمى الآن بالقنادسة، الذي كان حسب "رين" أرض خلاء. أنظر: Marabouts et Khouans, p 409

عدد زواره مع توالي كراماته "ظهر عليه فتوح العارفين ومقام الزاهدين" (1)، وذاع خبره بين سكان المنطقة وخارجها وكان قد تفرغ في البداية للعبادة والخلوة في الأودية والجبال المحيطة ببشار (2) قبل بناء زاويته ومسجدها بالقنادسة. ويظهر أن هذه الأخيرة كانت مدشرا صغيرا قبل قدوم محمد بن أبي زيان واستقراره، بها، تم تطورت إلى قصر صار يكبر مع توافد الزائرين والواردين للتبرك بالشيخ وأخذ الورد، أو بقصد الإقامة المؤقتة أو الدائمة من أجل الدراسة والجوار (3)، وعاصر الشيخ محمد بن أبي زيان عددا من مشاهير المتصوفة كأحمد بن ناصر الدرعي شيخ الزاوية الناصرية، ومحمد العياشي دفين مصر، وعبد الرحمان الكرزازي وأحمد الحبيب اللمطي رفيقه في الدراسة بفاس. وأجمع كلهم بالثناء على شخص أبي زيان والدعوة لزيارته لحسن أخلاقه وزهده وتقشفه في الحياة وتقديرا لعظم ما فتح الله عليه، حسبما ورد في المصادر الزيانية وخاصة منها مؤلفي فتح المنان ومنهل الظمآن.

وباستثناء ما حفلت به كتب المناقب المهتمة بحياة محمد بن أبي زيان من الكرامات الخارقة، فإنه عاش حياة عادية كبقية الناس. فقد تزوج عدة مرات (4) وأنجب أولادا وذهب إلى الحج، واكتفى في مسكنه وملبسه وطعامه بالبسيط وأقل

---

(1) علي التازي، منهل الظمآن. نسخة مخطوطة بالخزانة الصبيحية بسلا رقم: 61 .

(2) المصطفى القندوسي، طهارة الأنفاس.

(3) اليعقوبي، مصدر ساسبق.

(4) تزوج أول مرة بالسيدة أم كلثوم، وقد تكون من قبائل ذوي منيع وأنجب معها بنين وبنات وعندما توفيت عام 1130/1717-18 تزوج بامرأة أخرى من آل عبد الجبار الفجيجي من قصر المعيز. أنظر طهارة الأنفاس نقلا عن منهل الظمآن.

منه أحيانا. فلم يكن يهتم بلذائذ الطعام ولا بفاخر الثياب (1). وكان يعين أهل بيته في "قبض صبي أو كنس دار ودخول حطب ودخول أواني الضيوف وباقي الطعام على رأسه للزائرين" (2). وتوفي الشيخ محمد بن أبي زيان في 11 رمضان عصر يوم الخميس عام 1145 هـ / 24 فبراير 1733 (3). وترك وصية خلافته على الزاوية لولده محمد الملقب بالأعرج (4) جاء فيها: "... عليكم بخليفتي وخليفة السر من بعدي ولدي سيدي محمد فإن الصالحين كلهم قد اتفقوا عليه..." (5). وهذه الوصية كانت تجدد على نفس الوثيرة تقريبا وتحرص على تأكيد واستمرار ثلاثة ثوابت أساسية: بقاء مشيخة الزاوية ورئاستها في سلالة الولي المؤسس، والمحافظة على سر الطريقة وتلقين الورد كما ورثه متولي المشيخة ونقله لخلفه، ثم الإشراف على ثروة الزاوية وصرف عائداتها كما جرت العادة في إطعام الطعام وصلة الأقارب وفي مختلف حاجيات الزاوية. وفيما يلي سلسلة المشايخ المتعاقبين على رئاسة الزاوية القندوسية من نسل محمد بن أبي زيان، اعتمادا على طهارة الأنفاس، بعد حذفنا مع ما وقع فيه من التباس.

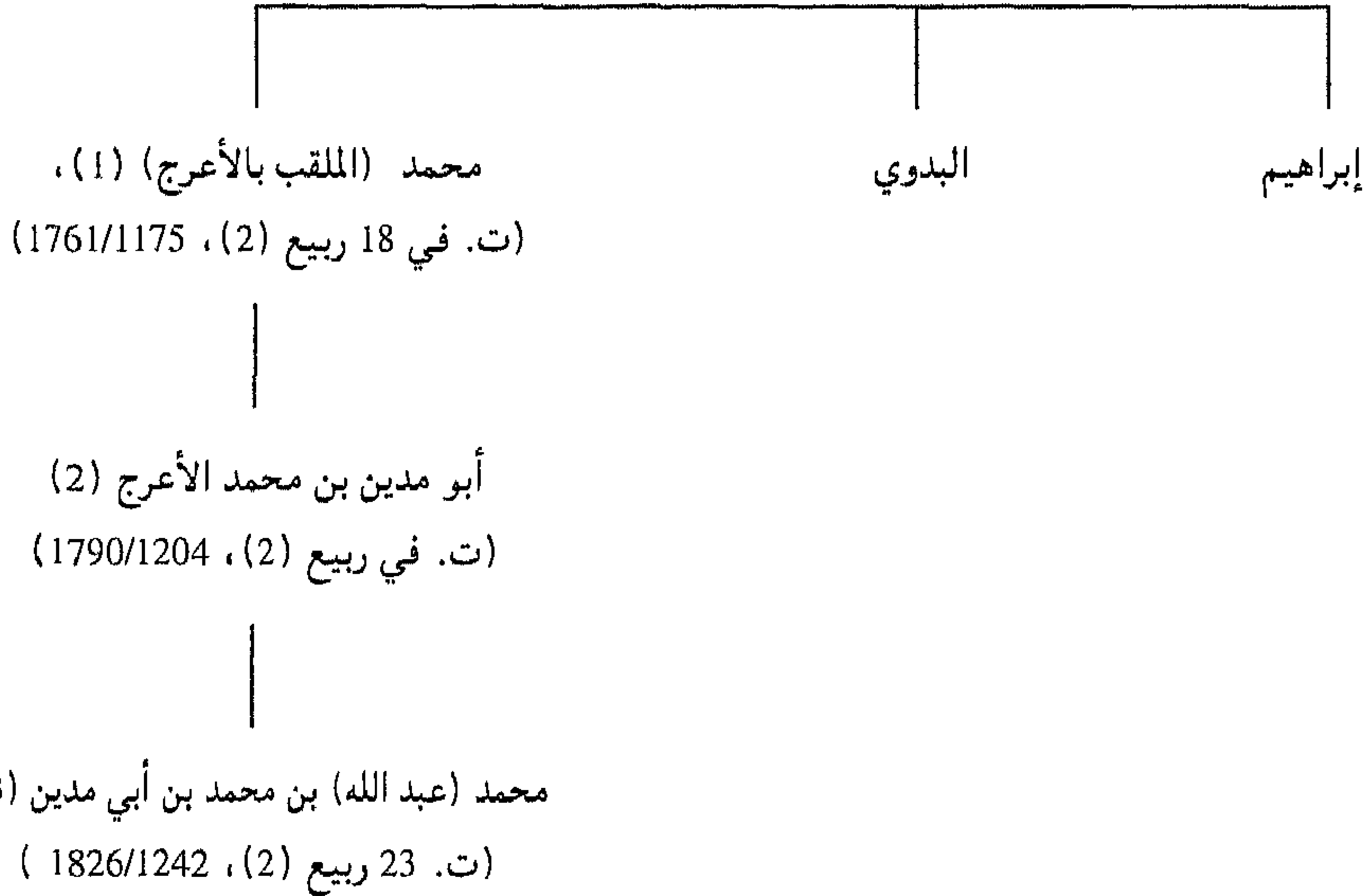
(1) ذكر اليعقوبي في فتح المنان (نقل في طهارة الأنفاس) أن أكثر طعامه التمر والبقول وأوراق الشجر، وخاصة منها نبات "أرماس" وهو نبات يكبر في شعاب الأودية وأحواض المنطقة، أوراقه صغيرة أقل من حجم النعناع طعمه مالح ولذيذ بعض الشيء.

(2) مصطفى القندوسي في طهارة الأنفاس نقلا عن فتح المنان.

(3) نفسه.

(4) ترك الشيخ محمد بن أبي زيان ثلاثة أولاد منهم: محمد الملقب بالأعرج، وأحمد البدوي، وعبد الوهاب، وهو أكبرهم سنا. ورد ذكرهم عند علي النازي في منهال الظمآن.

(5) اليعقوبي في فتح المنان نقله صاحب طهارة الأنفاس.



(1) في عهد مشيخته كثرت مداخيل الزاوية فوظف أموالها في شراء عدد من الأصول في أماكن عديدة، أنظر: "طهارة الأنفاس" ولقد وقع صاحب طهارة الأنفاس في خطأ وصية الأعرج الأصليـــة وجعلها في 23 محرم عـــام 1196، مع أن محمد الأعرج كان قد توفي قبل ذلك بنحو 21 عاما. والأرجح أنه اعتمد نسخة العقد لا الأصل.

(2) زادت ثروة الزاوية عما كانت عليه في عهد أبيه. جمع بين الوظيفة الدينية والتجارة. طهارة الأنفاس.

3- كتب اسمه صاحب طهارة الأنفاس هكذا: محمد بن عبد الله. وهذا لا يستقيم لأن محمدا هذا هو ابن أبي مدين ين محمد الأعرج فيكون إذن اسم (عبد الله) مجرد كنية له لا غير، ونفس الالتباس حصل له مع أبي مدين إذ لقبه عدة مرات بالأعرج في حين أن أباه محمد بن الولي محمد بن أبي زيان هو الملقب به. وقد نلتمس العذر للمؤلف لأنه اعتمد على ما يظهر – رغم عدم تصريحه بذلك– على عقود الوصايا من السلف للخلف فيكون بذلك نقل الغلط الذي وقع فيه نساخ هذه العقود من الأصل.

أبو مدين الثاني بن محمد بن أبي مدين (1)
(ت. 20 جمادى (2)، 1852/1268)

محمد المصطفى بن أبي مدين
(ت. 13 ربيع (1)، 1858/1275)

مبارك بن أبي مدين (2)
(ت. 1860/1276)

محمد عبد الله بن محمد المصطفى (3)
(ت 26 ذي الحجة 1312 يناير1894)

إبراهيم بن محمد بن محمد المصطفى (4) (ت. 1918/1336)

---

(1) كانت له عناية بالعلم ومجالسة العلماء. لم يسجل صاحب طهارة الأنفاس تاريخ وفاته. وقد عثرت على تاريخ وفاته في تقييد خاص كتبه: "محمد بن عبد المالك بن القلع (القلعي). وانتقلت مشيخة الزاوية من بعده لأخويه: مبارك ومحمد عبد الله بن محمد المصطفى.

(2) شغل منصب المشيخة أحد عشر شهرا فقط تم هاجر إلى أوطاط (الزيتون) الحاج إلى أن توفي بها في 11 جمادة 1284/ فبراير 1868.

(3) كان سنه حوالي 70 عاما، وقد التقى بالجنرال (WIMPFFEN) عند غزوه لمنطقة وادي الساورة عام 1870، أنظر : Documents, T.2, P. 628 .

(4) حسبما نقل محمد مرزاق في بحثه عن (GOUVION)، وكان مؤلف طهارة الأنفاس معاصرا لإبراهيم هذا. وورد في مؤلف Documents, T. 2, P. 628، أن السيد إبراهيم كان عره حوالي 40 عاما عندما تولى رياسة الزاوية.

الزاوية التيجانية

مؤسسها الشيخ الولي أبو العباس أحمد بن محمد المختار التيجاني (1). ينتمي للبيت الشريف، حيث يرفع بنسبه إلى الامام محمد النفس الزكية. ولد سنة 1737-38/1150 ببلدة عين ماضي (2). حفظ بها القرآن في سن السابعة وأخذ مبادئ العلوم عن الفقيه المبروك بن بوعافية المضاوي. ثم غادرها إلى فاس لطلب العلم عندما بلغ سن الواحدة والعشرين عام 1757-58/1171 ويظهر أنه في ذلك السن من الشباب المبكر لم يستطع أن يحدد هدفه منذ البداية خلال مقامه بفاس، فلم يأخذ من علمائها إلا "شيئا من الحديث" (3). بل بدا مضطربا حتى في اختيار طريقة من لقي من صلحاء وقته. وكان علم التصوف وزيارة الصلحاء. الأحياء منهم والأموات قد سيطر على جل اهتمامه، لذلك كان كثير التنقل لزيارتهم لنيل البركة أو أخذ الورد، وقد سافر في البداية إلى وزان، فلقي بها الشيخ مولاي الطيب الوزاني فأخذ عنه ورد الطريقة الوزانية واستأذنه في تلقينه. ولقي بفاس كلا من العربي ابن عبد الله معن الأندلسي "وتبرك به ودعا له" (4)، ومولاي أحمد الصقلي لكنه لم يأخذ عنه شيئا" (5). وأخذ ورد الطريقة القادرية بفاس، وانتقل منها إلى الطريقة الناصرية على يد محمد بن عبد الله التزاني بالريف، وتخلى عنها. وسلك نفس السبيل مع طريقة الولي أحمد الحبيب بن محمد الغماري السجلماسي الصديقي. وأبي العباس أحمد الطواش نزيل تازة (6) بالتتابع.

(1) أورد عبد الحي الكتاني في سلوة الأنفاس ترجمة وافية للشيخ أحمد التيجاني وسنعتمد عليها بالأساس أكثر مما عداها. السلوة، ج، ص 180.

(2) توجد في نهايات امتداد جبال العمور على بعد 70 كلم من الأغواط بالجزائر.

(3) سلوة الأنفاس.

(4) المصدر نفسه.

(5) نفسه.

(6) نفسه.

ثم رجع التيجاني إلى الصحراء قاصدا بلدة الأبيض فلازم بها ضريح الولي عبد القادر سيدي الشيخ لمدة خمس سنوات أمضاها في العبادة والقراءة والتدريس. ومنها إلى تلمسان لنفس الغرض حيث أخذ فيها نصيبا من علوم الحديث والتفسير وغيرها مع مداومة العبادة إلى أن "لاحت عليه بوارق الفتح" (1)، وذلك في أوائل عام 1767-68/1181. وقد استغرقت هذه المرحلة من حياته التعبدية حوالي عشر سنوات بدءا بحلوله بفاس عام 1757/1171. لكن أحمد التيجاني لم يكتف بذلك بل سيبدأ مرحلة أخرى من التنقلات ساقته هذه المرة نحو المشرق، فخرج من تلمسان عام 1186 هـ / 1772/73 (2) بنية الحج، واشتغل في طريقه بالبحث عن الصلحاء لزيارتهم والأخذ عنهم كدأبه السابق، وقد التقى في بلاد زواوة بأبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمان الأزهري وأخذ عنه الطريقة الخلوتية (3)، وبتونس الشيخ عبد الصمد الأحدي تم الشيخ محمد الكردي العراقي بمصر. وأخذ بالمدينة المنورة عن العلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المشهور بالسمان (4). وفي عام 1774/1188-75 وصل تلمسان إثر رجوعه من أداء فريضة الحج واستقر بها إلى عام 1777-78/1191 منهمكا في العبادة. تم انتقل في العام نفسه إلى فاس لزيارة ضريح مولاي إدريس ومجاورته. وتردد في الإقامة بين فاس وتلمسان لمدة خمس سنوات إلى عام 1781(5)-82/1196. ثم رجع إلى الصحراء وحل ببلدة

(1) حسب تعبير الكتاني في السلوة.

(2) السلوة.

(3) نفسه، قيل أن عبد الرحمان الأزهري الجزائري قد أخذ هذه الطريقة عن محمد بن سالم الحفناوي بالقاهرة. أنظر: سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي. ج. 1. ص. 514 .

(4) نفسه.

(5) لقد تكرر عدد "خمس سنوات" في حياة أحمد التيجاني التعليمية والتعبدية. هل هي صدفة؟ ألم يتعمد مدون حياة أحمد التيجاني المنقبية تسجيلها بهذا الإيقاع التتابعي لأجل ما لهذا العدد من "قدسية" فالإسلام بني على خمسة أركان. منها خمس صلوات في اليوم.. إلخ. على غرار عدد: 7 ٠سبع سماوات وسبع أراضي.. إلخ).

أبي سمغون ومنها إلى توات، فلقي بعض أوليائها كالشيخ محمد الفضيل فأفادهم واستفاد منهم بعض علوم وأسرار الصوفية ورجع إلى أبي سمغون في العام نفسه واستقر بها. فوقع له "الفتح الكبير والأكبر" حسب تعبير الكتاني مرتين. الأولى عام 1196 إثررجوعه من توات، والثانية عام 1212 هـ/ 1797-98، وقد ظهر له النبي خلالهما في المنام -حسب الكتاني- وأذن له مباشرة في تلقين الورد لمن يرغب فيه من الناس. واستقل من ذلك التاريخ بطريقته الخاصة (الطريقة التيجانية) فاشتهر ذكره وتزاحمت الوفود لزيارته. ومن أجله ضيق عليه من طرف باي وهران، فحاول معالجة أمره قبل أن يستفحل، خصوصا وقد سبق له أن أقام بمدينة تلمسان لفترات متعددة، مما سيسهل انتشار طريقته بين قاطنيها ومن حولهم في أطرافها، وأصبح له بذلك نفوذ قوي في المنطقة. والجدير بالذكر أن الشيخ أحمد التيجاني كان له موقف عدائي من الحكم التركي. فقام باي وهران محمد الكبير بحملته المشهورة إلى بعض قصور الجنوب الوهراني عام 1784/1199، وقصد بالذات عين ماضي موطن الشيخ أحمد التيجاني فاحتلها وفرض على ساكنتها غرامة كبيرة وضريبة سنوية. وفي عام 1201-1787/1202 قام ولده الباي عصمان بحملة مماثلة إلى نفس الجهة لاستخلاص الضرائب (1)، والحد من نفوذ الزاوية التيجانية. لذلك فضل أحمد التيجاني مغادرة المنطقة وأبا سمغون ونواحيها وهي بطبيعة الحال متاخمة لمجال حكم بايات وهران وبسكرة وتيطري. والتحق بمدينة فاس مجددا فوصلها بأهله وتلاميذه في 6 ربيع الثاني عام 1798/1213 (2)، واستوطنها إلى وفاته في 10 شوال عام 1815/1230 (3) ودفن بزاويته في حومة البليدة.

---

(1) Rinn, Marabouts et Khouan. P. 420.

(2) استقبله فيها السلطان وقربه إلى مجلسه العلمي وخصه بامتيازات عدة، حيث تنازل له عن أحد قصوره وأعطاه مالا وعبيدا.

(3) عند رين في 14 شوال 1230 موافق 19 شتنبر 1815. وذكر المؤلف أن الشيخ أحمد التيجاني زار مسقط رأسه عين ماضي مرة أخيرة عام 1813/1228 ومكث فيها أياماً قليلة ثم رجع إلى فاس.Marabouts.P.422

وقبــــــل وفـاته ترك وصية كفالة ابنيه: محمـــد الكبيـــر (ولد حوالي عام 1211/1796-97) ومحمد الصغير (ولد حوالي عام 1216/1801 إلى أحد رفقائه محمد بن أحمد التونسي. ومهمة تسيير الطريقة التيجانية في جميع جوانبها التنظيمية والروحية إلى أحد تلامذته الحاج علي ابن الحاج عيسى، وكان قبل ذلك مقدما لهذه الطريقة في "تيماسين" (1).

وعلى إثر الاضطرابات التي شهدتها مدينة فاس بين أهلها وجند الودايا بعد رحيل السلطان سليمان إلى مراكش عام 1235/1819-20، وشيوع خبر خلعه لنفسه من الملك، اجتمع أهل الحل والعقد بفاس مع نظرائهم برابرة زمور وآيت ادراسن فبايعوا المولى إبراهيم بن يزيد (2). ولم تكن علاقة التيجانيين طيبة آنذاك مع السلطان الجديد حسبما ذكره "رين" دون أن يوضح الأسباب (3). وتعرض منزل التيجاني للنهب والتخريب مما دفع رئيس الزاوية الموصى له الحاج علي بن الحاج عيسى بمغادرة فاس مصحوبا بولدي الشيخ التيجاني محمد الكبير ومحمد الصغير (4) إلى عين ماضي. واستقر الولدان بهذه البلدة التي سينتقل إليها مركز الزاوية التيجانية في المنطقة، فشرع محمد الكبير في تنظيم شؤون الزاوية، بينما رجع الحاج علي بن الحاج عيسى إلى "تيماسين" واحتفظ مع ذلك بوظيفة الموجه الروحي للطريقة، بل والموجه لسياسة الزاوية التيجانية في تعاملها مع العالم الخارجي. وقد كان قرار انسحاب الحاج علي إلى "تيماسين" بداية لإنشاء مركزين كبيرين للزاوية

---

(1) Rinn, Marabouts p. 422.

و"تيماسين" temaçin هذه واحة جنوب عمالة قسنطينة في الشرق الجزائري. ولعل المقصود بها :"تموشنت"

(2) الناصري، الاستقصاء. ج. 8، ص : 149-150 .

(3) أخطأ "رين" في تسمية السلطان إبراهيم بن يزيد، فسماه مولاي يزيد بن إبراهيم، ص 422 .

(4) كان الكفيل محمد بن أحمد التونسي، قد توفي بعد قليل من وفاة شيخه أحمد التيجاني.

أنظر: Rinn, Marabouts, p. 423

التيجانية في منطقة الجنوب. الأول بعين ماضي ورثه أبناء وأحفاد مؤسس الطريق الشيخ أحمد التيجاني والثاني مقره ب"تيماسين" ورثه أبناء وأحفاد الحاج علي بن الحاج عيسى. ومع ذلك فقد انتقل التسيير العام للزاوية مرة أخرى إلى أبناء الحاج علي عند وفاة محمد الصغير بن أحمد التيجاني وترك ولديه أحمد والبشير صغيري السن لا يتجاوز كبيرهما (أحمد) آنذاك ثلاث سنوات (1).

أحمد التيجاني (ت عام 1815/1230)




محمد الكبير بن أحمد التيجاني (2)

الحاج علي بن الحاج عيسى
(ت عام 1844/1260-45)



محمد الصغير بن أحمد التيجاني (ت عام 1852/1268)



محمد العيد بن الحاج علي (ت عام 1865/1292-66)



محمد الصغير بن محمد العيد بن الحاج علي (3)
(تولى قيادة الزاوية في 19 فبراير عام 1866 / شوال 1292).

(1) Rinn, Ibid, p. 428

(2)أخذ عنه زمام أمور الزاوية أخوه محمد الصغير في حركة شبه انقلابية لم يبين "رين" متى حدث ذلك.

(3) اقتصر نفوذه على زاوية "تيماسين" وتوابعها في المناطق الشرقية من الجزائر ابتداءاً من الجزائر العاصمة إلى قسنطينة وما يواليها جنوبا وشرقا، بينما استقل أحمد بن محمد الصغير بن الشيخ أحمد التيجاني بشؤون الطريقة في الغرب الجزائري ومنطقة الجنوب الشرقي المغربي وكان عمره عند ولاية محمد الصغير بن محمد الصغير بن محمد الحاج علي لزاوية "تيماسين" لا يتجاوز 25 سنة.

2- الكرامة وولاية الولي

تحدث ابن خلدون في الفصل السابع عشر من مقدمته حول التصوف (1) من منظور العالم السني المعتدل الذي يتسم موقفه إزاءهم بكثير من المرونة حيث يزكي ما يصدر عنهم في ما ينعت "بالمكاشفات"، فيحيل معنى المكاشفة إلى تغليب جانب الروح على جانب الحس في السالك المريد عن طريق مجاهدة النفس بالزهد والتقشف وكثرة العبادة والذكر، وكلما كثف المريد من هذا السلوك وازدادت خلوته وابتعاده عن كل مشاغل الحياة ازداد نمو الجانب الروحي فيه، فترقى من حال إلى حال، إلى أن يحصل له الفتح الإلاهي "وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة" (2).

وإذا كان غالبية العلماء السنيين قد وقفوا إزاء الكثير من المتصوفة مواقف الريبة والشك والتشهير أحيانا، فإن ابن خلدون يتحدث عنهم تارة كفقيه سني لا يختلف كلامه عن كلام ابن تيمية فيهم، بل تكاد بعض الفقرات أن تكون نقلا عن ابن تيمية مع اختلاف في الصياغة. ونجده في فقرات أخرى يقترب من طروحات وصياغات أصحاب كتب المناقب عن سير شيوخهم المتصوفين، فيرد على من تحامل عليهم من العلماء السنيين في ما يقولونه وما يصدر عنهم من مكاشفات بأن هؤلاء غير محقين في ذلك. فيؤول كل ما يظهر عليهم ولو كان مبالغا فيه بأنه من قبيل "الوجدانيات"، وليس لمن يكتفي بطاقة الإحساس أن يفهم ما ينطقون به، لأن كلامهم وما يظهر عليهم من الأحوال غير العادية لا يقاس بدليل ولا ببرهان.

(1)المقدمة، الباب السادس، ص: 863-882، دار الكتاب اللبناني، بيروت. 1967 .

(2) نفسه. ص. 867 .

أما الإمام أحمد ابن تيمية (1)، فقد بقي مخلصا للاتجاه السني الحازم المناهض للتيار الصوفي المتطرف الذي لا يسير في اتجاه الإسلام السني، فقد وصف المتصوفة بأنهم "المجتهدون في طاعة الله" (2) وبأن الأولياء هم "المومنون المتقون" (3)، سواء كان أحدهم صوفيا أو فقيها أو عالما أو تاجرا أو جنديا أو صانعا أو مزارعا أو أميرا (4). وذكر أن مجاهدة النفس بالزهد والتقشف والابتعاد عن ملذات الحياة وكثرة العبادة ليست شيئا جديدا في الإسلام، بل سبق إليها الصحابة والتابعون، فلم يميزوا أنفسهم ولا ميزهم أحد بصفة ولا بلباس خرقة أو إدعاء خوارق (5)، وأن سلوك الصوفي في طريق المجاهدة والعبادة في قول ابن تيمية يشترط فيه التقوى والصدق وعدم التبجج والإدعاء، ويتفق ابن تيمية وابن خلدون في مسألة "المكاشفة" وكلاهما يفسرانها برياضة النفس وصقلها بالمجاهدة القاسية من جوع وعطش وسهر، وقد يستغرق ذلك وقتا طويلا أو قصيرا فتحصل لصاحبها مكاشفات أو فتوحات ربانية إن كان مريدا عابدا لله بالرياضة تقيا صادقا أو هي مكاشفات شيطانية، حسب تعبير ابن تيمية، لمن يكتفي بالرياضة النفسية من دون عبادة، لأن خوارق العادات حسب قوله، تحصل أيضا للكهان والسحرة من اليهود والنصارى والمجوس بمجاهدة النفس من غير عبادة (6) وفي

(1) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، ولد بحران (سوريا) عام 661 هـ / 1263م. فقيه حنبلي، وأحد الأعلام البارزين. توفي بدمشق عام 728 هـ / 1328، أنظر: الشيخ شفيق الكبي "فقه التصوف" لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية، تهذيب وتعليق، دار الفكر العربي بيروت الطبعة الأولى عام 1993 .

(2) كتاب التصوف ضمن مجموع فتاوي أحمد بن تيمية، المجلد، ص 18 ، طبع ونشر مكتبة المعارف بالرباط، بدون تاريخ الطبع.

(3) نفس المصدر، ص. : 22

(4) نفسه.

(5) ابن تيمية، المصدر نفسه، ص. 104 و ص. 213 .

(6) نفسه، ص 172، وص . 214 .

الجملة شدَّدَ ابن تيمية على القول بأن تعرض أقوال ومكاشفات المتصوفة على "الكتاب والسنة" فما وافقهما وجب قبوله وما خالفهما "كان مردودا وإن كان صاحبه من أولياء الله" (1).

لماذا هذه المقدمة حول مكاشفات المتصوفة وما يسمى بالكرامات؟ لقد أدرجنا بعض أفكار نموذجين من علماء السنة عن التصوف وما يظهر على رجاله من الأحوال، أو بالأحرى صورة لمواقف الفئة المتنورة في المجتمع العربي الإسلامي آنذاك المتمذهب في غالبيته بالمذهب السني، عن التصوف ورجاله، لنخلص إلى فحص العلاقة بين الولي ودرجة النبوة وسلطة السلطان من جهة. وعلاقة الولي بالمجتمع من جهة ثانية من خلال الكرامة وما تحمله من دلالات.

أ - الكرامة محاكاة وتحدي

تلعب الكرامة دورا مركزيا في حياة الولي، بل هي عنوان الولاية. ولتقدير أهمية هذا المطلب في حياة السالك المريد لكي يرقى لدرجة الولاية أن الشيخ أحمد التيجاني قضى خمسا وعشرين سنة في دراسة علم التصوف والعبادة، زار خلالها العديد من الأولياء أحياءا وأمواتا ليحصل له "الفتح الإلاهي" (2). وقد تنبه "السهروردي" إلى ما يحصل لبعض الأولياء من الإحباط في مانعته بانكسار القلب (3) الذي يحصل لهم خلال حياتهم التعبدية عندما يطول بهم الأمر لولوج مرحلة ظهور الكرامات، لأنها من أجل ثمرات المجاهدة والعبادة لتحقيق ذاتية الولي.

(1) أحمد بن تيمية، كتاب التصوف، ص 208. وقد ذهب الشاطبي في كتاب "الاعتصام" نفس المنحى بقوله: فكذلك أهل التصوف لابد في الاقتداء بالصوفي من عرض أقواله وأفعاله على حاكم يحكم عليها: هل هي من جملة ما يتخذ دينا أم لا (؟). والحكم هو الشرع". أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، الاعتصام ج. 2. ص 398. طبع ونشر دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ.
ألف الشاطبي تآليف كثيرة غير الاعتصام منها: الموافقات، المجالس، الافادات، والإنشادات، وغيرها.

(2) أنظر ما سبق ذكره عن الشيخ أحمد التيجاني.

(3) "السهروردي في عوارفه" أورده ابن تيمية في كتاب التصوف سابق الذكر، ص. 320 .

وعندما نتفحص كرامات الأولياء بإطلاق نجد الكثير منها يحاكي معجزات الأنبياء. فالشيخ العربي الدرقاوي يرى أن كرامة الولي هي "كرامة ومعجزة أيضا (...) أعجز بها غيره ممن أخلد إلى الشهوات" (1).

والشيخ محمد بن أبي زيان جمع في كراماته نماذج من خرق العادة، تحاكي بعض معجزات ثلاثة أنبياء هم بالتتابع: موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام. فقد حكى عنه تلميذاه: عبد الرحمان اليعقوبي في شرح المنان، وعلي التازي في منهل الظمآن عدة كرامات من هذا القبيل. منها أنه عبر وادي كَير أثناء فيضانه رفقة أحد أتباعه "علي الجومي" فصار "الماء ينفجر يمينا وشمالا" وخرجا منه سالمين دون ما أثر للماء في نعليهما (2). ونقل علي التازي على لسان شيخه محمد بن أبي زيان أنه تمكن من فك عقدة لسان صبي بربري أبكم، جاء به أهله إليه متوسلين "فناديته باسمه فرد علي بلسانه... وجعل يخاطبني وأخاطبه وعفاه الله من حينه" (3). ومن كراماته أيضا أن القنادسة ونواحيها مرت بها سنة عجفاء لم ينزل بها مطر قط فهرع إليه الناس يطلبون دعاءه ففعل، فلم يرد إليه يديه المرفوعتين إلى السماء إلا وهما مبلولتين بالماء "وكانت سنة عظيمة الخصب والرخاء" (4). أما أحد المريدين من البليدة بالجزائر فقد نظم قصيدة زجلية عام 1272/1855-56 م في أوصاف وكرامات شيخه أبي زيان جاء في أحد أبياتها أن الناقة جاءت إلى الشيخ وكلمته بلسانها (5).

(1) العسكري محمد بن أحمد أحمد "كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار" مخطوط. خ.ع. الرباط. ولنا أن نضع كلام أبي العباس محمد بن ناصر في نفس السياق عندما يقول: "ما من معجزة لنبي إلا ويصح أن تقع كرامة لولي حاشي ما استثنى كالصعود إلى السماء" رحلته الثانية إلى الحج عام 1211، مخطوط. خ. ع. الرباط.

(2) علي التازي. منهل الظمآن. نقله عنه، صاحب طهارة الأنفاس.

(3) نفسه.

(4) نفسه. ومن كراماته أيضا أن أحد رماة فاس كان مقيما انذاك بفجيج، شكا إليه عقم زوجته التي عاشرها ثمانية عشر عاما، فدعا له بالولادة، فولدت. منهل الظمآن.

(5) ختم نظمها بتاريخ 2 محرم 1272 / شتنبر 1855 أوردها محمد المصطفى القندوسي في"طهارة الأنفاس".

وعندما نتأمل هذه الكرمات - رغم أنها لا تختلف في شيء عن كرامات باقي الأولياء - نجدها مشحونة بالمبالغة، فلم تضع أي فاصل يباين بينها وبين معجزات الأنبياء. وهذا لا يستقيم مع ما أورده اليعقوبي نفسه في فتح المنان عن صفات شيخه محمد بن أبي زيان المتسمة بالورع "والتواضع والقناعة والعفة والصمت (...) وحفظ القلب (...) والخشوع والصدق ...." وهذه الصفات كانت تمنع بين من يتصف بها من الأولياء الورعين من التحدث بمكاشفاتهم أو إظهار شيء منها أمام الناس. بل لا يعيرونها كبير اهتمام حسبما يفهم من كلام ابن تيمية (1).

وما يزكي درجة المبالغة في هذه الكرامات علما بأن بعضها من نسج الخيال المبدع لبعض الرواة من المريدين، أن كلا من اليعقوبي والتازي الملازمين لشيخهما في حياته لفترة من الزمن، لم يذكرا كرامة واحدة من الكرامات السالف ذكرها شاهدا وقوعها بأعينهما. وتظهر محاكاة الأولياء للأنبياء حتى في الكيفية التي وضعت بها كتب المناقب من حيث التدوين والتوقيت. فالكرامات المدونة مصادرها شفوية في العادة ينقلها أصحابها من أفواه شيوخهم مباشرة أو من رواة آخرين، ولا يتم جمع هذه الكرامات في الكتب المنقبية إلا بعد وفاة الأولياء، تماما مثل ما حدث في تأليف كتب السيرة النبوية التي لم تدون إلا بعد وفاة الرسول. فهو إذاً خطاب من جنس خاص يراد به طبع صورة قدسية للولي في أذهان الناس. خطاب يتلاءم مع ثقافة العصر وأوضاعه السياسية والاجتماعية التي لم تتغير بشكل محسوس حتى أوائل القرن الحالي. فنجد الورتلاني على سبيل المثال في القرن 18 م / 12 هـ. يؤلف كتابا ينتصر فيه للصلحاء أورد فيه العديد من الكرامات التي لايصدقها

(1) فقه التصوف، ص 177 .

العقل من منظور عصرنا الحالي، لكنها تقابل بالتسليم وحسن الاعتقاد من غالبية مجتمع ذلك العصر، منها أن أحد الأولياء أمر الجبل بالانحناء فانكشفت له الكعبة (1). ولم يتورع الشيخ أحمد بن عبد السلام الوزاني رئيس الزاوية الوزانية عند مروره ببني ونيف قرب فجيج عام 1905/1323 عن كتابة رسالة إلى أتباع الزاوية الوزانية بقصر أولاد سليمان بفجيج يدعوهم لزيارته ببني ونيف قبل متابعة سفره إلى توات (2)، ويُطَمْئِنُ في رسالته من لم يتمكن منهم من رؤيته بقوله: "ساداتنا أن من رءا من رءانا إلى أحد عشر لم تمسه النار" (3). وانشغل الأولياء في كراماتهم بالنبي والسلطان، فالنبي مرجع الحقيقة الدينية اصطفاه الله من بين سائر ابشر، لذلك بقيت معجزاته مقياسا لقيمة كرامة الولي. أما السلطان فلأنه صاحب أعلى سلطة زمنية في المجتمع، فالولي يعبر في كراماته عن رغبته في الإفلات من سلطة الزمان والمكان ومن السلطة القهرية للحاكم أيّا كان، إذ هو في مجاهداته التعبدية وانغماسه في القدسي يحاول أن يجمع في شخصه بين قوة الخوارق التي أوتي بها الأنبياء وبين سلطة السلطان الدنيوي، بل سعى بعضهم إلى إظهار التفوق على السلطان نفسه، خصوصا وإنه يجمع في شخصه ميزتي الشرف والصلاح.

وقد لعب الأولياء دورا كبيرا في تمكين السعديين من الوصول إلى الحكم في مبتدئ نشوء دولتهم تم تحولت العلاقة بين الطرفين بعد حين من الزمن، من تعاون

(1) الورتلاني، الرحلة، أورده سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 485، 486 .

(2) سافر أحمد بن عبد السلام الوزاني إلى توات انطلاقا من وهران عبر القطار، في إطار المأمورية التي كلفه بها الفرنسيون لاستمالة سكان توات والجنوب الشرقي المغربي بصفة عامة للدخول في الحماية الفرنسية.

(3) الرسالة مؤرخة في 23 ربيع الثاني عام 1323 هـ / يونيو 1905، في ملكية صاحبها، تحمل طابع أحمد الوزاني. يريد هنا شيخ الزاوية الوزانية أن يتمثل بالرسول محمد ﷺ فيما ينسب له من الشفاعة، وفي إطار التشبه بالنبي، ادعى أحد السالكين أثناء تعبده في مسجد الزاوية السكونية بفجيج عام 1013 هـ / 1604 وأخذه الوجد "فغلب علي الحال فرأيت كأن رجلين أتياني فجلسا عندي فقال أحدهما للآخر شق صدره فشق صدري فنفث فيه ورشيه بشيء" ورقة منفردة من مخطوط يجهل عنوانه وصاحبه.

وشراكة إلى عداء وانفصام، بل صار السلطان السعدي يَمْتَحِنُ الأولياء باعتبارهم رعايا من درجة معينة يشك في إخلاصهم ويخاف افتتان الناس بهم. ولم تتبدل هذه العلاقة القائمة بين السلطان والأولياء في العهد العلوي، خاصة منهم أصحاب الزوايا، وقد تأرجحت ما بين التحدي أو التجاهل عند البعض، وبين المسالمة وتبادل المصالح عند البعض الآخر، وذلك تبعا للظروف السياسية وبعد المجال الجغرافي وشخصية السلاطين وشهرة الأولياء. فمن يقرأ كلا من الدوحة لابن عسكر، وملتقط الرحلة ليوسف بن عابد الفاسي يفاجئ بالعديد من المواقف التي تحدى فيها الأولياء عددا من السلاطين السعديين (1). وتتحدث المصادر عن توتر العلاقة بين السلطان إسماعيل ورئيس الزاوية الناصرية أبي العباس أحمد بن ناصر وقد يتعلق الأمر بامتناعه عن ذكر اسم السلطان والدعاء له في خطب الجمعة بمسجد الزاوية، مما دفع السلطان إسماعيل إلى استدعائه وتأخيره في الذهاب إلى الحج عام 1707/1119 (2). ويذكر الشيخ أحمد بن ناصر في مؤلف رحلته إلى الحج عام 1709/1121 أنه لما تلقى كتاب السلطان إسماعيل وهو بسجلماسة يتأهل للرحيل إلى الديار المقدسة عام 1707/1119، بالقدوم عليه إلى مكناس، لم يعر اهتمامه لطلب السلطان بل عزم على متابعة السفر إلى الحج، لولا أن أشار عليه بعض

---

(1) أورد ابن عسكر في الدوحة صورا من هذا التحدي، منها أن بعض الأولياء المشهورين بإطعام الطعام في زواياهم كان في مقدورهم أن يخرجوا للناس من أنواع الأطعمة والفواكه ما لا يوجد "في خزائن الملوك" نسخة مطبوعة على الحجر، ص 80-92 .

أما يوسف بن عابد الفاسي في "ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضر موت" فقد جعل أحد أولياء مكناس الشيخ عبد الله بن أحمد لا يعبأ بسلطة السلطان المريني - (عاصر الولي أبي سعيد وابنه عبد الحق)- بل قام بزجره وتحميله ما ألم بالناس من المظالم والقحط الشديد. ص 35-36 .

(2) الهشتوكي، "هدية الملك العلام"، وكذلك أحمد بن خالد الناصري في "الاستقصا" الذي أورد رواية للفقيه محمد بن إبراهيم المجاصي عن لقاء أبي العباس أحمد بن ناصر للسلطان إسماعيل في حضرته بمكناس ومصافحته باليد، بل خرج السلطان من هذا اللقاء يصيح في أصحابه بقوله: "زوروا سيدي أحمد بن ناصر يالناس" ج. 7، ص 112-113 .

أصحابه بمساعفة السلطان وتلبية طلبه بالقدوم عليه. فاستقبله السلطان في المسجد "وجلس يتكلم فتأذب وتودد" (1). وكان بعض العلماء بدورهم يتحدَّوْنَ السلاطين فينددون بتصرفاتهم إزاء المجتمع. خاصة ما يتعلق منها بالجبايات غير الشرعية وأنواع المظالم الأخرى. وهنا يلتقي دور العالم والولي في حماية المجتمع من شطط ذوي السلطة. وبطبيعة الحال فإن العالم والولي يعبران عنها كل من منطلقه الخاص، فالعالم تكون مناهضته لمظالم ممثلي السلطة صريحة ومباشرة، بينما يلتجئ الولي في غالب الأحيان إلى لغة الرموز والخوارق.

وكان بعض الأولياء وشيوخ الزوايا بوعي أو بغير وعي منهم يتشبهون بالسلاطين في عدد من أوجه الحياة السلطانية، وفي ذلك محاكاة وتحدي في آن معا. فابن محلي يتحدث عن خروج موكب غريمه الشيخ عبد القادر سيدي الشيخ في الواحة الفجيجية ويصور لنا المشهد وكأننا أمام موكب أمير "ترفع فوق رأسه مظلة بسراريب من الحرير والرمح على كتفه" (2).

وعندما تعرض ابن الأغواطي في رحلته لبلدة عين ماضي في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (1245/1829-30م)، ذكر أن حاكمها محمد الصغير ابن الولي أحمد التيجاني شيخ الزاوية التيجانية. كان بحوزته "حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنفود" (3). واستطاع أخوه محمد الكبير أن يجهز جيشا من عرب الناحية زحف به عام 1243/1826-28 م(4) إلى وهران بغية الاستيلاء على السلطة فيها (5). وهذا

(1) رحلة أحمد بن ناصر الدرعي.

(2) أبو محلي "منجنيق الصخور" مخطوط، خ. ع، الرباط .

(3) الحاج ابن الأغواطي "الرحلة" نشرها سعد الله في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج. 1، ص. 252 .

(4) أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي في مؤلفه: "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط" يؤرخ الحدث في عام 1242/1826-27م، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط،1991

(5) نفسه .

التشوف إلى السلطة وتحدي الأولياء لذوي السلطان في مجالهم الدنيوي تعدَّدَتْ صوره في المغرب أيضا، نكتفي بالإشارة منها إلى الزاوية الدلائية وصراعها مع السلاطين العلويين الأوائل. مع أن الأولياء وسلالة المرابطين يفترض فيهم انتهاج سلوك المسالمة والحياد وعدم الخوض في السياسة. وكان رؤساء الزوايا يتشبهون بالسلاطين في أمور أخرى ذات علاقة بتصريف شؤون الزاوية مثل: تعيين الخلفاء والمقدمين في المدن ومختلف نواحي البلاد تبعا للمدى الذي وصله إشعاع الزاوية. وللزاوية أتباع ومريدون، وتؤخذ "الزيارات" والهبات وهي (بمثابة جبايات). ولشيخ الزاوية عدد من العبيد (وصفان الملك)، كما أن أوامر الشيخ تنفذ من الأتباع بدون نقاش.

وقد أورد محمد المصطفى القندوسي في "طهارة الأنفاس" وصية محمد الأعرج ابن الولي محمد بن أبي زيان لولده أبي مدين بالخلافة على الزاوية، كتبت بأسلوب يشبه صيغة ولاية العهد "إني عهدت لولدي من بعدي أبي مدين أصلحه الله فهو الخليفة من بعدي والمتولي أمر الزاوية فلا ينازعه إلا ظالم متعد (...) فمن أطاعه فقد أطاع الله والرسول والأشياخ...." (1)، وفي رسالة محمد بن عبد الله شيخ الزاوية القندوسية إلى أهل بشار وأولاد جرير لقب نفسه بلقب سلطاني فهو: "الواثق بالله محمد بن عبد الله القندوسي" (2).

(1) مصدر سابق. نقلت هذه الوصية من الأصل بتاريخ 23 محرم عام 1196/1781-82 .

(2) كتب هذا اللقب بنصه أعلاه داخل طابع شيخ الزاوية، في الطرف الأيمن من الرسالة. وهذه الرسالة مغفلة من التاريخ في ملكية صاحبها.

ب- الولي والمجتمع

عند قراءة كرامات الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان الواردة في مؤلفه منهل الظمآن نجد أكثرها يتعلق بأمن الطرقات، وأعمال السرقة والنهب، فهي كرامات تستجيب لمشاغل سكان المنطقة وخاصة منهم المستقرين في القصور (1). وتستجيب أيضا لمشاغل الزاوية نفسها وزوارها، وللتجار والقوافل التجارية التي تستفيد الزاوية من عائداتها. وهاجس أمن الطرقات ومكافحة قطاع الطرق وأعمال السلب والنهب يحيلنا على ظاهرة اللصوصية، وهي من الشواغل الكبيرة التي اهتم بها الفقهاء المتصدرين للفتيا. فكتب النوازل مليئة بهذا النوع من اهتمامات المجتمع في كل بلدان شمال إفريقيا وخاصة منهم التجار والمستقرون في المدن. والمحافظة على أمن الطرقات أخذت كذلك حيزا كبيرا من اهتمامات السلط الحاكمة في كل هذه البلدان، طوال القرون قبل العهد الاستعماري، إذ حفظ الأمن وسلامة السابلة من أهم الأسس التعاقدية بين المجتمع والسلطان. فهل هي ظاهرة منتشرة بالخصوص في أطراف البلاد بسبب الفراغ الأمني الناتج عن عجز السلطة المركزية فرض سيطرتها على مجموع البلاد في فترات ضعفها؟.

هل هي ظاهرة مستديمة أم ظرفية ترتبط في الأساس بدورات الجفاف الموجعة؟

للإجابة على هذه الأسئلة لابد من القيام بدراسة واسعة ومركزة حول تاريخ اللصوصية وهذا ليس من شواغلنا في هذا البحث، لكننا نجيب مع ذلك أن كل هذه الأسباب تتداخل في ما بينها لإبراز هذه الظاهرة.

(1) يذكر الهواري التواتي في المرجع سابق الذكر أن الولي سيدي عبد القادر بن محمد سيدي الشيخ كانت جل كراماته منصبه على الماء بما يشكله من أهمية بالغة في حياة الناس بهذه المجالات الصحراوية الجافة.
أنظر: Houari Touati: Entre Dieu et les hommes lettrés saints..., . 207

وقد أورد علي التازي في منهل الظمآن ما وصفه بإحدى كرامات الشيخ محمد بن أبي زيان التي حضر وقائعها بنفسه. فقد وفد التازي لِزِيَّارَةِ شيخه ابن أبي زيان في زاويته بالقنادسة عام 1136/24-1723، "وكانت سنة جذب"، وعند رجوعه منها رفقة إدريس المنجرة وعدد من الزوار يرافقهم دليل الزاوية "الحاج العربي الشامي"، اعترض طريقهم جماعة من لصوص الأعراب ليلا، فلم ينجوا من إدايتهم حتى تعرفوا على وجود العربي الشامي بينهم لتأمين اسلامتهم، وعندما سئل اللصوص عن سبب قطعهم للسابلة أجابوا: بأن كل واحد منهم ينتمي لقبيلة، وأضافوا: "فقد أضرَّبِنا الجوع وخرجنا نقطع الطرق" (1). وهذه الوضعية تحدثت عنها عدة مصادر (2) وبينت أن المغرب شهد خلال سنوات 1133-1721/36-1724، فترة عصيبة من الجفاف والقحط نتج عنها مجاعة مهولة عمت كامل أرجاء المغرب وماتت من جرائها رقاب كثيرة (3).

إن للعوامل الطبيعية السلبية تأثير كبير على الأحوال المعيشية لساكنة المناطق الجنوبية الصحراوية، وهي تعاني أصلا من نقص في المجال الصالح للزراعة ومن غطاء نباتي ضعيف، يخضع وجوده لدورات مناخية يتوالى فيها بعض الأمطار وهيمنة الجفاف. وهذه الحالة تنعكس بتأثيراتها السلبية الشديدة على حياة كل من المستقرين والرحل على حد سواء، من ضيف في العيش، وهجرة وضياع. ومن أهم المصادر التي أشارت لظاهرة اللصوصية في هذه المجالات الصحراوية، ما كتبه

(1) علي التازي، منهل الظمآن.
(2) أنظر. محمد الأمين البزاز "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب" أطروحة دكتوراه الدولة، ص 35-39، وقد أورد في هذا الصدد عددا من المصادر منها: "رحلة الوافد" لعبد الله بن إبراهيم التاسافتي، و"نشر المثاني" للقادري، و"الضعيف" في تاريخ الدولة السعيدة وغيرها.
(3) القادري، نشر المثاني، ج. 3. ص . 253 .

أصحاب المؤلفات الحجية العابرين للطريق الصحراوي مثل: أبي سالم العياشي في أواسط القرن 11 هـ / 17 م وأبي العباس محمد بن ناصر الدرعي في أواخر القرن 12 هـ / 18 وبداية 13 هـ / 19 م.

والملاحظ أن هذه الحقبة شهدت عددا من المجاعات تعرض فيها الناس للضياع والموت بسبب الجفاف وانتشار الأوبئة. كما عرفت نفس الحقبة أزمات سياسية كبيرة وطويلة الأمة ناتجة أحيانا عن الصراع على السلطة (1). فقد أشار أبو مدين الصغير إلى عدد من الأماكن المخيفة في الطريق، تعرض فيها ركب الحجيج لهجمات اللصوص خلال حجته عام 1739-40/1152 فانطلاقا من وادي غريس، مرورا ببلاد فجيج وأبي سمغون وسيدي خالد بالجنوب التونسي، سرق اللصوص لِلْحُجَاج خلالها عددا من الأمتعة، منها في توزر:"خية الشيخ (...) وما اشتراه من دقيق وسمن وغيره" (2). وهذه الحوادث تتزامن مع فترة الأزمة السياسية في المغرب عقب وفاة السلطان إسماعيل (3). وتعرض أبو العباس محمد بن ناصر في حجته خلال أواخر 12 هـ / 18م، وبداية 13 هـ / 19 م، لنفس الحوادث (4).

(1) من ذلك فترة انتقال السلطة من السعديين إلى العلويين، وكذلك الفترة التي أعقبت وفاة السلطان إسماعيل.

(2) أبي مدين محمد الصغير الدرعي، الرحلة، كتبت عام 1740/1153 م.

(3) تعرض القادري في "نشر المثاني" لحالة مزرية عاشها سكان مدينة فاس وأحوازها ومدنا أخرى كمكناس وغيرها خلال عامي 1149-1737-36/1150، أثناء الصراع على السلطة بين محمد عربية وأخيه عبد الله بسبب ما كانت تقوم به القبائل المحيطة من قطع الطرقات وأعمال اللصوصية مع قلة الأمطار، فغلت الأسعار وقلت المواد الغذائية" وماتت بالضيعة رقاب كثيرة"، ج. 3، ص. 399-400.

(4) أبو العباس محمد بن ناصر، الرحلة الكبرى 1782/1197، والصغرى 1796/1211، مخطوطي، خ. خ، و خ.ع. الرباط .

وانتقد الورتلاني بشدة ما كان يلاقيه الحجاج من اعتداءات اللصوص بالضرب والسرقة في الحجاز، سواء القادمون منهم من الجزائرز أو من غيرها (1)، وهذا يفيد أن ظاهرة اللصوصية كانت عامة في كل المناطق الصحراوية في شمال إفريقيا والشرق العربي الخاضعة لظروف طبيعية وأمنية متردية مماثلة.

وكانت القبائل المسيطرة على مسالك طرق التجارة والمنافذ (الفجج) الرابطة بين السهول والجبال، وبالأخص منها المنافد المفضية إلى المجالات الصحراوية، تفرض ضريبة "الزطاطة" (2) (حق المرور) على كل القوافل العابرة لهذه المسالك لتصل إلى مقاصدها بسلام.

وقد ندد بالزطاطة أغلبية الفقهاء، باعتبارها عملا غير مشروع. وكانت تمارسها العديد من القبائل المتحكمة في معابر القوافل التجارية وقوافل الحج التي تعبر الطريق الصحراوي، فتتعرض لهجمات بالبارود تقوم بها فرقة أو عدة فرق من القبيلة، بقصد النهب والسرقة (3)، إن لم تؤد واجب المرور "الزطاطة".

وكان بعض لصوص القبائل لا يتورعون عن التعرض لمواشي الزاوية وقوافلها التجارية، أو التي تدخل في حمايتها كلما وجدوا إلى ذلك من سبيل، وهذه القوافل

(1) حسبما شاهده خلال حجاته الثلاثة: 1153 هـ / 1740، 1166 هـ 1752، 1179 هـ / 1765 م. الحسن بن محمد السعيد الورتلاني "الرحلة" لخص أفكارها سعد الله في "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج. 1، ص 187-197.

(2) راجع مقال عبد الأحد السبتي عن ظاهرة "الزطاطة" في:
A . Sebti: Insécurité et Figures de protection au XIX° siècle la “ztata” et son vocabulaire. In. La société civile au Maroc, C.M.E.R, Rabat 1992, pp. 47-69

(3) ركزت المؤلفات الحجية المشار إليها سابقا بالخصوص على قبائل السلالة وأولاد جلال في الصحراء الجزائرية الشرقية والتونسية، لما كانت تقوم به من قطع الطرقات وأعمال اللصوصية.

المحمية من الزاوية أو التي تساهم فيها قد لا تعادلها قوافل أخرى من نفس الحجم في المنطقة. لكن غضب شيخ الزاوية (الولي) سرعان ما يحل باللصوص فيذهب بأرواحهم أو ببعض حواسهم أو بأموالهم، حسبما نقرأ في منهل الظمآن لعلي التازي. وكمثال على ذلك أن الحاج أحمد البدوي ابن الشيخ محمد بن أبي زيان قدم يوما من غرب الجزائر بقطيع من غنم أهدي للزاوية، وعند اقترابه من القنادسة بمعية وصفان الزاوية، هاجمهم مجموعة من اللصوص، فارتدت رصاصة أحدهم عليه وفقأت عينه "فجاء إليهم وهو يتضرع ويبكي فقال له سيدي الحاج المذكور عليك بالشيخ فإنه هو الذي فعل بك ذلك" (1). ثم إن قوما من قبيلة الصباح "عرب السحرة" (2) تعرضوا لجماعة من زوار الزاوية القندوسية ف "سلطة الله على إبلهم الموت (...) وجاءوا إليه تائبين وردوا للفقراء ما نهبوا لهم" (3).

وفي نفس السياق تتحدث رواية شفوية بتفصيل عن حادث مماثل، تجتمع فيه كل العناصر الممكنة من زمن وقوع الحادثة ومكانها والأطراف المشاركة فيها. ويتعلق الأمر بقافلة تجارية لقبيلة "المهاية" قدمت من الجنوب (لعلها من توات) في تاريخ ما من أواسط القرن 11 هـ / 17 م، وعند اجتيازها للقصور الفجيجية ووصولها إلى تنية ابن سعيد شمال غرب الواحة، تعرضت لها فرقة من قبيلة العمور الذين كانوا يسيطرون على مخارج الجبال في هذه الناحية ويفرضون ضريبة "الزطاطة" على كل قافلة تخترق هذه الممرات. لكن المهاية لم يقبلوا بتأدية "الزطاطة" فاشتبك الطرفان في قتال بالبارود مات من جرائه ثلاثون فردا من

(1) منهل الظمآن.
(2) نفسه.
(3) نفس المصدر.

المهاية. فشكوا أمرهم للمرابط سيدي بن عيسى البوشيخي حفيد الولي سليمان بن أبي سماحة، فطلب من العمور كف إدايتهم عن المهاية وغيرهم من السابلة لكن العمور الذين كانوا وحدهم في المنطقة لا يقرون حرمة المرابطين من أولاد سيدي الشيخ وجده أبي سماحة، تجاهلوا طلب المرابط سيدي بن عيسى، فدعا على زعيمهم "عبو لكحل" بالهلاك وأمر المهاية بإعادة الكرة لقتال العمور، فانهزم هؤلاء وقتل زعيمهم ومن ذلك الحين -تقول الرواية الشفوية- خضع العمور لأولاد سيدي الشيخ وساروا يزورون أضرحة أجدادهم في كل من فجيج، وبني وينف، والبيض سيدي الشيخ، ويقدمون لهم الزيارات بانتظام (1).

ونظرا لما أصبح متداولا بين الناس من كرامات الأولياء صاروا يخافون سخطهم، ويعتقدون فيهم القدرة على الإداية والنفع، نظرا لصلاحهم ودعاويهم المستجابة. بل يعتقدون أن تلك البركة يرثها عنهم أبناؤهم وأحفادهم. وهذا الواقع كان يغذيه ما ترسخ في أذهان الناس من قيم الوعي الأسطوري (2) ويشترك في ذلك الاعتقاد كل من العامة والخاصة من بعض مثقفي ذلك العصر (الفقهاء). من ذلك أن الفقيه أحمد بن محمد الراشدي (عاش في منتصف القرن 13 هـ / 19) كتب رسالة إلى شيخ الزاوية الوزانية "الحاج العربي الوزاني" يطلب منه الدعاء لشفاء بصره، بل يترجاه أن يتفضل عليه برد الجواب "لتمس يدي ما مسته يدك فيكون لي الفخر بذلك" (3).

(1) نقلت مضمونها بتفصيل عن العربي الهلالي شفويا في صيف عام 1994، وهو بدوره نقلها عن أحد أفراد قبيلة العمور.

(2) حسب تعبير محمد عركون (أركون)، أنظر: الاستجواب الذي عقده مع جريدة المحرر على هامش ندوة ابن خلدون المنعقدة بكلية الآداب بالرباط في شهر 14-17 فبراير، عام 1979، جريدة المحرر الصادرة بتاريخ 25 فبراير 1979 .

(3) وثيقة خاصة غير مؤرخة.

وهذا فجيجي آخر من أحفاد العلامة عبد الجبار يراسل شيخ الزاوية الوزانية نفسها "الطيب بن محمد الوزاني" طالبا دعاءه لقضاء ما بذمته من الديون لعجزه عن ردها لأصحابها. "إني مهتم بذلك غاية ولابد لابد سيدي" (1). وبعث مرابط الزاوية الكرزازية رسالة تهديد إلى أهالي قصر الحمام بفجيج يعدهم بعقاب من الله يحل بهم إن لم يردوا متاعا سرق عندهم لأحد أحفاد الولي سيدي أحمد بن موسى الكرزازي، و"اعلموا أنه لا خير لكم في أكل متاعه" (2). وهذه الأمثلة تبين ما ترسب في نفوس الناس من الخوف من غضب أهل الله، فكانوا لا يستطيعون التمادي في عصيانهم أو تجاهل تدخلاتهم إذا ما دعت الضرورة لذلك.

3- انتشار نفوذ الزوايا والعلاقة بالاتباع

أ- نفوذ الزوايا بين الانتشار والانحسار

انتشرت في المنطقة فروع لجميع الطرق الدينية الكبرى في المغرب، إلى جانب فروع الطرق المحلية. ولا يوجد قصر (قرية) أو قبيلة خالية من أتباع هذه الطريقة أو تلك. وقد لعبت عدة عوامل في انتشار نفوذ الزوايا أو انحساره في المنطقة من بينها عامل التوسع الفرنسي ابتداء من أواسط القرن الماضي.

وكانت الزاوية البوشيخية تهيمن بنفوذها الديني على قسم كبير من سكان الجنوب الشرقي، في حياة مؤسسها الشيخ عبد القادر بن محمد بن أبي سماحة، أثناء مقامه بزاويته بفجيج وبعد انتقاله إلى قصر البيض. واستمر هذا النفوذ في رياسة أعقابه طيلة القرون الثلاثة الموالية بعد وفاته عام 1025 هـ / 1616 وقد ترك الشيخ عبد القادر بن محمد ثمانية عشر ولدا، وتكاثر أبناؤه وحفدته بعد وفاته

(1) وثيقة خاصة غير مؤرخة.
(2) وثيقة خاصة غير مؤرخة.

بنحو قرن أو يزيد، فأصبحوا قبيلا، وانقسم هذا القبيل إلى فرعين رئيسين تجمعوا حول سلالتي الحاج أبي حفص والحاج عبد الحاكم ابني الشيخ عبد القادر بن محمد سيدي الشيخ، وهما أبرز أبناءه اللذان خلفاه في رئاسة الزاوية من بعده، ثم ورثها عنهما، الأبناء والأحفاد، لكن رئاسة أولاد سيدي الشيخ والزاوية البوشيخية ستتمركز بالخصوص في أيدي سلالة الحاج أبي حفص، ويعني هذا تنامي نفوذ هذا الفرع ماديا ومعنويا، بما يحصل عليه من مداخيل الزاوية وهي كثيرة، وما يتبع ذلك من تراكم للرصيد الرمزي وسط القبائل والقصور في المنطقة. وهذه الوضعية لم يرض عنها فرع الحاج عبد الحاكم بطبيعة الحال، فابتدأ النقاش بين الفرعين حول مداخيل الزاوية والتناوب على الرياسة، تم تحول إلى صراع بالسلاح، استمر لفترة طويلة إلى أن توصل الطرفان في رياسة الحاج العربي (1) بن السيد الدين إلى اقتسام مداخيل الزاوية بين الفرعين عام 80-1766/1179 (2). لكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا بل رجع الفرعان للنزاع من جديد طيلة ما تبقى من القرن 18 م، وطيلة القرن 19. وأصبح لكل منهما زاويته الخاصة، زاوية الحاج الدين بن أبي حفص في قصر البَيِّضْ الشرقي (3). وزاوية الحاج عبد الحاكم في قصر البَيِّضْ الغربي الذي يضم كذلك الزاوية الأم وبداخلها ضريح الشيخ عبد القادر بن محمد.

ولم يشر الهشتوكي في رحلتيه إلى الحج أوائل القرن 18 م. إلى هذا النزاع عند حديثه عن بلاد البَيِّضْ، حيث لم يظهر ذلك النزاع يومئذ في علاقات الفرعين،

---

(1) الحاج العربي ين سَي، الحاج الدين بن الحاج بوحفص بن عبد القادر سيدي الشيخ.

(2) Rinn: Marabouts et Khouans. P..357

(3) بناه الحاج الدين بوحفص أنظرز: Rinn, p; 355

واكتفى بنقل صورة ما شاهده وسمعه عن أولاد سيدي الشيخ "وأهل البلد ومن حولها كلهم يسمعون كلام أولاد سيدي الشيخ ويمتثلون أمرهم ولهم في تلك النواحي كلها صيت عظيم وتخدمهم وتهديهم العرب والعجم" (1).

أما أبو العباس محمد بن ناصر الدرعي عند مروره في المنطقة إلى الحج في أواخر القرن 18 م، فقد كرر الشهادة نفسها لكنه أضاف عنصر النزاع بين الفرعين قائلا: "أولاد سيدي الشيخ (...) بهذه البلاد الشرقية لهم صيت (...) ولا يخلون غالبا من قتال وحروب بينهم ولهم عند العامة مع ذلك منزلة وحضوة يحترمونهم ويوقرونهم" (2). وقد انقسم أولاد سيدي الشيخ إلى شراقة وغرابة، وتحولوا من أصحاب زاوية دينية ذات أهداف تربوية واجتماعية إلى أصحاب الرياسة السياسية وقيادة المحاربين في ميادين القتال.

وإذا كان هذا التحول لم يمنع استمرار نفوذ أولاد سيدي الشيخ لدى ساكنة الجنوب الشرقي (3)، فإن هذه الهيمنة الروحية الموروثة ما فتئت أن تناقصت مع توالي النزاع بين الطرفين، إذ تعمق أكثر بعد توسع الفرنسيين في المنطقة، الذين استمالوا بعض الزعامات البوشيخية ضد البعض الآخر من أجل إفشال ثورتهم المعلنة عام 1864، فتعددت القيادات البوشيخية واختلفت الأهواء واستخدم الولاء الروحي لخدمة الأغراض الشخصية والزعامة الوقتية، وما كان هذا إلا ليقلل من

---

(1) الهشتوكي: هداية الملك العلام.

(2) الرحلة الكبرى.

(3) باعتبارهم سلالة الولي الشهير عبد القادر سيدي الشيخ. ولتأكيد استمرارية هذا النفوذ أنظر: Daumas. J: Le Sahara-Algérienne, 1845 وكذلك تقارير وكتابات الفرنسيين العسكريين والمدنيين على السواء العاملين في الجزائر خلال القرن الماضي. مثال ذلك تقرير عن حملة "Wimpffen" (جنرال) كتب في 24 ماي 1870. وأرسل إلى الحاكم العام في الجزائر، أرشيف فانسين.

نفوذهم السابق وسط سكان المنطقة، ويتزامن ذلك مع ذبول الطريقة البوشيخية وتحول كثير من البوشيخيين أنفسهم إلى طرق دينية أحرى كالقادرية والطيبية والدرقاوية والكرزازية وغيرها (1).

وقد حاول بوعمامة في أواخر القرن 19 م. أن يحيى ما اندرس من رسوم الطريقة البوشيخية ويعيدها إلى بريقها القديم، لكن محاولته كانت محدودة وانتهت بإخفاق حركته ضد الفرنسيين. ومما يدل على انحسار الطريقة البوشيخية وضعف نفوذ أولاد سيدي الشيخ بوجه عام لدى ساكنة المنطقة، أن علال بن الشيخ بوعمامة بعث برسالة إلى أحدهم يتحسر فيها على تراجع هذا النفوذ قائلا: "وأما أدو منيع (كذا) فإنهم لأسلافنا لا محالة ولكن الأمر لله كيف شاء فعل" (2).

أما بالنسبة للزاويتين القندوسية والكرزازية فقد انتشر نفوذهما في كل أرجاء المنطقة وشمل المستقرين في القصور والبدو الرحل، استنادا لشهرة الوليين المؤسسين: أحمد بن موسى الكرزازي، ومحمد بن أبي زيان القندوسي. ولا شك أن عامل المحلية الذي سيسهل التواصل المستمر والمباشر بين الزاويتين وبين سكان المنطقة سيزيد من فرص استقطاب الأتباع. ولا يخفى ما للميزات الشخصية من تأثير في النفوس. إذ أطنبت كتب المناقب في تعداد خصال الولي محمد بن أبي

---

(1) سليمان بن قدور كان طيبياً وزانيا. وكان قدور بن حمزة كرزازي الطريقة. ورد ذلك في رسالة كبير الزاوية الكرزازية الشيخ الكبير بن محمد الكرزازي إلى أحد أعيان قصر الوداغير بفجيج في شوال عام 1290 هـ / 1873-74 م ، وكان جاء فيها: "وأما خبر سيدي قدور بن حمزة فإنه ورد علينا وأتى بزيارة جزيلة (...) وأخذ علينا الشريط".

(2) وثيقة خاصة مؤرخة في عام 1888/1306-89 م. ونقلنا شفويا في صيف عام 1987 عن أحد أولاد سيدي الشيخ بفجيج المكلف بمزار الولي عبد القادر سيدي الشيخ الذي بناه بوعمامة عام 1314 هـ/ 97/1896 شمال غرب قصر الحمام الفوقي بفجيج أن بوعمامة بن العربي بن حرمة كانت تخدمه وتقف إلى جانبه عدة قبائل في المنطقة منها: الشعابنة، وأولاد ازياد، والبعض من قبيلة العمور وغيرها.

زيان، وألصقت به العديد من الكرامات. ونضيف إليها شهادة ثلاث مؤلفات من جنس آخر. فقد وصف الهشتوكي في رحلته الحجية عام 1119 هـ محمد بن أبي زيان لما التقى به ضمن ركب الحجيج في القنادسة، بأنه "رجل صالح جواد مقبول عند أهل تلك النواحي كلها يأخذهم بالعافية ويصلح بين تلك القبائل (...) وله عندهم جاه جليل" حتى أنه سمع بنفسه رجلا في بشار يحلف لآخر باسم الشيخ محمد بن أبي زيان (1). ويتحدث القادري عنه با "لشيخ الكثير التلامذة والاتباع" (2).

أما أبو حامد المشرفي في القرن 19م. فقد وصف الزاويتين القندوسية والكرزازية بأن لهما "في الولاية خفق بنود، ويتعاقب المريدون إليهما تعاقب أهل الموسم (...) منهم الركبان وأهل القوافل" (3).

وتساهم ركائب حجيج الأتباع من جهات مختلفة إلى الزاويتين في تعزيز انتشار نفوذهما وسط سكان المنطقة. فقد نقل اليعقوبي في فتح المنان صورة حية عن أحد هذه الركائب إلى الزاوية القندوسة شارك فيه شخصيا، يشبه إلى حد كبير ركاب الحجيج إلى الديار المقدسة في تفاصيله. ينطلق هذا الركب الشمالي (4) من دبدو بعدما تجتمع به وفود الأتباع من "جكل وبني فاشات وأولاد اعمر وبني يزناسن وأهل [وادي] زا" وغيرهم، ويصل تعداده حوالي "أربع مائة أو أقل أو أكثر". ويصف اليعقوبي محطات استراحة الركب بعد خروجه من دبدو يوما بيوم

(1) الهشتوكي، هداية الملك العلام.
(2) نشر المثاني، ج. 4، ص 212 .
(3) الحسام المشرفي.
(4) لم يحدد انطلاق هذا الركب. وقد أثار في موضع آخر من مؤلفه أنه حضر في القنادسة ذات يوم وصول "ركب من ناحية الجزائر وتلمسان" يضم علاوة على الفقراء - أربعة وعشرين عالما من تلمسان وحدها. نقل عنه ذلك. مصطفى القندوسي، في طهارة الأنفاس.

حيث يصل في أول يوم انطلاقه إلى محل بالظهرة يسمى "الخوخات" وفي اليوم الخامس يصل إلى عين الشعير وبه يترك "الفقراء" ما اصطحبوه من زاد ليوم الرجوع من الزيارة إلى بلدانهم. ويحط الركب في اليوم السابع في كدية "أم الضبع" على مقربة من القنادسة. ويبعث من هناك بأحد "الفقراء" لأخبار الشيخ أبي زيان بقدوم الركب، فيخرج لملاقاته على قدميه خارج قصر القنادسة في اليوم الثامن (1).

وقد استمر نفوذ الزاويتين في المنطقة وحتى خارجها فيما يبدو على ما كان عليه، موازاة مع ما كانت تضطلع به الزاويتان من وظائف روحية وثقافية واجتماعية (الإيواء والإطعام والتعليم والتحكيم)، خدمة لساكنة المنطقة ولوفود التجار والزوار وقوافل الحجيج. ولم تتغير هذه الوضعية خلال توسع الفرنسيين في المنطقة منذ أواسط القرن 19 م، لاتخاذ رؤساء الزاويتين مواقف مسالمة من هذا التوسع. لكن الأمر سيتطور إلى الأسوأ في علاقة الزاوية القندوسية مع السكان عندما رضخ شيخها لضغوط الفرنسيين من أجل التعاون معهم مقابل حماية مصالح الزاوية في المنطقة وفي داخل الجزائر، خصوصا بعد الاتفاقية المغربية - الفرنسية عام 1901، واحتلال قصور بشار والقنادسة ابتداء من عام 1903 (2).

وإذا تفحّصنا نشاط الزاوية التيجانية من منطلقها في عين ماضي وفي "تيماسين" بالجزائر يتبين الدور الكبير الذي ساهمت به القوافل التجارية الصحراوية

(1) طهارة الأنفاس، يذكرنا ذلك بما ذكره ابن قنفد (ت. عام 1407/810) في أنس الفقير من حج آلاف الفقراء والصلحاء والفقهاء في شهر ربيع الأول من كل عام إلى ناحية دكالة بمكان بين آسفي و"تيطنفطر" يلتقي عنده هؤلاء في موسم سنوي، حضره ابن قنفد نفسه عام 769 هـ . أحمد الخطيب الشهير بابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشر بعناية محمد الفاسي وادولف فور، منشورات مركز البحث العلمي الرباط. 1965، ص 71 .
(2) سنعود لهذه المنطقة في الفصول اللاحقة من القسم الثاني.

في نشر نفوذها. وكان فقراء الزاوية يرافقون القوافل لحمايتها انطلاقا من عين ماضي، وبوسمغون جنوبا وتلمسان وفاس شمالا. إلى أن تصل إلى السنغال (1).

ويغتنم فقراء الزاوية ومقدموها هذه الرحلة التجارية لنشر الطريقة التيجانية في كل هذا الفضاء الجغرافي الواسع. بيد أننا نلاحظ كذلك أن اللُّعبة السياسية التي اقتحمت دروبها الزاوية منذ حياة مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني في عين ماضي أواخر القرن 18 م، كان لها تأثير كمي وكيفي في نشر نفوذها في المنطقة وما سواها، حسب الوضعية السياسية في المنطقة خلال القرن 19 م وأوائل القرن 20 م. وقد سار ذلك عبر مسارين متناقضين: أولهما ظهرت فيه الزاوية التيجانية مناهضة للحكم التركي باعتباره حكما دخيلا لم يكن يحظى بقبول الجزائريين، لاستفحال مظالمه (2)، لذلك لقي محمد الكبير بن محمد التيجاني استجابة واسعة في صفوف قبائل الجنوب، والجنوب الغربي الجزائري، عندما اتجه بأتباعه لمحاربة باي وهران وطرد الأتراك منها (3). أما المسار الثاني فعلى العكس من ذلك، إذ تحالفت فيه الزاوية مع الاستعمار الفرنسي لخدمة الأهداف المشتركة. فقد تعرض "رين" بتفصيل إلى هذه النقطة واستند في ذلك إلى عدد من الشواهد منها عدد من

---

(1) Rinn, op-cit, p. 424

(2) تعددت كتابات الجزائريين وحتى المغاربة في هذا الشأن من ذلك: مخطوط، كعبة الطائفين لمحمد بن سليمان الجزولي التلمساني، ألَّفَهُ في آوخر القرن الحادي عشر. أنظر سعد الله، في "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ج 1، 159-163 .

وتعرض أتراك الجزائر أيضا لانتقادات مؤلفي الرحلات الحجية المغاربة مثل العياشي، وأصحاب الزاوية الناصرية.

(3) راجع هذه النقطة في الصفحات السابقة من هذا الفصل. ولم تكن سياسة الأتراك في الجزائر مناهضة لجميع الطرق والزوايا في الجزائر، إلا ما كان منها معاديا لهم فعلى سبيل المثال نجد "باي" المدية مصطفى باشا يبعث برسالة (بمثابة ظهير) إلى رئيس الزاوية اليوسفية بمدينة "مليانة" السيد ابراهيم يجدد فيه عناية السلطاة التركية بالجزائر بهذه الزاوية واحترامها وتوقيرها بل ويعينه مقدما لهذه الزاوية، كتب الظهير بتاريخ أواخر شهر صفر عام 1246 أورد: Marthe. D, Gouvion في كتابهما: Kitab-Aayane El-Maghariba-Alger

الرسائل بين الحكام العسكريين الفرنسيين ورؤساء الزاوية في كل من عين ماضي و"تيماسين" (1).

وقد اضطر كثير من تجار المنطقة للانخراط في الطريقة التيجانية لتسهيل مأمورية تنقلهم داخل الجزائر، أو اختراق أراضيها مصحوبين بسلعهم دون أن تعترضهم مشاكل مع الفرنسيين. ويكفي في هذه الحالة أن يستظهروا برمز الانتماء لهذه الزاوية، أو برسالة يسلمها مقدموا فروع الزاوية في الأماكن التي انطلقوا منها.

واعتمدت الزاوية الدرقاوية في حياة الشيخ المؤسس مولاي العربي الدرقاوي على تنظيم ركاب الزوار السنوي، المنطلق من الجزائر إلى قصر الزاوية ببني زروال، لنشر نفوذها على طول الإقليم الشمالي الشرقي المغربي والغرب الجزائري، ويتحدث محمد المعسكري في "كنز الأسرار" عن قدوم ركب كبير من مائة وخمسين زائر يرأسهم مقدم الزاوية الدرقاوية بالجزائر عبد القادر بن الشريف تضم "عبيدا وإبلا وبغالا وعروضا ودراهم ودنانير وحليا وغير ذلك" وزع بعضها في الطريق على "فقراء تلمسان ووجدة وتازة" وعندما وصل الركب إلى الزاوية استقبل با "الطبول والغوائط والذكر" من الشيخ العربي الدرقاوي وفقراء الزاوية. وأقيمت

(1) Rinn, op-cit, p. 440-427

وليمة كبيرة حضرها "خمسمائة نفر" من المريدين والأتباع. وعند رجوع عبد القادر بن الشريف إلى الجزائر بعث إلى الزاوية من لم يزرها معه طائفة بعد أخرى (1).

وانتشر نفوذ الزاوية الدرقاوية على الخصوص في شمال المغرب انطلاقا من أقاليمه الشرقية إلى بلاد جبالة، وكذلك جبال الأطلس المتوسط والجنوب الشرقي المغربي حسبما ذكر "دراك" (2) ولعل اهتمام الزاوية بتأمين السابلة وقوافل التجارة عبر مسالك هذه الأقاليم التي عرفت اضطرابا أمنيا طيلة القرن 19 م (3)، قد ساعدها على تعزيز نفوذها في هذه المجالات (4).

وعلى عكس الزاوية التيجانية فإن معاداة شيخ الزاوية الدرقاوية بمدغرة محمد بن العربي الدرقاوي للاستعمار الفرنسي في الجزائر، والدعوة لمحاربته، قد ساعد على تكريس نفوذ زاويته في أقاليم المغرب الشرقي. وادعى "ج. شاوط" الذي قطع المسافة بين فاس وفجيج ضمن قافلة تجارية عام 1881، أنه يكفيه وضع

---

(1) محمد بن أحمد المعسكري (أبو زيان)، كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار. خ. ع. الرباط مخطوط.د. 2335. ذكر المعسكري أنه التقى بدار الشيخ العربي الدرقاوي محمد بن حمو الفجيجي، والشيخ بالحرمة البوشيخي الفجيجي وكانا مقربين من الشيخ العربي الدرقاوي وقد يكون هذان المريدان اصطحبا معهما بعض فقراء فجيج والناحية الجنوبية الشرقية للزيارة، فقد ذكر "جاكوب شاوط" أن فقراء فجيج الدرقاويين يسافرون من حين لآخر إلى تازوالت لزيارة الشيخ العربي الدرقاوي مصحوبين "بالزيارة لنيل... البركة".

JAKOB Schaudt: Voyages au Maroc. Bull. Géog d'Alger, 1889.

(2) G. DRAGUE: Esquise d'histoire religieuse du Maroc. 1951,p. 267

(3) للتذكير فإن السلطان مولاي سليمان لقي عنتا كبيرا في تطويع قبائل الأطلس المتوسط كاد أن يكلفه حياته. فقد انهزمن جيوشه أمام قبيلة " أو مالوا" عام 1818، وقبض عليه وسجن لدى هذه القبيلة لمدة أربعة أيام. كما أن السلطان مولاي الحسن قاد جيشا كبيرا في أواخر ق. 19 م. لاستعادة نفوذ المخزن في نواحي وجدة وبلاد بني يزناسن وغيرهما.

(4) حسب "دراك" فإن كلا من أسرة امهاوش (بزعامة أبي بكر امهاوش) وإحنصالن المرابطتين انفصلتا عن الطريقة الناصرية وانتسبتا للطريقة الدرقاوية. Esquise, p. 87. ويذكر المعسكري في كنز الأسرار أن الشيخ العربي الدرقاوي لما أخرجه السلطان عبد الرحمان من سجنه عام 1238 لقنه أذكار الطريقة "ولكثير من أصحابه".

عـمامة خضراء على رأسه (شعار الدرقاويين) ليسافر بأمان في كل الأقاليم الشرقية والجنوبية المغربية إلى أن يصل تمبوكتو (1).

وتمكنت الزاوية الناصرية من نشر نفوذها في المنطقة بشكل كثيف خلال النصف الثاني من القرن 17 م. وطيلة القرن 18م. ولعب ركب الحجيج دورا كبيرا في نشر هذا النفوذ. فقد استغل شيخ الزاوية أحمد بن ناصر الدرعي حجاته الثلاثة في أعوام: 1060، 1078، 1121 هـ لتعزيز روابط صلة الزاوية بفقرائها على طول خط قوافل الحج جنوب المغرب والجزائر على ما تركه والده محمد بن ناصر في أواسط القرن 11 هـ / 17 م (2)، فقد استقبل أحمد بن ناصر في حجته عام 1121 هـ بحفاوة كبيرة من قبل أتباع الزاوية وسكان المنطقة بدءا بالقنادسة (3) ومرورا بفجيج (4) والمكرارين، وفي بوسمغون وأولاد مصباح بقربها وأهل الغاسول وعين ماضي، والأغواط. وقد احتفظت الزاوية الناصرية بنفوذها التقليدي على طول خط الحجيج عبر المراكز السكنية المذكورة طيلة القرن 12 هـ / 18 م (5)، بل إلى حدود النصف الأول من القرن 19 م، قبل امتداد السيطرة الفرنسية إلى المنطقة.

Jakob Schaudt, voyage au maroc. P. 233.

(1) ويعترف "كرومو" أن الزاوية الدرقاوية في القرن 19 م مارست تأثيرا قويا على سكان الواحة الفجيجية وفي ذات الوقت يبدي ارتياحه الكبير لما يعتقده اندحار لنفوذ هذه الزاوية في المنطقة، بعد عقد الحماية الفرنسية على المغرب.

Gromond: Le particularisme de Figuig 1939. P 90-91

(2) ذهب إلى الحج عام 1076 هـ حسب رحلة أحمد بن ناصر، وأشار العياشي في رحلته أنه كان نفسه من أتباع الطريقة الناصرية وشيخه محمد بن ناصرالدرعي.

(3) خصص له الشيخ محمد بن أبي زيان القندوسي ضيافة من "التمر والكوسكوس واللحم" - الرحلة الناصرية.

(4) عند رجوع الشيخ أحمد بن ناصر من الحج ووصوله ضمن الركب إلى فجيج عين الحاج محمد بن الصغير الودغيري مقدما على فقراء الزاوية الناصرية بالقصور الفجيجية. الرحلة الناصرية.

(5) أشار أبو العباس محمد بن ناصر في حجيته عام 1199 هـ، إلى بعض أتباع الزاوية الناصرية في كل من: تيبوت وبوسمغنون (بنو مفتاح).

ب- المقدمون والاتباع وتلقين الورد

تعتمد كل الطرق الدينية في تلقين الورد المسمى عند شيوخها ب (السِّرّْ) على العدّ. فكل دعاء أو صلاة على الرسول ﷺ في الورد يحدد له الشيخ رقما معينا، وعلى "الفقير" المنتمي للطريقة ترديده حتى يستوفيه. وقد يعاد ترديد الذكر على ذلك الوجه مرتين أو ثلاثة في اليوم، يحددها الشيخ في أوقات معينة قبل أو بعد الصلوات الخمس. وعلى "الفقير" المواظبة على الورد طيلة حياته، ما لم يغير انتماءه للطريقة. ويتشابه مضمون الذكر (الورد) لدى جميع الطرق الآخذة عن الشاذلية. وهي أوراد مأثورة أخذها شيوخ الطرق نقلا عن السلف، حسب سلسلة المشايخ إلى أبي الحسن الشاذلي، وتنحصر في ثلاثة عناصر: الاستغفار، الصلاة على النبي، و"الْهَيْلَلَة" والتكبير وذكر بعض أسماء الله الحسنى. ويعمد كل شيخ طريقة (المؤسس) إلى زيادة بعض الأذكار تمييزا له عن أذكار الطرق الأخرى (1).

وما يسترعي انتباه الدارس، أن الطرق الصوفية في استقطابها للاتباع لا تغفل جانب المرأة ولا الأطفال في سن الرشد، بل تعتبر المرأة عضوا حيويا في الطرق الدينية، تسند لها نفس الأوراد، مع الأنقاص من العدد الذي يردده الرجال (3)،

---

(1) إذا أخذنا الزوايا الخمس: الناصرية، الزيانية، الكرزازية، التيجانية، الدرقاوية كنماذج لتشابُه أذكارها، فإن لكل منها بعض الإضافات على الأذكار الثلاثة المشتركة المذكورة أعلاه.
فالكرزازية مثلا أضافت ذكر "البسملة" يرددها الفقراء يوما ما بين 100-500 مرة حسب نوعية الشغل الذي يستغرق يومهم. أنظر: Rinn, marabouts... p. 344 وقد أورد صاحب طهارة الأنفاس أن الشيخ محمد بن أبي زيان عندما يفد عليه عندما يفد عليه أحد لأخذ ورد الطريقة يسأله إن كان يحفظ القرآن فإن أجاب بنعم "ناوله بحسب عادته مع أهل القرآن.... وإن كان لا بحفظ القرآن يلقنه الأوراد المأثورة عن أشياخه".

(2) أورد "كرومو: تقديرات عن عدد النساء المنتميات لمختلف الطرق الدينية المنتشرة بفجيج في أوائل القرن 20 م. فلاحظ أن عدد أتباع الطريقة القادرية يبلغ حوالي 200 شخص ثلثهم من النساء. وعدد المنتمين للطريقة الوزانية حوالي 500 شخص نصفهم من النساء. وعدد المنتمين اللطريفة التيجانية حوالي 200 ربعهم من النساء. Gromond, le particularisme. P. 91

وتعقد النساء حلقات ذكرهن الخاصة في منازلهن أو في المزارات التابعة للطرق الدينية، وينتخبن من بينهن منشطة حلقة الذكر (مقدمة). وعلى سبيل المثال فإن شيخ الطريقة الناصرية أبو بكر الدرعي بعث إلى الفقيه أحمد بن محمد الراشدي الفجيجي رسالة في 1 جمادى الأولى عام 1849/1265 يفصل فيها ما علي فقراء وفقيرات القصور الفجيجية ونواحيها ترديده من الأذكار اليومية وعددها حسب الأعمار ونوعية الشغل والمرتبة الاجتماعية، "فالطلبة وأهل الصنائع من الرجال" وجب عليهم يوميا ترديد ذكر: استغفر الله. 100 مرة، اللهم صلى على سيدنا محمد وعل آله (...) 100 مرة.

والعامة من الرجال الهيللة. 1000 مرة، ثم الاستغفار والصلاة على النبي 300 مرة.

أما "النساء الصغيرات القائمات بالخدمة والرضاعة" فيقتصرن على: الهيللة 100 مرة، الاستغفار والصلاة على النبي 100 مرة لكل منهما، والنساء من غير شغل وكذاالعبيد، فعليهم ترديد ذكر. الهيللة: 300 مرة، والاستغفار والصلاة على النبي: 100 مرة (1).

وتتميز الطرق الدينية في تنظيمها الهيكلي بتراتبية هرمية. إذ نجد على رأس الطريقة شيخ الزاوية ثم الخلفاء، وغالبا ما يعينون من أسرة الشيخ. ويليهم المقدمون ونوابهم، وأخيرا الأتباع أو الأخوان "الفقراء".

(1) وثيقة خاصة.

وكان فقراء الزاوية في كل قصر من القصور أو فرقة قبيلة في المنطقة، غالبا ما يختارون من بينهم مقدما لطريقتهم. وعلى المقدم أن يشد الرحال إلى مركز الزاوية لمقابلة الشيخ ليلقنه سر الطريقة مباشرة، ويتعهد أمامه بالمحافظة عليه. وإن تعذر ذلك لسبب من الأسباب، كانعدام أمن الطرقات أو لكبر سن المقدم، وجب عليه إعلام الشيخ برسالة يبين فيها إجماع "الفقراء" على تقديمه للأشراف على شؤون الطريقة في فرقته (1). ولا يتأخر شيخ الزاوية في تزكية هذا الاختيار في رسالة جوابية مفصلة موجهة للفقراء، تتضمن إرشادات ومواعظ في الذكر والالتزام بأوراد الطريقة، مذكرا بما على الفقراء من وجبات الانقياد للمقدم واتباع أوامره واحترامه، والمواظبة على حضور حلقات الذكر (الحضرة)، وما يلزم المقدم من الرأفة بالفقراء والسؤال عن أحوالهم (2)، ويأذن له فيها بتلقين ورد الطريقة للمنتمين الجدد، ويرفق الشيخ ببطاقة أخرى خاصة بالمقدم تتناول سر الطريقة، يبتدئها أو يذيلها بالتأكيد على المحافظة على ذلك السر (3) وعدم البوح به لأي أحد. ويتدخل شيخ الطريقة أحيانا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لتحفيز الفقراء على اختيار أحد الأعيان المنتمين لطريقته في منصب المقدم، كأن يكون تاجرا كبيرا، أو رئيس جماعة قصر، أو قائداً على فرقة القبيلة، لأهمية دور هذه الشخصية في توسيع دائرة الانتماء للطريقة والتكفل بواجبات ضيافة الشيخ ووفده أو نوابه ومبعوثيه، ولدينا أمثلة عديدة في هذا المجال نكتفي فيها بما أورده

(1) بعث الفقير الشيخ بن عزي من قصر الوداغير بفجيج رسالة في الموضوع إلى شيخ الطريقة الوزانية مولاي عبد السلا م الوزاني جاء فيها: "وليكن في كريم علم سيدنا أن فقراء أهل قصرنا الوداغير تراهم متعلقين بي راغبين في شأن طريقتكم الشريفة"، وثيقة خاصة غير مؤرخة.

(2) نحتفظ ببعض رسائل شيوخ الزوايا لمقدميهم في القصور الفجيجة في هذا السياق.

(3) Rinn, op-cit. 346-347

"رينو" regnault في مذكرته بتاريخ 20 شتنبر 1895 يقول فيها: إن مقدم زاوية القنادسة عند قبيلة أولاد جرير هو القائد "بن المقدم ولد أحمد"، ومقدم الزاوية في قصر بشار هو "الحاج ولد حمو علة" رئيس جماعة القصر، وكان شيخ فرقة أولاد رمضان من قبيلة بني كيل المدعو "محمد بن ابراهيم بن بوزيان: مقدما للطريقة البوعمامية البوشيخية (1).

ويتعصب كل تابع زاوية لطريقته ولا يستبدلها بطريقة أخرى طيلة حياته إلا لأسباب قاهرة. وغالبا ما يتبع الأبناء طريقة أبيهم في حياته أو يحلون محله بعد الوفاة (2). فيرثون عنه السبحة والذكر مثلما يرثون أملاكه ومخلفاته.

وسبق أن بينا ما يخضع له نفوذ الزوايا في المنطقة من اتساع وانحسار تبعا للمتغيرات اللاحقة بتطورها التاريخي وعلى الأخص منها ما يتعلق بالموثرات الخارجية، فامتداد النفوذ الاستعماري إلى المنطقة، انطلاقا من الجزائر في أواسط القرن الماضي وتحكمه في الطرق والمنافد المؤدية إلى الجزائر وبلاد المشرق من أقصى شمال الحدود المغربية الجزائرية إلى أقصى الجنوب الشرقي المغربي، ضاعف من نشاط الزاوية الدرقاوية في حياة شيخها محمد العربي الدرقاوي (3) بين سكان الحدود الشرقية، كقبائل بني كيل وأولاد جرير وأولاد سيدي الشيخ المهاجرين، بسبب دعوة هذه الزاوية للجهاد ضد الفرنسيين، بيد أن الموقف المعاكس الذي وقفته بعض الزوايا الدينية من الاستعمار الفرنسي بمسالمته والتعاون معه، قد لعب نفس الدور المنشط في استقطاب الأتباع. فالزاويتان التيجانية والطيبية في أواخر القرن

(1) سبقت الإشارة إلى هذه المذكرة. 30H. C. 23, A.O.M

(2) بل يفضل بعض الأتباع عند وفاة مقدم طريقتهم أن يحل محله ابنه، لذلك اقترحت جماعة "أولاد فارس" من بني كيل في رسالتهم إلى شيخ إحدى الزاويا في 14 ذي القعدة عام 1302 / غشت 1887 ينعون فيها وفاة مقدمهم "محمد بن فارس" ويقترحون عليه تزكية ولده في مكانه، رسالة مبشورة في طرفها الأعلى، ذيلت بأسماء مجموعة من أعيان أولاد فارس.

(3) Edmond Doutté: Figuig, notes et impressions sur Figuig. R de la Géographie 1903, p. 199

الماضي وأوائل هذا القرن تمكنتا من تكثيف نشاطهما في صفوف فئة التجار وذوي الحاجات من أعيان وشيوخ القبائل والقصور، تمشيا مع اجتياح النفوذ الفرنسي للمنطقة وارتباط اقتصادها بالجزائر، فتحول العديد من أتباع الزاوية الدرقاوية (1) والبوشيخية إلى الزاويتين المذكورتين أعلاه نظرا للمعاملة الخاصة التي كان يلقاها أتباع هاتين الزاويتين من السلطات الفرنسية أثناء سفرهم داخل الجزائر.

ولا يخفى ما يكون لموضع الزاوية من تأثير في استقطاب الأتباع، فالزاويتان القندوسية والكرزازية تستقطبان عددا كبيرا من الأتباع وسط سكان عدد من قصور وقبائل منطقة الجنوب الشرقي، وتمارسان عليهم نفوذا كبيرا (2). بل لهما حضور متميز لدى قبيلة بني كيل (3) وفي عمالة وجدة وبني يزناسن وفي منطقة وهران بالجزائر. وتتمتع الزاوية اليوسفية (4) بقصر تييوت بنفوذ كبير، وسط ساكنة هذا القصر وفي صفوف فرق قبيلة العمور والشعانبة والطّرافي، بينما لا نجد لها أي أثر في باقي القصور والقبائل الواقعة غرب القصر المذكور (5).

---

(1) Gromond, op-cit, pp. 90-91

(2) بعث شيخ الزاوية القندوسية محمد بن عبد الله رسالة إلى سكان قصر بشار وأولاد جرير جاء فيها: " أحباؤنا وخدامنا أهل بشار وأولاد جرير (...) فإننا إن شاء الله قادمين لبشار في يومنا هذا ولو إلى نصف الليل فكونوا على بال منا (...) والسلام" وثيقة خاصة غير مؤرخة.

(3) لا سيما في صفوف الفرق الآتية: -أولاد محمد، أولاد رمضان، من عرش أولاد إبراهيم.
- أولاد محمد بن فارس، أولاد بلحسن، من عرش أولاد فارس.
- أولاد امبارك، أولاد بادة، من عرش أولاد أيوب.
- أولاد محمد بن ناصر، أولاد علي بن ياسين، من عرش أولاد حاجي.
أنظر: Documents, T. 2, p. 368

(4) زاوية سيدي أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة وهو من أكبر تلامذة زروق، توفي عام 930 هـ / 1523 أسس فرعالزاوية اليوسفية في قصر "تييوت" السيد محمد بن ميلود المنحدر من سلالة الولي أحمد بن يوسف في أواسط القرن 18 م. حسبما نقل "لامارتنيير ودولاكروا" عن أحد أحفاد السيد الميلود شقوبا.
Documents, T. 2, P. 441

(5) Ibid, p. 447.

أتباع الزاويا في قصور الجنوب الشرقي في العقد الاخير من القرن 19 م

القصور	الزاويا الدينية	أسماء المقدمين	عدد الاتباع
عين الصفراء	✓ الكرزازية	الحاج بلقاسم بن الجيلالي	33
	✓ القندوسية .	الحاج محمد بن العربي	29
	✓ الطيبية (الوزانية)		25
	✓ القادرية		2
تيبوت	✓ اليوسفية	اليزيد بن عيسى	40
	✓ الكرزازية	الحاج محمد بن عبد الله	30
	✓ الدرقاوية	الطاهر بن هلو	25
	✓ القادرية	عبد الرحمان بن معروف	8
عين صفيصيفة	✓ القندوسية	الحاج علي بن موسى	25
	✓ الوزانية	محمد بن أحمد	10
	✓ القادرية	الحاج قدور بن طاهر	6
المكرار التحتاني	✓ التيجانية	محمد بن دحو	5
	✓ الوزانية	محمد بن عبد الله	12
المكرار الفوقاني (1)	✓ الكرزازية		7
	✓ القادرية	لعرج ولد الطيب بن الشيخ	8
	✓ الوزانية		6
ايش (2)	✓ الزاويية الوزانية	قدور بن علي	؟
	✓ الكرزازية	محمد بن معمر	؟

(1) أخذ هذا الجدول من مؤلف "لا مارتنيير ودولار كاروا: "Documents, T. 2, P. 368

(2) J.P. Homo et R. Hugot: Ich, oasis de montagne. PP. 115-116

إتباع الزاوية اليوسفية بتييوت من فرق قبيلة العمور

الفرق	عدد الاتباع
✔ أولاد عبد الله	22
✔ أولاد كطيب	10
✔ المدابيح	20
✔ المرينات	20
✔ أولاد الشحمي	10
✔ أولاد عمرو	15
✔ أولاد سليمان	20
✔ أولاد عليات	50(1)

4- الزاوية قوة اقتصادية

أ- مداخيل الزاوية

تمثل الزاوية (2) قوة اقتصادية في المنطقة بالنظر لمداخيلها الوفيرة المكونة من الهبات و"الزيارات" (3). فمنذ تأسيس الزاوية القندوسية على سبيل المثال لاحظ عبد الرحمان اليعقوبي ما كانت تأتي به وفود الزوار من "مشارق الأرض ومغاربها" من صدقات كثيرة إلى الشيخ محمد بن أبي زيان. وقد كلف ابن عمه عبد الرحمان لصرفها في "مصالح الزاوية" (4).

(1) Document, T.2, P.447-449

(2) سنركز في معالجة هذه النقطة على الزوايا المحلية الأربع: القندوسية، الكرزازية، البوشيخية والتيجانية.

(3) تستعمل كتب المناقب: الزيارات والهبات والفتوحات وسنحتفظ بهذه الصيغ نفسها.

(4) عبد الرحمان محمد اليعقوبي، فتح المنان. من ضمن هذه الصدقات ما كان يأتي به أبناء الولي سيدي محمد بن علي الكركي البوكيلي "من قمح وشعير وإدام وعسل" فتح المنان.

ولما كـان من أهم وظائف الزوايا إطعـام الزوار والفـقـراء واللاجئين، وكل من تقطعت بـهم السبل (1)، فإن شـيـوخ زوايا المنطقـة المتأخـرين لم يقنعـوا بما يأتي به المقدمـون من زيارات الفقراء بل يسافـرون بأنفسهم إلى القـصور ومراتع القبـائل لجمع "الزيارات". وكـان شـيخ الزاوية القندوسيـة محـمد بن عـبد الله يزور قـبـائل بني كـيـل وذوي منيع وأحـمـيـان وبني يزناسن والبـرابرة المجـاورين، مـرتين في السنة لجـمع زيارات الفقراء وصدقـات شيـوخ القـبائل وأغـنيائها (2). ففي عام 1882 سافـر إلى مـضـارب بني كـيل فـحـصل منهـم على 1700 رأس من الأغنام و 17 جـمـلا مـحـملة بالسـمن وكمـيـة مـن النقـود، وحصل من ذوي منيع في العـام نفسـه على 400 قنطار من الشعير (3).

وتتنـاول وثيـقـة عـدليـة مـؤرخـة في أوائل شـعـبـان عـام 1280/ يناير 1864(4)م مضمون نزاع حول مداخيل ضريح الولي سيدي سليمان بن أبي سمـاحة بقصر بني ونيف، بين حفـيـدين من أحفـاده المتـأخرين: "الشـيـخ بن أحـمـد بن الحـاج"، و"سـيـدي الـطـيب بن الشيخ" (5). وكـانت قـبـائل أحـمـيـان والعـمـور والرزاينة (6) وغـيـرها من قـبـائل المنطقـة وسـاكنة القـصـور الفـجـيـجـيـة تزور ضـريح الولي المذكـور في مناسـبـات ومـواسم مـعـينة،

(1) حسب علي التازي في منهل الظمآن فإن الزاوية القندوسية كانت تستقبل أحيانا "ألف" إلى "ألفين من الزوار" وكلهم يأكلون ويشربون" وهذا العدد رغم ما فيه من مبالغة فإنه مؤشر عن أهمية مداخيل الزاوية. أنظر: طهارة الأنفاس.

(2) A.M.G. 3H. 22

(3) Ibid.

(4) وثيقة خاصة تحمل توقيع عدلين وتصديق القاضي.

(5) وقد حكم القاضي لصالح الأول (الشيخ بن أحمد بن الحاج) لما أدلى به من حجج مكتوبة تثبت أحقيته فيما ادعاه.

(6) ورد ذكرها في الوثيقة.

مصحوبة بما نذرت به نفسها من زيارات (1)، فينتج عن ذلك أموال هامة (عينية ونقدية) بيد من يتولى أمر الضريح من حفدة الولي. وحسب المعلومات الواردة إلى الوالي الفرنسي العام في الجزائر، فإن الشيخ أبي عمامة البوشيخي رئيس الزاوية البوعمامية بعث عام 1895 مقدميه إلى قبيلة المهاية لجمع "الزيارات" (2). وفي 13 أبريل عام 1896 ذهب وفد من المهاية مكون من مائة شخص على رأسهم الحاج كروم عم القائد الحاج السهلي لزيارة الشيخ بوعمامة في مكان إقامته بالقرب من عين بني مطهر، مصحوبين بمائة وأربعين كبشا وخمسمائة فرنك، قدموها للشيخ المذكور (3).

وإذا كان مؤسسو الزوايا المحلية كالقندوسية والكرزازية قد انقطعوا للعبادة وعاشوا حياة زهد وتقشف، فإن خلفاءهم استغلوا ما تراكم من أموال الصدقات و"الزيارات"، و"الفتوحات" في التجارة. فقد أورد اليعقوبي أن الحاج عبد الوهاب ابن الولي محمد بن أبي زيان بعث مع قافلة تلمسان "اثنتي عشرة ناقة وأمة حاملة للحناء" لبيعها في الأسواق التلمسانية ونواحيها (4). ولما كانت القنادسة محطة

---

(1) ذكر الجنرال "دوما" في مؤلفه: "الصحراء الجزائرية" أن القبائل العربية المجاورة للأبيض والبعيدة عنها تزور ضريح الولي عبد القادر سيدي الشيخ سنويا مصحوبة بهداياها لأجل التوسط به إلى الله ليبارك مواشيها، ويمطر بلادها. G.Dumas, Sahara Algeriene. P. 233-34. وأورد الهواري التواتي نقلا عن أحمد السكون في كتابه "مناقب سيدي عبد القادر السماحي" أن هذا الولي كان أثناء مقامه بالواحة الفجيجية يملك فيها حوالي: 80 بستانا و 60 خروبة مائية و 18 جملا بالإضافة إلى بساتينه في واحة بني ونيف وغيرها.
Houari Touati, op-cit, p. 205

(2) وقد أمر مقدميه أن يطلبوا من كل خيمة دفع 3 كباش و 5 فرنكات. رسالة الوالي العام في الجزائر إلى وزير الحربية في 15 ماي 1896 . A.M.G 3H 19

(3) Ibid.

(4) فتح المنان، ص. 598، أورده مرزاق في بحثه سابق الذكر.

من محطات التجارة القوافلية الصحراوية (1)، فقد انخرط الولي أبي زيان وكذا إخوته وبني عمومته في التجارة البعيدة المدى، وصاروا "يسافرون من السحرة (كذا) إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ومن السوادين إلى أقصى الأرض ويتجرون ويربحون" (2). وكان للزاوية القندوسية وسائل نقلها الخاصة. فإلى حدود أواخر القرن 19 م كان بحوزتها من عدد الإبل ما يشكل قافلة تجارية مستقلة (3).

وفي شوال من عام 1873/1290 بعث شيخ الزاوية الكرزازية "الكبير بن محمد" رسالة إلى أبي فلجة بن جبور من تجار قصر الوداغير بفجيج يطلب منه أن يكون في انتظار قدوم إبل الزاوية الكرزازية محملة بالبضاعة ويأمره أن يقف مع أصحابه لبيعها بفجيج بالدُّورُ الفرنسي من الفضة " ولا تقبض فيهم الذهب" (4).

ب - ثروة الزاوية والوسط الصحراوي

وإذا ما أخذنا نموذج الزاويتين القندوسية والكرزازية لفحص هذه النقطة، سيتبيهن أن هذا الوسط لم يستطع استيعاب غير القليل من فائض الأموال الناتج عن أرباح التجارة والهبات و"الزيارات"، لضيق المجال الزراعي وقساوة المناخ. فكان من الطبيعي أن يفكر شيوخ هاتين الزاويتين في استثمارها في شراء الأملاك

---

(1) كانت الزوايتان القندوسية والكرزازية بحكم تموضعهما في طريق القوافل التجارية الصحراوية تقومات بوظيفة حماية هذه القوافل مقابل ما يصطلح عليه بحق الزاوية في القافلة.

(2) علي التازي منهل الظمآن، الخزانة الصبيحية، وأشار اليعقوبي في فتح المنان أن شيخ الزاوية القنودسية أبا مدين بن محمد الأعرج لاحظ عليه عمه الحسين بن محمد بن أبي زيان كثرة اشتغاله بالتجارة على حساب شؤون التربية والعبادة. مصطفى القندوسي، "طهارة الأنفاس".

(3) Documents pour servir, T. 2, p. 625 ويضيف صاحبا هذا المصدر أن الزاوية القندوسية كان بحوزتها حوال 650 رأسا من المواشي ما بين غنم وماعز، وحوالي 100 رأس من البقر، و 20 حصانا.

(4) وثيقة خاصة.

العقارية والانفاق على بعض البناءات خارج كرزاز والقنادسة. فقد ورد في وصية الشيخ محمد الأعرج شيخ الزاوية القندوسية لخلفه أبي مدين أنه تصدق عليه بالثلث في ما يملكه من الأراضي والنخيل في "بشار وبني يط وبوعنان والرتب وبني بوذنيب وبني وازل"، ووهب على حفدته ثلث ما يملكه من الأراضي في "بلاد وجدة أرضا وزيتونا، وبني مطهر (...) ووادي كير وبني تجيت وغيره من البلـــدان" (1).

وفي 11 ذي القعدة من عام 1782/1197 أصدر السلطان محمد بن عبد الله ظهيرا يرجع بموجبه للمرابط أبي مدين بن محمد بن أبي زيان ما كان في ملكه من الأراضي والدور في قصر الغرفة بتافيلالت (2). أما المرابط إبراهيم بن محمد بن عبد الله القندوسي (3) فقد كتب إلى الوزير أحمد بن موسى بتاريخ 4 جمادى الثانية عام 1314/ نونبر 1896، يطلب منه أن يتوسط له لدى السلطان مولاي عبد العزيز ليزذن له في تجديد معصرة الزيت التي له في مدينة وجدة لتدار بالآلـــة العصريـــة (4).

(1) كتبت هذه الوصية على رق غزال، أورد نصها محمد مرزاق في بحثه سابق الذكر، ص. 255 .

(2) مديرية الوثائق الملكية، ملف الصحراء الشرقية.

(3) شيخ الزاوية القندوسية.

(4) " وأردنا الآن إعادتها على كيفية غير الأولى بل بحركة رومية" حسبما جاء في نص الرسالة. مديرية الوثائق الملكية، ملف الصحراء الشرقية. وفي نص الرسالة أيضا يعتذر للوزير عن عدم تمكنه من زيارة السلطان عندما وصل إلى فاس بإبله لكيل الحبوب للزاوية...
وجاء في مؤلف الدرر البهية أن شيخ الزاوية الدرقاوية بمدغرة محمد العربي الدرقاوي "كانت له دنيا عريضة وبني قصرين ببلده على هيئة دور الملوك". أورده العباس بن ابراهيم في الإعـــلام، ج. 7، المطبعة الملكيـــة . 1977، ص. 80 .

وكـان للزاوية الـكرزازية بدورها أمـلاك عـقـارية بفـجـيج (1) ووجدة وفـاس. فماذا إذن عـن تأثير هذه الثروة على حياة مرابطي الزاويتين؟ ليست لدينا أوصاف دقـيـقـة عن الحـيـاة الشـخـصـيـة لرؤساء الزاويـتين وباقي أفـراد الأسـرتين المرابطتين، فباستثناء ما نقرأه في مؤلفي فتح المنان ومنهل الظمآن، عن حياة وكرامات الولي محمد بن أبي زيان المتسمة كلها بأوصاف الزهد والتقشف والابتعاد عن ملذات الحيـاة، وكذلك كانت حياة الولي أحمد بن موسى الكرزازي، فإننا لا نملك فكرة واضحة عن حيـاة أعقابهما المتأخرين وخاصة من عـاش منهم في القرن الماضي وأوائل القرن العشرين، ولا يسعنا والحالة هاته إلا الاعتماد على بعض الإشارات لنستخلص منها بعض النتائج.

وكـانت القنادسة "قرية ضعيفة" (2) قليلة السكان عندما حل بها الولي محمد بن أبي زيان في أواخر القرن 17 م، فاتسع بها العمران بعد ظهور الزاوية. وكان "الفقراء الملازمون للشيخ أبي زيان يتطوعون في توسيع بنيان الزاوية لإيواء الصادر والوارد من الزائرين (3) لما كثرت أعدادهم، وسار تطور القصر موازيا لاتساع الزاوية واشتهارها في مشيخة أبنائه من بعده، وقد وسع أبو مدين ابن محمد الأعرج مسجد الزاوية وبنى صومعتها (4)، واستقر بالقنادسة عدد من رحل ذوي منيع والوسطاء التجاريون، فتحولت القنادسة إلى قصر كبير يسكن به ما يزيد عن مائتي أسرة (5)، إلا أن شكل البناء بقي مستجيبا لطبيعة الوسط

(1) منها عدد من أشجار النخيل بوادي العرجة بفجيج، وزاوية كبيرة تحتوي على العديد من الغرف تخصص لنزول القائد المخزني مع الحامية العسكرية.

(2) طهارة الأنفاس.

(3)نفسه نقلا عن اليعقوبي في فتح المنان.

(4) نفسه.

(5) مذكرة Rochas سابقة الذكر. وحسب تقديراته فإن مائتي أسرة هو ما يعادل 1000 شخص إذا ما قدرنا معدل الأسرة الواحدة في 5 أفراد.

الصحراوي. ولم تنفرد مباني الزاوية ولا مساكن الأسرة المرابطية ببناء مميز، سواء من حيث الشكل أو مواد البناء عن باقي مباني القصر، المنحصرة في الحجر والطوب الطيني وخشب النخيل (1). ولم تكن القنادسة ولا كرزاز تنتجان ما يكفي ساكنتيهما من المواد المعاشية (2) وسائر المحتاج من اللباس والفراش، لذلك كان المعول على ما تأتي به القوافل من السلع والبضائع. ومع أن الزاوية القندوسية تتوفر على قافلتها التجارية الخاصة كما أن للأسرة المرابطة من الأموال ما تستطيع به جلب كل ما طاب ولذ من الطعام وما يزين به من لباس الحرير وأنواع أخرى من القماش الرفيع من أسواق الشمال، إلا أن طابع الحياة الصحراوية كرس المعتاد من العيش المحلي، سيما وأن الأسرتين المرابطتين ترجعا لأصول صحراوية (3) لذلك بقي طعام ولباس مشايخ الزاويتين لا يختلف في شيء عن طعام ولباس سائر سكان القصور الصحراوية (4). ومع ذلك فقد أحدث تأسيس الزاوية القندوسية انقلابا في حياة الأسرة المرابطية الزيانية فتحول بنو زيان قبل ظهور الولاية على محمد بن أبي زيان من حاملي الملح من بلد إلى بلد "يبيعونها ويقتاتون منها أي من ثمنها" (5)، إلى أثرياء تجمعت لديهم أموال طائلة من"الزيارات" (6) والهبات، ومن أرباح التجارة، وظفوها في شراء العقارات ومزارع النخيل والزيتون في شتى الجهات.

---

(1) هذا النمط من البناء نجده في كل قصور الجنوب الشرقي.

(2) أشار علي التازي في منهل الظمآن أن القنادسة لم يكن لسكانها "بها قوت إلا ما يجلب إليها من المشرق والمغرب".

(3) أنظر ما رواه علي التازي في المصدر نفسه عن شيخه الولي محمد بن أبي زيان.

(4) نزل شيخ الزاوية الناصرية أحمد بن محمد الدرعي وأصحابه ضيوفا على الولي محمد بن أبي زيان لما وصل ركب الحج إلى القنادسة فأطعمهم تمراً "وكسكوسا باللحم" أنظر الرحلة.

(5) علي التازي، منهل الظمآن.

(6) لاحظ اليعقوبي في فتح المنان أن بعض مقدمي الزاوية القندوسية في البوادي على الخصوص ظهرت عليهم علامات الغنى بسبب استغلالهم لوظيفة المقدم، إذ يجمعون من القبائل "شياه الزيارة وزرع الزكاة" ويحتفظون لأنفسهم بقسط كبير منها "ويزعمون أنهم خلفاء الشيخ"

الفصـــل الرابع
المجال السياسي ومجال القبائل

I - المجال السياسي

1 - ضبط الهوية

توصلنا في دراسة سابقة (1) لتصور ما كان عليه الوضع السياسي في المنطقة في العهدين الموحدي والمريني (2). وتتميز هذه الفترة بالغموض لعدم اهتمام المصادر بأخبارها، فابن خلدون الذي تحدث عن قصور هذه المنطقة عدها من أمصار الصحراء الخارجة عن سطوة الملوك لبعدها في القفر، وكانت السلطة تمارس فيها محليا من طرف أقوى العصائب مالا وأفرادا وسط القبائل المنتشرة في هذا المجال من مستقرين في القصور والبدو الرحل، كمثل بني سيد الملوك المطغرية (3). وقد ترتبط هذه العصائب بالولاء لإحدى السلط المركزية في الشمال: العبد الوادية والمرينية، تبعا لقوة وضعف الملوك، من أجل المصالح المشتركة كتأمين طرق التجارة الصحراوية. ويتبين من ظاهر مضمون بعض الوثائق (4) الراجعة لتلك الفترة أو القريبة منها -رغم قلّتها وتفردها- أن أمراء تلمسان استطاعوا بفضل القوافل التجارية الصحراوية العابرة للمنطقة نحو السودان، ومدهم الهدايا لشيوخ العصائب المتمكنة من النفوذ، أن يربطوا المنطقة اقتصاديا بإمارتهم، ودليلنا على ذلك شيوع المعاملة بالعملة الزيانية والتبر بالمعيار الزياني (5).

وجاء في رسالتين محليتين (6) بفجيج أن محمد الشيخ السعدي عندما دخل فاس عام 1549/596 وجد بها جالية فجيجية لاشك أنها كانت تتكون من تجار

(1) أحمد مزيان :فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر. ص. 80-81 .

(2) استنادا إلى تاريخ ابن خلدون والمقري التلمساني في الروض المعطار ، وإلى بعض الوثائق المحلية.

(3) ابن خلدون: العبر. ج6 . ص 245 .

(4) وثائق بيع وشراء في العقار في مجال القصور.

(5) راجع أحمد مزيان في المرجع المذكور أعلاه.

(6) رسالتين خطّيتين غير مؤرختين، كتبهما العالمان الفجيجيان الداودي بن أحمد وأبي القاسم بن عبد الجبار إلى أهل فجيج. وثيقتان خاصتان.

وبنائين وطلاب علم. وقد وقع خلاف بينهم وبين السلطان بسبب رفض بعضهم التعاون معه، فسجنهم لمدة ثم أطلق سراحهم بعد تدخل عالمين فجيجيين كانا موجودين بفاس آنذاك، هما الداودي بن أحمد وأبو القاسم بن عبد الجبار. ولإظهار حسن نية السلطان تجاه أهل فجيج توجه بكلامه للعالمين المذكورين عند استدعائهما أمامه بقوله: "أهل فجيج أقرب لي من كل أحد، هم إخواني ولا يأمن قلبي إلا وسط أهل فجيج وفيلالة، هم أهل بلادنا ونحت وإياهم كعضو واحد..." (1)، هذا الكلام المنسوب لمحمد الشيخ على لسات العالمين يتضح منه أنه كان على اطلاع بأهمية المنطقة وبالبلاد الفجيجية بوجه خاص.

في الرسالتين المذكورتين أعلاه، شدد العالمان بأسلوب الترغيب والتهديد على كبراء جماعات القصور الفجيجية أن يدخلوا في طاعة السلطان السعدي وأن يستقبلوا مبعوثه الحامل لرسائل السلطان "براءات الخير" (2) بالترحاب "وأنتم لا تفعلوا إلا الخير مع الذي يقدم إليكم من عنده وهو محب لكم غاية الحب" (3). ويظهر من الرسالتين أن أهل فجيج لم يكونوا على كلمة سواء من طاعة السعديين في البداية إذ جاء في إحدى هاتين الرسالتين: "لا تصغوا للسفهاء ومريدوا (كذا) الفساد" (4) ذلك أن كل تقاعس عن إبداء الطاعة لمحمد الشيخ سيعرض الجالية الفجيجية بفاس لكثير من المشاكل (5). ثم انتظمت المنطقة وضمنها الواحات الفجيجية تحت سلطة السعديين منذ ذلك الوقت. أما قبل ظهور السعديين على

---

(1) مضمون الرسالتين أعلاه.

(2) الرسالتان

(3) نفس المصدر.

(4) نفسه.

(5) "لئلا يصلنا منه الهلاك إلى رقابنا ومتاعنا"، نفس المصدر.

مسرح الأحداث بالمغرب فلا ندري ما كان عليه حال المنطقة تجاه السلطة الوطاسية في أوائل القرن العاشر الهجري، ولم نعثر من المؤشرات على ما يفصح عن درجة من درجات العلاقة بين الطرفين، ما عدا عقد عقاري فجيجي مؤرخ في شوال عام 925 ورد فيه أن محمد بن إبراهيم بن معلي وأخاه بلقاسم دفعا مبلغ خمسة مثاقيل ذهبا تبرا بالوزن الزياني لاسترجاع ربع ما باعه أبوهما "على وجه الإكراه" (1). وقد يحيلنا مضمر كلمة الإكراه على حاكم يمثل سلطة مركزية، وفي نفس الوقت ربما تعلق الأمر فقط بنزاع حول أملاك بين عائلتين فرضت إحداهما رغبتها بالقوة على الأخرى لفترة من الزمن قبل تمكن المعتدى عليهما من استرجاع ملكهما.

وأسندت السلطة لعبد الله الغالب السعدي بعد اغتيال أبيه محمد الشيخ عام 1557/864 فلجأ إخوته عبد المالك وأحمد والمامون إلى الحاكم التركي بتلمسان، حسن بن خير الدين، ومن هذه المدينة شد عزم الأخوين عبد المالك والمامون لغزو الواحة الفجيجية. ورد هذا الخبر في كتاب الراهب "خوان باتيستا" عن مولاي عبد المالك دون الإشارة لتاريخ الحدث. وذكر الراهب أن الأخوين تمكنا من الاستيلاء على فجيج والاستقرار بقصبتها لفترة قصيرة من الزمن. وكانت فجيج آنذاك داخلة في نطاق سيادة أخيهما السلطان عبد الله الغالب، وقد تمكنت جيوش هذا الأخير من استردادها من لدن عبد المالك الذي أبدى شجاعة نادرة في المقاومة وسط أنصاره بعد فرار أخيه المامون بمعية "رجاله من العلوج" (2). واستنادا إلى كلمة "علوج" التي أوردها الراهب فإن الأخوين عبد المالك والمامون قدما لغزو فجيج

(1) ضمن مجموعة من المعاملات العقارية كتبت على رق غزال تتراوح تواريخها ما بين 995-941 هـ)، في ملكية صاحبها.

(2) كتاب الراهب "خوان باتيستا" عن مولاي عبد المالك، نشر عام 1577 ، تقديم وتعليق "مرتيديس غرتيا أرنال"، تعريب أمينة اللوه، **مجلة البحث العلمي**، عدد 34، عام 1983، ص 122 .

واحتلالها بمساعدة حاكم تلمسان التركي بالعتاد والرجال المحاربين الأتراك. ولا ندري ما إن كانت هذه المحاولة من الأخوين بمساعدة الأتراك، جاءت قبل أو بعد فشل آخر لحسن بن خير الدين باشا حاكم تلمسان، الذي قاد حملة كبيرة للاستيلاء على فاس لكنه مني بالهزيمة في وادي اللبن والتجأ بما تبقى من جنوده إلى باديس عام 1558/965 (1). وعلى أية حال، فقد شهدت فجيج أحد الفصول الأولى للصراع على السلطة بين عبد المالك وأخيه عبد الله، ولم يكن اختيار عبد المالك لهذه الواحة كمنطلق له فيما تشوفت إليه نفسه، محض صدفة بل هو اختيار مدروس لما تشكله الواحدة من نقطة عبور أساسية لقوافل التجارة الصحراوية، ولكونها موردا اعتياديا لقبائل المنطقة.

ثم تعرضت فجيج لهجوم أتراك الجزائر عام 1577/985 بأمر من الوالي رمضان باشا، فانخرط الفجيجيون مع العسكر التركي بقيادة حسن سوري في قتال عنيف انتهى بقبول الفجيجيين دفع غرامة مالية قدرها ؛عشرون مائة دينار نصفها سلعة ونصفها دراهم" (2). ولقد ترك هذا الحادث امتعاضا وقلقا شديدا في نفس السلطان عبد المالك السعدي الذي اعتلى العرض قبل ذلك بسنتين، فبادر بمكاتبة السلطان العثماني مراد الثالث في هذا الشأن، ويتضمن أرشيف رئاسة الوزراء التركي مراسلة في الموضوع صادرة من السلطان العثماني مؤرخة في 15 ربيع الثاني عام 1577/985 تنص على عزل الوالي التركي في الجزائر رمضان باشا الذي تجرأ وأمر بمهاجمة فجيج "التابعة لمملكة فاس" وتذعير أهلها (3)، وتأمر الوالي

---

(1) أحمد الناصري: الاستقصا. ج 5، ص. 39. وربما استغل انتشار الوباء العظيم الذي عم سائر المغرب في نفس العام (965 هـ) وألحق خسائر كبيرة بالأرواح وأسباب المعاش واستمر إلى عام 966 هـ ليقوم بحملته تلك. لقد قال الناصري عن نتائج هذا الوباء بأنه "افنى كماته وابطاله". الاستقصا، ج. 5، ص 88 .

(2) تقييد خاص، أنظر أحمد مزيان في المرجع السابق، ص 86 .

(3) ورد في الوثيقة التركية أن رمضان باشا ذعر أهل فجيج بما قدره "14.000" فلورا حازها لنفسه.

الجديد حسن باشا "بالكف قطعيا"عن مهاجمة أراضي عبد المالك الذي "أظهر صداقة وإخلاصا" للباب العالي، بل يجب على الوالي الجديد أن يقدم المساعدة للسلطان السعدي في حالة تعرضه لهجوم الأعداء (1).

وفي عهد السلطان أحمد المنصور تجددت نوايا الحكام الأتراك في الجزائر بغزو البلاد الفجيجية. وحالما اطلع المنصور على النبأ بادر بالكتابة إلى محمد حسن باشا والي الجزائر، مهنئا بولايته على ذلك البلد ومحذرا مما عسى أن ينشأ من سوء العلاقة بين البلدين بسبب محاولة حاكم تلمسان "مد اليد لأعراف عمالتنا بلاد فجيج" (2)، سيما وأن صلات المودة والعلاقة الطيبة بين السلطانين السعدي والعثماني صارت متينة بعد الانتصار المغربي في معركة وادي المخازن، وما تلاها من إصلاح الجفاء الطارئ بين البلدين (3). ورسالة أحمد المنصور للوالي التركي في الجزائر رغم ما ورد فيها من رغبة أكيدة للحفاظ على العلاقات المتميزة الموصولة بينه وبين السلطان العثماني، إلا أنها في آن واحد كانت حازمة في تحذيرها، فلم كل هذا الاهتمام بمنطقة نائية في الطرف الجنوبي الشرقي من مملكة المنصور؟ هل هو غطاء لما كان يروم القيام به من تمهيد غزو السودان؟ إن تجهيز العساكر وإيصالها لفجيج في ربيع عام 990 هـ / 1582 واقتضاء خراجها (4)، ومن ثم دفع العساكر ل؛فتح" واحات توات وتيكورارين يكشف عن خطة تتوخى تركيز السلطة السعدية في أحد معابر التجارة الصحراوية وتأمين الظهر لحملته الكبيرة في اتجاه السودان، بعد أن "يسر لهم الظهر ومؤونة السفر" (5). لكننا نستنتج أيضا أن هذا التركيز

(1)دفتر المهمة 419/30- ص، 179، 421- ص. 180-467، ص 167 .
أرشيف رئاسة الوزراء التركي / أسطمبول. لقد تفضل ذ. بن حادة عبد الرحيم بإمدادي بهاتين الوثيقتين.
(2) مجهول . رسائل سعدية. مخطوط خ. ع. الرباط، رقم : 278، ص 7، رسالة مغفلة من التاريخ.
(3) يتحدث الناصري في الاستقصا عن ذلك الجفاء. انظر ج. 5، ص 96-97 .
(4) أنظر أحمد مزيان في البحث السابق.
(5) الفشتالي عبد العزيز بن محمد: "ماهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء". مختصر الجزء 2، 1944، تحقيق عبد الله كنون. ص 36-37 .

ليس من أجل هذا الغرض فحسب، بل أن السياسة السعدية تجاه الأتراك في الجزائر استهدفت منذ عهد السلطان محمد الشيخ وضع اعراف قارة لحدود مأمونة ومعترف بها بين البلدين، وهذا ما فهمه الأتراك من جهتهم منذ البداية، ولذلك بعثوا بسفارتهم من أجل ذلك الغرض في عهد السلطان محمد الشيخ عام 1553/961 يرأسها محمد بن علي الخروبي الطرابلسي "إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه" حسب تعبير الناصري (1).

وما نستنتجهُ من كل المعطيات المطروحة في هذه النقطة، هو أنه لأول مرة بعد نهاية عهد وحدة أقاليم الشمال الإفريقي تحت سلطة واحدة في عهد المرابطين والموحدين، وبروز الكيانات الإقليمية في كل من فاس وتلمسان وتونس، يظهر وعي بالمجال الترابي المغربي في الأقاليم الشرقية والجنوبية المتاخمة للجزائر، لدى السلطة المخزنية وعند سكان المنطقة على السواء،

وتميز العهد العلوي الأول في المنطقة الشرقية من المغرب بشن الغارات الكثيرة على الأتراك داخل الجزائر. فقد شن السلاطين الثلاثة -مؤسسي الدولة العلوية- (مولاي محمد، رشيد، إسماعيل)- أكثر من عشرين غارة على مدى قرن من الزمن (ما بين 1042-1137 هـ)، على الغرب الجزائري من الشمال إلى الجنوب، انطلاقا من تلمسان وأطرافها وجنوب وهران إلى شرق بلاد فجيج في اتجاه الغاسول والأبيض والأغواط وإلى بلاد الزاب.

ولقد ورد في تقييد محلي أن مولاي محمد بن الشريف "دخل بلاد فجيج، يوم الخميس ثاني عشر شعبان عام اثنين وأربعين وألف" ثم أضاف التقييد "نوره الله وسخر له البلاد والعباد" (2). وهذه الإشارة تفيدنا عن سياسة السلطان محمد

(1) الاستقصا. ج 5، ص 27 .

(2) تقييد خاص أورده بنعلي محمد بوزيان في: "واحة فكيك"، 1987، ص . 49 .

الشريف الهادفة إلى بناء نواة دولة في المجالات الشرقية القريبة منذ هذه الفترة المبكرة، مع أننا نعلم من المصادر أن بيعته تمت بسجلماسة عام 1640/1050 (1). وقد مهد لبيعته بشن جملة من الغارات في مجال الصحراء الشرقية لإثبات جدارته بتحمل مسؤولية الملك، كمثل مهاجمته لحصن تبوعصامت عام 1633/1043 (2). وعاد مولاي محمد لغزو فجيج في شهر شوال عام 1641/1051، والتحم مع أهاليها في معركة ضارية أسفرت عن سقوط نحو مائتي قتيل وعدد من الجرحى في صفوف الفجيجيين (3). ولا ندري ما سبب هذا التغيير الذي طرأ على موقف الفجيجيين من مولاي محمد حتى أفضى بهم الأمر إلى مقاومته بقوة السلاح.

وفي عام 1650/1060 م قام مولاي محمد بأطول حركة قتالية انطلاقا من سجلماسة شملت قصور تجرارين (كورارة) وتوات، وفرض على أهاليها "مغارم من الأتاوات فملأ خزائنه ذهبا وفضة وعبيدا" (4)، ومنها هاجم بلاد الجعافرة والطرافي والغاسول والأغواط وعين ماضي وبني يطفان، إلى أن وصل تلمسان ونواحي ندرومة (5). ورجع مولاي محمد لمهاجمة تلمسان عام 1653/1064 (6)

(1) عبد الكريم بن موسى الريفي: زهر الأكم. دراسة وتحقيق آسية بنعدادة 1992، ص 108 . وذكر مختار السوسي في "إيليغ"، أنه بويع له أولا عام 1046. أما الزياني فذكر أن مولاي محمد دعى لنفسه بسجلماسة عام 1045. البستان الظريف، تحقيق الزاوية رشيد، لنيل دبلوم د. ع. في التاريخ عام 1991، ج 2، ص 20.

(2) ويسبب ذلك اعتقل والده مولاي علي الشريف لدى أبي حسون السملالي (أبو دميعة السوسي)، أنظر آسية بنعدادة في تحقيقها لمخطوط زهر الأكم، ص 106 .

(3) تقييد خاص.

(4) الاستقصا. ج. 7، ص 20-21 ، وكذلك زهر الأكم، صفحات: 112، 113، 114، وقد انفرد بجعل تاريخ هذه الأحداث كلها مجتمعة عام 1055 .

(5) أشار لهذه الأحداث كذلك العربي المشرفي في الحلل البهية، بدون ذكر التاريخ، وكذلك الزياني في البستان الظريف، ثم إن العياشي عند رجوعه من الحج عام 1074 أشار إلى غزو السلطان مولاي محمد لعرب المنطقة عندما تعرض لحال سكان قرية الكراكدة. "وقد كانوا أغار عليهم عرب الشريف مولاي محمد رحمه الله صاحب تافيلالت".

(6) الضعيف الرباطي في تاريخه. ج1، ص 107، تحقيق محمد البوزيدي، 1988، ص. 107 .

وهزم الأتراك بظاهرها، فاضطربت أحوال الغرب الجزائري على الأتراك واشرأبت الرعايا للانقضاض عليهم حسب تعبير صاحب الاستقصا (1)، وعلى إثرها وقع الصلح بين الطرفين وتعهد مولاي محمد بعدم تجاوز وادي تافنا (2) فيما يعقب من الأيام. لكن هذا الاتفاق لم يطبق، إذ عاود الأمير مولاي محمد مهاجمة تلمسان عام 1067 هـ / 1656 فاصطدم مع أميرها "شلبي" في معركة كبيرة انسحب بعدها إلى سجلماسة مهزوما (3). وقد أثمرت جهود مولاي محمد في غزوه للجنوب الشرقي وبلاد الظهرة وتلمسان وأحوازها عن توسع كبير للمجال الترابي المغربي في جهته الشمالية الشرقية إلى نقطة وادي تافنا.

بعد خلافة المولى الرشيد لأخيه مولاي محمد بحوالي أربع سنوات 1078 هـ / 1167 عادت المنطقة إلى واجهة الأحداث في إطار الصراع على السلطة بين مولاي رشيد وابن أخيه محمد الصغير بن مولاي محمد وأخيه عبد الحفيظ. فبعد حصار الرشيد لابني أخيه محمد بسجلماسة لعدة شهور من عام 1076 هـ / 1665 (4) فر هذان الأميران إلى قصور توات وكورارة فتزودا منها بما استخلصاه من خراج أهلها، ثم سارا منها إلى القصور الفجيجية واحتلاها لفترة من عام 1078 هـ / 1667 بعد معارك طاحنة مع أهلها وقبيلة العمور (1)، ومن فجيج

(1) أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا. ج 7 ن ص. 26 .

(2) وقع هذا الصلح إثر تبادل الوفود والرسائل بين مولاي محمد والوالي التركي في الجزائر الباشا عثمان الإصطنبولي ما بين منتصف رجب الفرد وأواخر شعبان عام 1064، أنظر الضعيف الرباطي، ج. 1، : 111-114

(3) زهر الأكم. ص110. أنظر كذلك القادري في نشر المثاني. ج 2، ص 87، وهو يؤرخها في عام 1068، والضعيف الرباطي الذي أورد التاريخين معا، ج 1، ص 115

(4) زهر الأكم. ص 135، الاستقصا يقدر المدة في 9 شهور، ج 7، ص 33 .

(5) أنظر أحمد مزيان. المرجع السابق. ص 101 .

اتجـهـا إلى الظهـرة والأبيض وهناك اصطنعـا الأتبـاع ممن دخل طوعـا أو كـرها في طاعتهما، كمثل عرب بني عامر وأولاد عبد الله العموريين وسويد وغيرهم" وفرق فيهم الأموال" (1). لكن الرشيد ما كان ليمهل الأخوين حتى يستفحل أمرهما في تلك المنطقة العامرة بالقبائل المستعدة لِلَيّ أعناقها لكل داعي سلطة حازم يغدق عليها الأموال أو يقهرها بقوة السلاح فتخنع له بالطاعة ولو لحين، فسارع لقطع دابر هذه المحاولة في المهد بجيش كبير من بعض قبائل عرب المنطقة نفسها، كأولاد جرير وأولاد أنهار وغيرهم، فطارد بهم ابن أخيه إلى عين العسل ثم إلى البيض، فقبض عليهما بعد انهزام جموعهما، واستولى على ما كان بيدهما من الأموال والعبيد (2). وبموازاة هذا العمل العسكري قام بحفر عدة آبار على الشط الغربي من بلاد الظهرة في نفس عام 1668/1079، دعيت فيما بعد بآبار السلطان لتزويد قوافل الحجيج بالماء العذب في ذهابها وإيابها، وكذا سقي الأعراب الواردين لتلك الجهة بمواشيهم (3).

ويسجل صاحب زهر الأكم ومن نقل عنه كالعياشي المكناسي في "زهر البستان" أن مولاي رشيد عاد إلى الظهرة عام 1671/1082 بغرض الصيد والاستجمام وسط أعراب الأحلاف بعدما أراح جيشه من الحركة والقتال (4)، ولاشك أن هواء الظهرة الصحي وكثرة مصيدها (طرائدها) كانا من جملة الحوافز التي دفعت به إلى حفر الآبار المذكورة (5).

---

(1) زهر الأكم. ص138 .

(2) زهر الأكم. ص 138-139 . أنظر كذلك الضعيف الرباطي في تاريخه.

(3) الضعيف الرباطي في تاريخه. ج. 1، ص 153 .

(4) زهر الأكم. ص 141-142، ومحمد العياشي. زهر البستان في إخبار مولانا زيدان. مخطوط خ. ع. الرباط.

(5) لم يطل المقام بمولاي رشيد في الظهرة إذ غادرها على عجل لما سمع بخبر تمرد أخيه مولاي أحمد بن محرز خليفته على مراكش وأعمالها. أنظر: "زهر الأكم"، ص 142

وقام مولاي إسماعيل كسلفيه مولاي رشيد ومولاي محمد، بعدة حركات قادها بنفسه أو أمر على قيادتها أبناءه وقواده المشهورين إلى بلاد الظهرة وفجيج وقصور الجنوب شرقا إلى بلاد الزاب، وقد بلغ مجموعها ما بين 1089-1110/1678-1698 أكثر من خمس حركات، والذي نستنتجه من تعدد هذه الحركات ومثيلاتها من قبل في عهد الرشيد ومحمد، أن قبائل وقصور المنطقة لم ترحب بالسلطة العلوية بسهولة، بعدما أبدى هؤلاء السلاطين اهتماما متميزا بربط تلك الجهات ربطا مباشرا بسلطتهم داخل المغرب. ولم يكن أهالي الظهرة ولا القصور شرق فجيج، وبواديها في جنوب الجزائر الحالية يخضعون لأي سلطة مركزية خضوعا مباشرا من قبل، سواء كانت سعدية أو تركية. وكانت القبائل العربية مثل: احميان والعمور وأولاد جرير وذوي منيع والمهاية وأولاد سيدي الشيخ والطرافي وغيرها على درجة كبيرة من الاستقلال في تصريف شؤونها، وكانت تفرض قدرا من السيادة على تلك الجهات، فلم تكن ترغب في افتقاد هذا الامتياز لصالح أي سلطة مركزية في الشمال، علاوة على إرغامها بدفع الواجبات والمغارم والتجنيد في الحركات، وهذا ما يفسر تعدد إرسال التجريدات العسكرية إلى المنطقة لمعاودة إخضاعها في العهد الإسماعيلي على الخصوص، فقد توجه السلطان إسماعيل عام 1089/1678 بالحركة إلى الظهرة والصحراء الشرقية، فأقبلت عليه وفود الأعراب من ذوي منيع ودخيسة وأحميان والمهاية والعمور وأولاد جرير وسقونة وبني عامر

(1) زهر الأكم. ص 141-142، ومحمد العياشي المكناسي. زهر البستان في أخبار مولانا زيدان. مخطوط خ. ع. الرباط .

(2) لم يطل المقام بمولاي رشيد في الظهرة إذ غادرها على عجل لما سمع بخبر تمرد أخيه مولاي أحمد بن محرز خليفته على مراكش وأعمالها. أنظر: "زهر الأكم"، ص142 .

والحشم، فجندهم في حركته المتجه بها إلى القويعة ومنابع وادي شلف (1). وفي عام 1682/1093 "ولى الباشا منصور الرامي على تازة والريف ووجدة" (2). وقد نفذ عدة غارات على الأتراك بلغ مداها في عمق التراب الجزائري إلى بلاد الزاب (3). وقبل حركة ابن الرامي هذه كانت قد توالت على المغرب سلسلة من الكوارث ابتدأت بظهور الجراد "بحوز مراكش إلى سلا إلى تافيلات فأفسد الجريد، واشتـد الغـلاء" (4)، وقد تكون الواحات الأخرى الشرقية من توات وتيكوراين إلى فجيج وما يليها شرقا، قد تعرضت لفساد هذا الجراد.

وفي أعوام 1678/1089، 1679/1090، 1680/1091، كان المغرب عرضة لوباء عظيم نتج عنه قحط وانقطاع للسبل (5). ولا يفوتنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه الكوارث الطبيعية قد شجعت على تنظيم هذه الحركات في ذلك الوقت بالذات انتهازا للفرصة ، بما يكون قد حل بالقبائل المغزوة ومصادر عيشها من الخراب، فيسهل إخضاعها بأقل التكاليف؟ في الوقت الذي عم فيه الوباء سائر أنحاء المغرب من تطوان ومكناس وفاس في الشمال إلى تافيلالت وتوات في الجنوب. "وأفنى الطاعون من مدغرة وتافيلالت [وتوات] ما لا يحصى" (6).

ثم قام ثانية عام 1682/1094-83 مبأمر السلطان إسماعيل بمعاودة الحركة إلى "بلاد فقيق واستولى عليها وفتحها إلى جهة الجريد" (7). وفي إشارة لصاحب "زهر

(1) العربي المشرفي: الحلل البهية. ص 114، نقلا عن الزياني في البستان. ج 2، ص 134 .
(2) زهر الأكم. ص 175 .
(3) نفسه.
(4) القادري: نشر المثاني. ج 2، ص 232 .
(5) أنظر الزياني في البستان. ج 2. ص 136 ن والريفي في زهر الأكم. ص 165 .
(6) الضعيف الرباطي. المصدر السابق، ج. 1، ص 163 وهو يتحدث عن طاعون عامي : 1089 و1090. أنظر كذلك محمد المكي بن ناصر في "الدرر المرصعة" عن وباء 1090 هـ .
(7) زهر الأكم. ص 175 .

الأكم" أن السلطان إسماعيل رد "مولاه الباشا منصور إلى تلك العمالة الكبيرة والقبائل الكثيرة" (1)، ولم يحدد تاريخ هذه الحركة الثالثة، لكن تقييدا محليا أرخها في أوائل ربيع الأول عام 1692/1104 (2)، وأضاف أن منصور الرامي هاجم قصبة شرفاء بني سكون في الواحة الفجيجية وهدمها، والجدير بالذكر أن هذه القصبة كانت وحدها بين العديد من القصبات والقصور الفجيجية التي تعرضت للتدمير ولم نعثر على تعليل لهذا الحادث في التقييد الذي انفرد بذكره.

وفي عام 1101 نزلت بعض قبائل احميان بأحد مزارات المرابط عبد القادر بن محمد سيدي الشيخ بمحل يدعى "أجدل:، بجوار قصر الحمام الفوقي وسط الواحة الفجيجية. وتعتبر قبائل أحميان في عداد القبائل التي تخدم زاوية الشيخ عبد القادر بن محمد، وما كان من مولاي المامون الذي يراقب تحركات قبائل المنطقة الجنوبية الشرقية انطلاقا من مركز حكمه بتافيلالت إلا أن باغتهم بجيش كبير، فهاجمهم "وقتل منهم نحوا من سبعين نفسا" (3). ولم يوضح التقييد الذي أورد الخبر عدد أفراد هذه القبائل المجتمعة حول ذلك المزار، ولا سبب هجوم مولاي المامون عليها.

ويتضح من الحملات المتكررة للسلطان إسماعيل نفسه أو أبنائه وقواد جيوشه على البلاد الممتدة شرق وشمال شرق فجيج إلى الأغواط والزاب، أنها قد أتت أكلها، إذ أصبح حكم السلطان إسماعيل لكامل بلاد الظهرة واقعا معاشا حسبما

---

(1) نفسه.

(2) وثيقة خاصة كتبها محمد بن بلخير بن الحاج عبد الجبار. بدون تاريخ كتابتها.

(3) تقييد محلي خاص لقد سبق أن تعرضت قصبة أولاد سيدي الشيخ "باجدل" لهجوم الأمير مولاي محمد في السابق عام 1647/1057. فهل كانت الزاوية البوشيخية وأتباعها من القبائل لا ترغب بالدخول في طاعة العلويين؟

(4) نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس مخطوط سبق ذكره.

يفهم من إشارة أحمد بن عبد القادر القادري الذي مر على الظهرة قادما من الحج عام 1689/1101 "وارتحلنا من الغد [من المشرية] ودخلنا الظهرا (...) وكثر الخير عندنا لما دخلنا طاعة خليفتنا السلطان (...) مولانا إسماعيل بن الشريف" (1). والمشرية في عرف أهالي المنطقة هي آخر امتداد لبلاد الظهرة من ناحية الشرق. أما الهشتوكي في رحلته الأولى إلى الحج عام 1684/1096 فقد نصح الحجاج والمارين بالطريق الصحراوي أن لا يتجاوزوا في معاملاتهم التجارية بالعملة الزيانية الرائجة بفجيج "أعمال بوسمغون" الواقعة شمال شرق عين الصفراء. وهذا يدل على ارتباط هذه الجهات اقتصاديا بفجيج.

وما يلاحظ في المعارك التي خاضها السلاطين العلويون الثلاثة منذ نشأة دولتهم مع مولاي محمد بن علي الشريف إلى مولاي إسماعيل، في بلاد الظهرة ومنطقة الجنوب الشرقي الصحراوي، أنهم لم يلتحموا فيها أبدا مع أي قوة تركية، وهذا دليل على أن سلطة الأتراك لم تكن موجودة في هذه المنطقة من قبل. والمصادر المعتمدة في البحث لا تتحدث عن تجاوز الجيوش السلطانية في حركاتها إلى هذه الجهات حد بلاد الأغواط والزاب، ويلي هذه البلاد في شمالها الشرقي مدينة بيسكرة وعمالتها، ويفيدنا الحجاج المغاربة المارين على هذه المدينة أثناء هذه الفترة (2)، أنها كانت آنذاك تحت حكم الأتراك يأخذون جبايتها ويعينون حكامها وقضاتها، ولم يتحدث هؤلاء الحجاج عن الحكم التركي في أي بلدة أو قصر من القصور في المجال الممتد غرب بيسكرة، سواء ما يقع منها على الظهرة أو

(1) نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس. مخطوط سبق ذكره.
(2) أنظر الهشتوكي في رحلته الأولى. ثم رحلة أبي العباس أحمد الناصري إلى الحج عام 1121/1709-1710 .

في الواحات الجنوبية، ومن ثم أصبحت بلاد الأغواط آخر امتداد النفوذ المغربي في الجهة الجنوبية الشرقية، فلم ينازعهم حكام بيسكرة الأتراك قط في ذلك إلى ما بعد وفاة السلطان إسماعيل.

وإذا كان السعديون قد حافظوا على الهوية المغربية للبلاد الفجيجية التي تعرضت لهجوم الأتراك وأعوانهم، فإن العلويين ابتداءا من مولاي محمد حاولوا نقل هذه الهوية أبعد من ذلك إلى بلاد الأغواط والزاب جنوبا وشرقا، بل وشدوا العزم على اقتطاع الغرب الجزائري بكامله من يد الأتراك، وما محاصرتهم لتلمسان ومهاجمة أطرافها إلى مدينة المعسكر (1) لأكثر من عشر سنوات، إلا دليل على ذلك. وقد جاء التصريح بتلك النوايا منذ وقت مبكر في جواب الأمير مولاي محمد على رسالة والي الجزائر الباشا عثمان، المشار إليها سابقا. مثل: "وقلع أوتادكم مع الروم بعون الله من الغرب على يد إيالتنا" (2). وكذلك الأمر في عهد السلطان إسماعيل، فرغم موافقته على التصالح مع أتراك الجزائر إثر قدوم وفد السلطان العثماني لهذا الغرض وحلوله بمكناس عام 1695/1107-96 (3)، إلا أنه واصل مهاجمته لأراضي الغرب الجزائري عام 1699-1700 (4)، ثم خرج بنفسه في جيش كبير عام 1121 هـ /1709-1710 (5) فاخترق به عمالة تلمسان ووهران ووصل إلى بلاد شلف

(1) قام مولاي زيدان بهجومات عديدة على شمال غرب الجزائر استهدفت تلمسان ونواحيها والمعسكر حيث نهب فيها مقر إقامة الباي. ولأجل هذا السبب عزله أبوه إسماعيل عن ولاية وجدة. أنظر الزياني في البستان. ج. 2، ص. 156 .

(2) الضعيف الرباطي. ج. 1، ص 113 .

(3) البستان. ج. 2 ص 154 والقادري في نشر المثاني أرخها في عام 1109 هـ / 1697-98 م ، ج 3، ص 79.

(4) يذكر صاحب زهر الأكم أن السلطان إسماعيل بعث في هذه السنة بولده الأمير عبد الملك "بجيش كثيف لحصار تلمسان".

(5) العربي المشرفي، الحلل البهية. قتل في هذه السنة أشهر قواده في المنطقة الشرقية الباشا منصور الرامي، والقائد عبد الله بن أحميدة.

والطويعة، واستغرق مقامه بها نحوا من تسعة أشهر، التقى خلالها مع الأتراك في عدة معارك طاحنة. وكان إلحاح العلويين لاستخلاص مدينة تلمسان بالخصوص وتحريرها من الحكم التركي، لأجل ما لمسوه من العداوة الكامنة في نفوس أهلها ضد الأتراك. فقد تحدث "محمد بن سليمان الجزولي التلمساني" في "كتاب كعبة الطائفين" (1) عن انتفاض أهالي هذه المدينة ضد الأتراك في أكثر من مرة بسبب ظلمهم. فهل حاول السلطان إسماعيل بحركاته المتعددة هذه أن يبني سلطانا واسعا في اتجاه الغرب الجزائري على حساب الأتراك مثل ما فعل السعديون عند ضَمِّهِمْ للسودان في عهد سلطانهم أحمد المنصور الذهبي؟

لقد تبين أن مفهوم المجال الترابي والتحكم في مداه، مما كان يتبع للحكام المغاربة أو الأتراك على السواء، لم يكن نتاجا لاتفاقيات مكتوبة ولا خاضعا لحدود قارة ودائمة، بل هو نتاج لقوة المدفع وشخصية الحاكم، ومدى سيطرته على الأوضاع الداخلية في بلاده. وقد رأينا أن الدولة العلوية الناشئة وهي في عنفُوَّان شبابها، كيف تمكن سلاطينها الثلاثة أن يخلقوا بإصرار المحارب الطموح مجالا ترابيا جديدا يفوق في امتداده الجغرافي ما تركه السعديون من قبل، وحاولوا توسيع مداه والحفاظ عليه بقوة السلاح، واستمر الأمر على ذلك إلى ما بعد وفاة السلطان إسماعيل بوقت طويل (2).

(1) ألفه في أواخر القرن 17 م لشرح قصيدة نظمها أستاذه موسى بن علي بن موسى اللالي وضمنه معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة، وشاهد بنفسه التجاء العديد من سكان تلمسان إلى منزل أستاذه الشيخ العبدلي للاحتماء به في فترة حكم القائد التركي محمد سوري، أنظر سعد الله في "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر". ج 1، ص 159-163 .

(2) صاحب زهر الأكم لخص نفوذ السلطان إسماعيل بقوله: "وكانت طاعته قد عمت جميع بلاد الصحراء وتوات وفقيق وأطراف السودان وعلى تيغاز وسوس الأقصى". ص 202 .

2- السلطة العلوية بين القوة والضعف

أ- اختيار فجيج مركزا لحكم الجنوب الشرقي

عين السلطان إسماعيل ابنه مولاي علي للإشراف على شؤون المنطقة، فاتخذ هذا الأمير فجيج مقراً لإقامته عام 1118 هـ / 1706-07 وقد سجل علي التازي في منهل الظمآن أن مولاي علي كان سفاكا للدماء. شديد القساوة في معاملته للمرابطين" ما ترك أحدا من المرابطين في تلك النواحي إلا قتله" (1). ولعل هؤلاء ممن جاهروا بمعارضة سياسته المائلة إلى العنف والشطط في استعمال السيف مع أهالي المنطقة، ومن ذلك هجومه على زاوية (قصر) بني كسون وتشتيت أهلها بين القصور الفجيجية في يوم السبت 3 شوال عام 1706/1118 (2)، أي بعد قدومه إلى المنطقة بوقت قصير. أما المرابط الشيخ محمد بن أبي زيان، فعلى العكس من ذلك، إذ يذكر صاحب منهل الظمآن أن شيخه هذا بعث إليه الأمير علي بن إسماعيل لما حل بفجيج ليقدم عليه "بقصد الزيارة (...) فلما قدم عليه تلقاه بالقبول والمبرة والإكرام (...) فجعل الشيخ رضي الله عنه يعظه ويحذره (...) وقبضه من أذنه وقال له أستوصي خيرا بالمساكين وافترقا بخير:" (3). لقد توخى صاحب النص بهذا الوصف المبالغ فيه الانتصار لشيخه وإعلاء شأنه بين متصوفة تلك المنطقة، لكن ما يفسر العلاقات الطيبة المنسوجة بين شيوخ الزاوية القندوسية والسلاطين العلويين منذ ذلك الوقت، هو مسالمة الأولين للأخيرين وخدمة المخزن العلوي. بما يجلب

(1) مخطوط في الخزانة الصبيحية بسلا، أنظر عنه كذلك صاحب طهارة الأنفاس ومحمد مرزاق في بحثه السابق. ص 224 .

(2) تقييد محلي خاص في ملكية صاحبه.

(3) علي التازي، منهل الظمآن.

عليهم الرضى وتوقير الزاوية ورعايتها، "ولم يزل يحب السلطان [أي محمد بن أبي زيان] ويرشد الناس لطاعته ويقول لهم لولا مولانا إسماعيل ما زرتمونا ولا زرناكم" (1).

وإذا كانت علاقة العلويين مع الزاوية السكونية بفجيج قد ساءت إلى حد تدميرها مرتين في وقت منصور الرامي، ومولاي علي بن إسماعيل، فلم يكن حظها بأحسن من حظ الزاوية الدلائية، فإن علاقة باقي الزوايا والأسر الشريفة في الواحة الفجيجية مع السلطة العلوية كانت أفضل، تترجمها العديد من ظهائر التوقير والتحرير المرسلة إلى شيوخها منذ عهد السلطان مولاي رشيد. فهذا المرابط عبد الوافي الفجيجي تلقى حفدته ظهير توقير واحترام من السلطان مولاي رشيد مؤرخ في 29 شعبان 1669/1080، وظهيرين إسماعليين متعاقبين، الأول في 22 جمادى الثانية 1110 هـ / 1698 م ، والثاني في صفر عام 1699/1111 هـ . وتلقى حفدة العلامة "الولي الصالح (...) سيدي عبد الجبار "ظهيرا إسماعيليا للتحرير والتوقير يجدد به ظهائر سلفه الرشيد، مؤرخ في 6 رمضان عام 1708/1120. وكانت الأسر العلمية الأخرى المنسوبة للشرف بفجيج والمنطقة، تتلقى بدورها نفس الظهائر التي تشملها بالرعاية وتسقط عنها كافة الكلف والواجبات المطلوبة من العامة، منها على سبيل المثال: أسرة الراشديين، حيث تلقى منها الفقيه محمد بن محمد الراشدي ظهير تحريره وأولاده من كل مغرم ووظيف من السلطان مولاي رشيد قبل وفاته بقليل (2)، بتاريخ جمادى الأولى عام 1671/1082، جاء فيه : "ويسلك فيه وفي أولاده (...) ذوي العلم ويعاملون معاملة أهله ويسبل عليهم رواق الاحترام"، وقد

---

(1) نفسه.

(2) توفي في 11 ذي الحجة عام 1082، أنظر تاريخ الضعيف الرباطي، ج. 1، ص 154 .

عين هذا الفقيه من لدن السلطان إسماعيل قاضيا على "بلاد فجيج عن آخرها (1) (...) فلا كلام لأحد غيره فيها" في أواخر جمادى الأولى 1114 هـ / 1702 م (2).

ولم يشد السلاطين العلويون في هذه الحالة عن مسلك السعديين مع كل زاوية أو أسرة علم ذي شأن، أظهرت من حسن النوايا والخدمة من أجل إثبات وتعزيز النفوذ المخزني في المنطقة ما جعلها تحظى بالرعاية والتمييز عن غيرها.

ولم نحصل من الوثائق المحلية ولا المصادر العامة على ما يفيد عن ولاة المنطقة قبل مجيء مولاي علي بن إسماعيل، ما عدا الإشارة الصادرة في مؤلف الهشتوكي غداة رحلته الحجية لعام 1096 (3)، عن تعيين أمير الركب لهذه السنة المسمى "محمد بن هاشم الشريف" للطالب "أبي القاسم الدخيسي" عاملا على واحة بشار، جاء ضمن الركب من سجلماسة. وورد في مضمن عقد شراء الأخوين "محمد ومقران بن زيان أمزيان" المدعو "محمد بن مزيان" خروبة ماء من ساقية مغني المنسوبة لأولاد "ودرن" بثمن 10 دنانير دفعها البائع في "مغرم السلطان" كتب في أواخر دجنبر عام 1692/1104 (4)، وهذا التاريخ هو نفسه الذي نزل فيه منصور الرامي بالواحة الفجيجية.

وستشهد المنطقة تركيزا نافذا للسلطة المخزنية مع ولاية الأمير عبد المالك عام 1708/1120 (5)، وقد استقر بقصبة العبيد المخزنية بالواحة الفجيجية، إثر رحيل

(1) أي أن المنطقة كلها ممثلة في قاعدتها: الواحة الفجيجية.

(2) ظهير إسماعيلي في ملكية صاحبه.

(3) هداية الملك العلام.

(4) وثيقة محلية خاصة.

(5) استنتجنا هذا التاريخ مما ورد عند الهشتوكي في رحلته الحجية الثالثة ومن مؤلف شيخه أبي العباس بن ناصر الدرعي وقد حجا معا عام 1121 هـ. وكنا في بحثنا السابق حول الواحة الفجيجية قد اعتمدنا عام 1111 هـ / 1699 كتاريخ حلول مولاي عبد الملك أميرا على فجيج ونواحيها نقلا عن العربي الهلالي في مؤلفه: "فجيج: تاريخ وثائق ومعالم". وبمراجعتنا لتنقلات مولاي عبد الملك الوظيفية وجدناه في عام 1111 هـ، يحاصر تلمسان بجيش كثيف بأمر من أبيه حسب صاحب "زهر الأكم". ص . وأنه في عام 1114 هـ طرده أخوه أبو النصر من ولاية درعة وحل محله، حسبما ذكره الزياني في البستان، ج 2، ص 157. وحسب هذه البيانات إذن لم يتم تعيينه أميرا على المنطقة الجنوبية الشرقية وبلاد فجيج إلا بعد هذه السنة الأخيرة أعلاه (1114 هـ).

أخيه مولاي علي منها. وقام -بعد مرور حوالي 9 شهور على ولايته - بأكبر حركة لإخضاع وجباية القبائل والقصور الواقعة ما بين جبل العمور شمال شرق فجيج إلى بلاد الأغواط عام 1121/1709-1710. وقد انفرد الهشتوكي بذكر هذا الخبر، ونقل معلومات هامة ومفصلة عن هذه الحركة في حجته من نفس عام 1121، نقلا من ورقة وجدها بيد الفقيه موسى بن أحمد الدهصاء، بعين ماضي (1)، ودون فيها ما عايشه من أحداث هذه الحركة وما نقل إليه شفاهيا من جهات أخرى، وكلها أخبار طرية ما زالت آثارها بادية للعيان، لمس الهشتوكي ذلك بنفسه، حيث شاهد خارج بوسمغون قطيعا كبيرا من الغنم كان مولاي عبد الملك قد أخذه من قبائل العمور عندما أغار عليهم قبل وقت قصير. ذلك أن عبد المالك قبل انطلاقه في حركته من فجيج (2)، كان قد مهد لها بتسريب مجموعة من الجواسيس من أهالي المنطقة العارفين بأماكن تخييم القبائل الرحلية، ليجمع عنها الأخبار ويباغثها مفترقة، فلا يترك لها فرصة الرحيل أو الاستعداد للمقاومة. وقد نزل في البداية بقرية تاويل، فقدمت عليه وفود عين ماضي والأغواط وتَجْمُتْ ومن ينزل من الرحل بجبل العمور وغيرهم، فحدد لكل نصيبا يدفعه له، إما نقدا أو ما يساوي قيمته من الحلي والماشية والزرع والسمن والصوف. فأما أهل عين ماضي "فطلب منهم مائة وستون ريالا" (3)، ولم يرحل عنهم حتى استخلصها منهم. ثم نزل بأفلوا، أحد أهم مراكز العمور في

(1) ذكر أحمد بن ناصر الدرعي، وكان يرافقه الهشتوكي في نفس الرحلة أنه التقى "أحمد الدهصاء" بالأبيض وهو كبير السن، وهو من كبراء البلد وقد أبدى له شكواه وغيظه مما لحق سكان عين ماضي من جور مولاي عبد الملك وقائده عبد الله الشاوي، فصبره وواساه. المصدر السابق.

(2) بعد مغادرته لها ترك القائد محمد الصغير الدرعي المحرزي ليخلفه أثناء غيبته، أنظر الهشتوكي وأحمد بن ناصر الدرعي في رحلتيهما.

(3) الهشتوكي: هداية الملك العلام.

الناحية الشرقية، وحاز كل ما وجد بها من خزائن الرحل مما قيمته "ثمانين ألف" (1). وانتقل منها إلى "تجمت" ونهب ما فيها من متاع العرب" حتى يزكوا عنها، ومن تجمت إلى الأغواط فـ"أعطوه أموالا لا يحصى عددها من الدراهم والخيل والبغال والحمير والعبيد (...) ونهب ما فيها من متاع العرب" (2)، ورحل إلى الأبيض ومنها أغار على الرحل المقيمين بجوارها، وأخذ لهم ما مجموعة " 118.000 (3) من الغنم و 1500 من الإبل. وكان تضييقه على أهالي عين ماضي أعظم حسب قول الهشتوكي، إذ ذَعَّرَهُمْ مرتين وأفرغ ديارهم مما كان مخزونا فيها من ضروب المتاع كالزرع والتمر وقدور السمن والقطائف وأجبرهم على دفع 1000 ريالا. "وسرب لسبدو وجميع العمور وأغواط وأكسل يحملون ذلك الزرع البعض إلى المحلة والبعض إلى بلاد الغاسول" (4)، ورحل عن هذه الجهات في أواخر جمادى عام 1121-1709 هـ، في اتجاه مقر إقامته بفجيج (5).

وقد استعان مولاي عبد الملك في حركته هذه بمجموعة من القواد العسكريين المحنكين، ذكر الهشتوكي منهم القائد عبد الله الشاوي الذي خصه بصفة "الظالم". ولم يسلم مولاي عبد الملك نفسه من غضب الهشتوكي الذي أبان عنه في ثنايا هذا النص المنقول من أحمد الدهصاء، ومن مخبرين آخرين، بلور به موقفه الشخصي من

(1) لم يبين الهشتوكي هل هي ثمانين ألف ريال أم غيرها.
(2) الهشتوكي. نفس المصدر.
(3) يصعب كثيرا تصديق هذا الرقم، ولعله "11800".
(4) الهشتوكي ، نفس المصدر.
(5) يشير "كور" Cour. A, l'établissement des dynasties des cherifs: p 208 أن بوسمغون كان يحكمها أحد أقرباء السلطان إسماعيل ما بين (1122/1710-1125/1713) بينما أشار أبو العباس أحمد بن ناصر في رحلته الحجية المذكورة أنه ومن معه من ركب الحجيج لحق بهم الشريف مولاي مَحمد بن حفيد بن مَحمد بن الشريف وهم خارج بوسمغون، فارا إلى تلك البلاد من عمه إسماعيل "إذ له بأولئك الأعراب خلطة وله عندهم غنيمة ورغبنا في النزول وامتنعنا".

مظالم مولاي عبد الملك وقواده في حق أهل تلك الجهات، وخاصة منهم سكان عين ماضي، فوصف تذعيرهم للمرة الثانية بأنه عمل ظالم، وأن مولاي عبد الملك "غدر في فعله الذي عاهدهم فيه"، كما علق على ما ارتكبته محلته في قرية "أزنين" قرب الأغواط من "الفحش والظلم" بعدما عاهد أهلها بالأمان، على أنه "لم يأمر الناس بمعروف ولا نهاهم عن منكر (...) بل أدل العباد وأفسد البلاد (1). وقد يترجم هذا الموقف ما كان من توتر العلاقة بين شيخه أبي العباس أحمد بن ناصر كبير الزاوية الناصرية بدرعة والسلطان إسماعيل، أضف إلى ذلك أن أهل عين ماضي حسبما ذكر الهشتوكي جلهم طلبة علم يشتغلون بتدارس الفقه والحديث والتوحيد وتفسير القرآن وتنسب أسر منهم للشرف والولاية "فيجب على السلطان وأولاده وقواده تعظيمهم وتحريرهم" (2)، حسب قول الهشتوكي. وقد تعزى هذه المبالغة في جباية سكان تلك الجهات مصادرة مخزونات الأعراب ومواشيهم للتعويض عن زكواتهم وأعشارهم غير المؤادة في السنين الماضية (3)، إذ لم يكونوا متعودين من قبل على دفعها لأي أحد (4).

ولما حل الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي بفجيج مع من رافقه إلى الحج عائدين من الديار المقدسة في 25 شعبان من عام 1122-1713 م ، وجد بها عبد الله الشاوي قائدا للبلاد إثر مغادرة مولاي عبد الملك للمنطقة بطلب من أبيه السلطان إسماعيل (5)، وقد يكون سبب عزله من إمارة المنطقة ما وصله من أنباء تجاوزاته التي طالت

(1) الهشتوكي . المصدر السابق .

(2) نفسه.

(3) عبر الهشتوكي عن ذلك بقوله: "حتى صار هذا المأخوذ عدد سنين".

(4) نفسه.

(5) ولاه عمالة تارودانت، أنظر: زهر الأكم. ص 214 .

العامة ومن هم في عداد الخواص، كالفقيه محمد بن محمد الراشدي قاضي فجيج ونواحيها الذي عزله من القضاء وصادر أمواله (1)، فبادر السلطان إسماعيل بإرجاعه لوظيفته وتعيين عبد الوهاب الغرناطي قائدا لبلاد فجيج وما يواليها، خلفا لعبد الله الشاوي بظهير مؤرخ في 4 ذي الحجة عام 1122 / 1711 م (2).

وبقيت السلطة المخزنية مركزة في المنطقة طيلة عهد السلطان إسماعيل، فكانت تؤدى الجبايات بأنواعها من زكوات وأعشار وتكاليف وسخرة، سواء من لدن أهالي القصور أو القبائل. ففي الواحة الفجيجية حاز "محمد بن معلي الجمالي" الودغيري بستان صاحبه "الحاج بن أحمد النسب" بأمر القاضي مقابل ما كان يدفع عليه من التكاليف والوظائف السلطانية عام 1123 هـ / 1723 م (3)، ودفع "الحاج محمد بن عبد القادر بن أبي مدين الودغيري جميع المطالب المخزنية والوظائف السلطانية والصخر (كذا) "عما ورثته زوجته من نخيل أبيها منذ نزول منصور بن الرامي فجيج إلى "تاريخه" في أوائل ربيع الثاني 1722/1135 (4). وفي رسالة بعث بها السلطان مولاي إسماعيل إلى ابنه المامون عامله على سجلماسة عام 1698/1110، يؤنبه فيها لتساهله مع قبائل ذوي منيع، إذ لم يكن يتلقى إلا القليل مما رضوا

---

(1) أنظر رحلة أبي العباس أحمد بن ناصر إلى الحج عام 1121 هـ 1709-1710، وكذلك القادري في نشر المثاني، ج. 3ص 210. ونجد رأيا مناقضا لمقالة الهشتوكي في مولاي عبد الملك وتصرفاته أثناء مبايعته سلطانا عام 1727/1140 عند صاحب زهر الأكم. فقد وصفه ب"الهمام الماجد المجتهد بالليل والناس نيام (...) الأمير الناسك مولاي عبد الملك"، ص. 212. وعند القادري في نشر المثاني"... وترك ما كان يضرب على الناس من الوظائف، لأنه كان لا يريد ذلك ولا يجريها على من كان يكون عليه عاملا لأبيه". ج. 3، ص 299. أما الزياني في البستان وهو مثلهما معاصر للأحداث، علق على فترة خلافة عبد الملك بقوله: "وأمل الناس أن عبد الملك يسير بسيرة والده فخفق سعيهم فيه". ج. 2، ص 194 .

(2) وثيقة محلية خاصة.

(3) وثيقة محلية خاصة.

(4) عقد إشهاد محلي في ملكية صاحبه.

دفعه، فأمره أن يجعل عليهم وظيفا معلوما يؤدوه كل سنة (1). وأوْرَدَ اليعقوبي في "فتح المنان" صورا من شكايات أهالي المنطقة لرئيس الزاوية القندوسية محمد بن أبي زيان، عن ثقل الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية، فلم يكن يبدي لهم ما يخفيه من استنكار لتصرفات الولاة إلا عندما ينفرد بخاصته، لاتقاء غضب السلطان. وكان يهون الأمر عليهم بقوله: "سلطان جائر ولا أمة فاسدة.." وأن "ما تعطونه من الوظائف إنما هي كفارات ترتبت عليكم" (2).

ب- فترة الاضطراب

ثم شهد المغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل فترة من الاضطراب السياسي استمرت أكثر من ثلاثين عاما (1139-1171 هـ)، تعاقب فيها على الحكم سلاطين، لم تكن تتجاوز فترات حكمهم أكثر من عام ونصف إلى عامين ما بين (1139/1726-1156/1743)، ونتج عن هذه الوضعية نتائج وخيمة على جميع الأصعدة، فاستنزفت ساكنة المدن والبوادي بكثرة الحروب والانتقامات الفردية والجماعية، وعمق من هذه الوضعية الديموغرافية تدهور الاقتصاد نتيجة لقطع الطرقات وانعدام الأمن، فكثر السطو على الأموال وإفساد المزروعات، إما بفعل الإنسان أو بعوامل طبيعية مخربة كالجفاف. وتختم دائرة هذه الأزمة كالعادة بانتشار الأوبئة والمجاعات وارتفاع الأسعار. ويصور أكثر من مصدر هذه الحالة طيلة الفترة المذكورة، يجملها القادري وهو شاهد عيان، فيما شهده المغرب بعد وفاة إسماعيل بعام ونصف قائلا: "كان في ذلك قتال عظيم وحروب وتراكمت فتن في جميع

---

(1) وردت الرسالة في مخطوط "داء العطب" من تأليف السلطان عبد الحفيظ، ج. ع. رقم 11400 .
(2) فتح المنان، أنظر محمد مرزاق. في المرجع السابق. ص 226 .

أقطار المغرب وسفك في الدماء مما لا يحصى أفضت إلى فناء خلائق لا تحصى. ووقع نهب كثير في الأموال لا يحاط به وكاد أن يهلك جميع من في المغرب" (1).

لم يتحدث أي مصدر عن وضعية المنطقة في علاقاتها بالمخزن في هذه الفترة من الفوضى السياسية، ما عدا عقد عقاري يتعلق بالواحة الفجيجية مؤرخ في رجب عام 1733-1732/1145 اشترى بموجبه المدعو يحيي بن محمد بن يعو ابن جبور بن معلي الجمالي الودغيري الفجيجي "نوبة ماء من خليج الصهريج" من أعيان جماعة قصر الوداغير بثمن 24 دينارا صرفت الجماعة بعضه في مصالح القصر والبعض الآخر سددت به "مغرم السلطان" (2)، ولم يبين كاتب العقد وظيفة من استخلص مغرم السلطان. ولعلنا نجد الجواب عند صاحب زهر الأكم الذي ذكر أن السلطان مولاي عبد الله بعث قائده الجيلالي الصفار إلى بلاد تجرارين وتـــوات لقبض أعشارها عام 1734-1733/1146 (3)، ومن الجائز أن يخطئ المؤلف في هذا التأريخ فقدم تاريخ الحدث قبل وقوعه بسنة، فيكون القائد الصفار قد عرج على فجيج وما يليها جنوبا من القصور في نفس العام (1732/1145) واستخلص منها الجباية.

وفي عهد السلطان محمد بن عبد الله عادت المنطقة لتستحوذ باهتمام المخزن إثر قيام أحمد الخضر بثورته ضد السلطان في أوائل سبعينـــات القرن 12 هـ / 18 م، واتخذ قصبة العبيد بالواحة الفجيجية مقرا لإقامته. ومن هناك وجه البعثات والرسائل للقبائل وشيوخ الزوايا من القنادسة إلى تافيلالت للدخول في طاعته، وتمكن من إخضاع معظم سكان المنطقة من عرب رحل وقصوريين بمختلف

(1) نشر المثاني، ج. ص. 292 .
(2) وثيقة محلية خاصة.
(3) زهر الأكم. ص 238 .

أساليب القهر والدعاية (1)، فبعث السلطان محمد بن عبد الله جيشا مخزنيا بقيادة الباشا المسرور إلى فجيج عام 1764-1763/1177، مصحوبا "بالشيخ حمدون (2) في قبائله" للقضاء على الثائر. وقبل ذلك كان قد بعث برسائل إلى جماعات القصور الفجيجية والقبائل العربية غير الموالية لأحمد الخضر، يدعوها للتعاون مع الباشا المسرور في المهمة المنوطة به هناك. وقد تمكن العسكر المخزني بمعية من تحالف معه من السكان المحليين في التغلب على الثائر ونهب محلته بقصبة العبيد بفجيج، بما ترك فيها من المال والفراش والعبيد والإماء، قبل فراره خارج الواحة الفجيجية، حسبما جاء في رسالة جوابية بعث بها أعيان قصر الوداغير بفجيج إلى السلطان محمد بن عبد الله مع وفد ليعتذر له عما صدر من العامة الذين "افتتنوا" بالثائر واتبعوا دعوته (3).

وهذه الأحداث تزامنت مع مجاعة مهولة تعرضت لها المنطقة الجنوبية الشرقية بكاملها من تافيلالت إلى بوسمغون عام 1763-1762/1176، بسبب انقطاع المطر وفساد الزرع وضعف المنتوج المحلي من التمور، فالتجأ الناس إلى أكل النبات البري وجثت الحيوانات، حسبما نقله تقييد محلي (4).

في عام 119 هـ / 1707-1708 م، تعرض القسم الشرقي من بلاد الظهرة وقصور شمال شرة فجيج كـ "البيضاء" والطويلة ودير الكاف وجبل العمور وجبل الملح وتاولالة ورأس وادي شلف والحليات ووادي القصب وتاجموت وعين ماضي

(1) أنظر القادري في نشر المثاني. ج. 4، ص 158، والزياني في البستان.
(2) لم نعثر على تعريف لهذا الشخص، وربما تعلق الأمر بأحد الشيوخ المشهورين لقبائل احميان حيث ينعت بعضهم بهذه الأسماء.
(3) الرسالة غير مؤرخة لكنها كتبت مباشرة بعد الأحداث. وبعث السلطان محمد بن عبد الله رسالة جوابية لأعيان قصور: زناكة والمعيز والعبيد بفجيج يثني على وقوفهم بجانب العسكر المخزني. وثيقة خاصة.
(4) مؤرخ في نفس التاريخ أعلاه، راجع أحمد مزيان في المرجع السابق. ص 107-108.

والأغواط وافلو..." لحملة تركية بقيادة باي معسكر والغرب الجزائري "محمد الكبير الكردي"، دون تفاصيلها يوما بيوم "أحمد بن هطال" مرافق الباي وكاتبه. وكان هدف الحملة في الظاهر هو إجبار أهالي تلك الجهات للاعتراف بالسلطة التركية التي لم تصل إليها مطلقا من قبل (1)، أما ما لم يفصل عنه ابن هطال صراحة فهو ملاحقة الداعية المتصوف الشيخ أحمد التيجاني بعدما ذاع صيته في المنطقة، وكثر أتباعه وسط رعايا الأتراك في تلمسان وبسيكرة وغيرها، واتخذ بوسمغون مقرا لإقامته "واقبل أهلها عليه" (2). وكان الباي قد طرده من تلمسان عام 1196 هـ / 1781-1782 م حينما بدا من نشاطه وكثرة تنقلاته بين المشرق والمغرب ما استوجب حذره منه. وقد التقى الشيخ أبو العباس محمد بن ناصر الدرعي بالتيجاني في البيض سيدي الشيخ أثناء رحلته الحجية الأولى عام 1781/1196، أي في السنة نفسها التي طرد منها التيجاني من تلمسان "وقدومه الآن كان من تلمسان مزعجا من بعض أمراء الترك" (3). وقد لمح ابن هطال إلى هذا الهدف غير المعلن عنه في رحلته بقوله: "أردت أن أذكر منه نبذة أخذم بها قامع المبغضين ومدوخ المارقين" (4).

---

(1) ما عبر عنه ابن هطال : "بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة، إلا أنها لم تنلها أيدي السلطنة". أنظر كذلك:
Baduel, R: Le Défi Saharien

ضمن المائدة المستديرة لـ (C.R.ESM) تحت عنوان:

"Enjeux Sahariens, nov. 1981, Paris, C.N.R.S, 1984, p. 14

(2) الناصري: الاستقصا. ج. 8، ص 105 .

(3) الرحلة الكبرى: قال عنه ابن ناصر "رجل ينتمي للعلم والصلاح من شرفاء عين ماضي اسمه سيدي أحمد التيجاني".

(4) ابن هطال. أنظر كذلك أبو القاسم سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي (ق. 16-20)، ج. 1، ص 519، 1985

وقد بين ابن هطال جميع مراحل هذه الحملة والقصور والمداشر والقبائل المعرضة للغزو، لكنه لم يشر إطلاقا إلى بلدة بوسمغون مقر إقامة أحمد التيجاني، ولا قصور الغاسول والأبيض وغيرهما، فلم يرد ذكرها في الرحلة، فهل تحاشى الباي الدخول في معركة مباشرة مع أتباع التيجاني آنذاك بشكل قد يعرض جنوده للاستنزاف، وهو في ذلك الوقت كان يفكر في مشروع أهم، وهو تحرير وهران من الاحتلال الإسباني (1) أم أن بوسمغون (2) والقصور المذكورة بقيت إلى ذلك الحين تابعة للنفوذ المغربي فلم يغامر الباي على اختراقها بجنوده؟

وذكر ابن هطال أيضا ما قام به الباي وجنوده من نهب للأموال والمتاع كالأغنام والبقر والإبل والخيول والأفرشة والحبوب (القمح والشعير). فعلى سبيل المثال: صادر الباي من أعراب جبل الملح "1000" من الإبل، وأكثر من "4000" رأس من الغنم، وصالحه عرب الكعدة ب" 4000" رأس من البقر، و "1000". حمل جمل من الشعير. بينما فرض على أهالي الأغواط -بعد قنبلة قصرهم بالمدافع -دفع "5000 ريالا" و "100" خادم، و "250" جملا. وكذلك فعل بأهالي عين ماضي وتاجموت. وأهم من هذا كله أن الباي قبل رحيله من هذه الأماكن جمع شيوخ القبائل العربية كشيخ العمور (3) الذي قدمه على كل من ينتمي لهذه القبيلة في جبل راشد، وكذلك مشايخ أولاد يعقوب وجعل عليهم وظيفا (4) يؤدونه كل سنة، وأخذ منهم العهد بالالتزام به قبل منحهم الأمان الذي طلبوه

(1) بدأت استعدادات الباي لفتح وهران عام 1205/1205-1791، وقام بحصارها فعلا عام 1206/1791-1792.
(2) تنسب هذه البلدة للولي الصالح أبي سمغون. أنظر عبد الحي الكتاني في "سلوة الأنفاس". ج. 1 ص. 180 .
(3) لم يرد اسمه في رحلة ابن هطال
(4) ما سماه ابن هطال با "اللزمة".

لأنفسهم وذويهم، ويؤكد ابن هطال على هذا الوظيف السنوي بقوله: "…. مع أن هذا هو المقصود بالذات" (1) من هذه الحملة. والواقع أن جباية السكان في أية جهة من الجهات سواء لدى الأتراك أو عند الأسر المغربية المتعاقبة على الحكم تعتبر رمزا أساسيا لنفاذ سلطة السلطان في المجال الذي يحكمه، بل ومن المقومات الأساسية لاستمرار الدولة وقوتها، خصوصا إذا كانت هذه الجبايات تؤدى بصورة منتظمة من دون انقطاع إلا في حالة القحط والمجاعة. فكأن الباي طمح بهذا الإجراء أن يربط تلك الجهات بسلطة الأتراك في الجزائر بصفة مستمر منذ ذلك الغزو. ويتضح من تفاصيل هذه الحملة أنها تشبه إلى حد كبير تلك التي قام بها مولاي عبد الملك بن إسماعيل في معظم تلك الجهات نفسها قبل ذلك ب 78 عاما. وابن هطال باعتباره كاتبا رسميا ومستشارا شخصيا للباي محمد الكبير فقد كتب وقائع الحملة بأسلوب هادئ، وكأن الباي جاء للقيام بجولة تأديبية لإعادة أهالي هذه الجهات إلى الطاعة وللالتزام بالواجبات المخزنية المعهودة، فيصور سلوك الباي مع السكان بأنواع صفات الرحمة والصفح، ووصاية كل شيخ قبيلة بعد الأمان "أن يكون بارا بأهله ورعيته" (2)، وحتى ما أدرجه في هذه الحملة من صور النهب والسلب وقتل الرقاب، فقد حاول مع ذلك أن يوحي للقارئ بأن تصرفات الباي تدخل في إطار الشرعية، وأن أهالي هذه الجهات أخذوا يدفعون ما وضفه عليهم الباي في الآن والالتزام به في المآل، وهم راضون عن ذلك، وأسلوب ابن هطال هذا يختلف عن أسلوب الهشتوكي كشاهد عيان "محايد" لا يتقلد وظيفا رسميا عن حملة مولاي عبد الملك، (3) مع أننا لا نعتبر الهشتوكي ناقلا أمينا بما فيه الكفاية

(1) نفسه.

(2) رحلة ابن هطال.

(3) الهشتوكي. هداية تلك العلام.

لما شاهده وسمعه، ويظهر ذلك من تدخله الشخصي المتعدد في الرواية المنقولة عن "أحمد الدهصاء" وتصويره الدرامي المشحون بعبارات التهويل لمعاناة من شملتهم حملة عبد الملك والقواد المرافقين له، بشكل يجعل القارئ وكأنه يشاهد مع الهشتوكي مأساة إنسانية حقيقية تقل نظائرها، في إطار العلاقة بين الحاكمين والمحكومين.

ج - تجديد الاهتمام المخزني بالمنطقة

لم يتحدث أي مصدر عام أو محلي عن قدوم قائد مخزني إلى المنطقة والإقامة بها كما كان عليه الشأن في العهد الإسماعيلي قبل أواخر 18 م. وقد تحدث صاحب الاستقصا عن إرسال السلطان سليمان لعامله على سجلماسة محمد الصريدي لغزو ملوية وبلاد الصحراء "إلى ناحية فجيج" وجباية أموالها عام 1218/1803-1804 (1)، لكن تقييدا محليا ورد فيه أن القائد أحمد بن عبد الكريم دخل إلى فجيج "وخرج [كذا] زناقة من قصر العبيد عام 1214 هـ / 1800 م (2)، أي قبل حملة محمد الصريدي إلى المنطقة بنحو أربع سنوات. وإذا كانت مهمة القائد محمد الصريدي ظرفية ومحددة، بغاية تحصيل الجباية من سكان المنطقة الشرقية الصحراوية والعودة إلى سجلماسة، فإن القائد أحمد بن عبد الكريم بقي مع حاميته في قصبة العبيد يدير شؤون الواحة الفجيجية ونواحيها بمعية جماعات القصور إلى وقت ورود الصريدي أو قبله بقليل، حسبما يبدنا من المؤشرات الدالة على ذلك، منها على الخصوص رسالة مفصلة بعثها سكان قصر

(1) الاستقصا. ج. 8، ص. 108، أنظر كذلك البستان الظريف، ج. 3، ص. 501.
(2) وثيقة محلية خاصة في ملكية صاحبها.

الوداغير إلى السلطان، تتحدث عن علافة قائده أحمد بن عبد الكريم مع سكان فجيج، وما كان يتصف به من صفات التواضع والعدل، وتعظيم الأشراف والمرابطين وأهل العلم بما يجب في حقهم من التوقير، وتحريرهم من الكلف والوظائف المخزنية، وحتى العامة أهالي أهلُ فجيج لم يكن يكلفهم "كباشا ولا دجاجا ولا دقيقا ولا سمنا ولا كسوة" (1). وتتحدث الرسالة كذلك عن تعاون الوداغير مع القائد أحمد بن عبد الكريم في تأديب بعض القبائل المنتشرة في المجال المحيط بفجيج، المشتغلة بقطع الطرقات مثل: قبيلة احميان التي تعرضت لقافلة "آيت سغروشن" القادمة من "الغرب" محملة بالزرع، فاستعان المحاربون الودغيريون بعشرة من فرسان القائد وتمكنوا من استرجاع ما ضاع لآيت سغروشن من يد أحميان، واقتص الودغيريون -تقول الرسالة- بمساعدة رجال القائد من أولاد خليفة وأولاد إبراهيم من قبيلة العمور، بحبس شخصين منهم إثر ورود خبر تعرضهم لقافلة أهل توات. أما أمر قبيلة أولاد جرير وما تقوم به من تعديات في الطريق الرابطة بين توات وفجيج والواحات المجاورة أو التابعة لها، فإن الرسالة الودغيرية تطلب من السلطان أن يتكفل بهم ويقتص منهم (2). وبالفعل فقد توصل أولاد جرير برسالة من مولاي علي بن عبد الله نيابة عن السلطان يهددهم ويعدهم بالعقاب إن لم يكفوا إدايتهم على أهل فجيج ونواحيها بتاريخ 13 رمضان 1215/ يناير 1801 (3). وبعث السلطان رسالة أخرى بتاريخ 28 صفر 1215 هـ لأهل توات يخبرهم بعزل قائدهم الذي كان "يضر بالمساكين"، وتكليف بعض أعيانهم بقبض أعشارهم وزكواتهم (4).

(1) نفسها.

(2) رسالة خاصة مغفلة من التاريخ مبتورة في أسفلها.

(3) أدرجنا هذه الرسالة في الفصل الثاني من هذا القسم الأول.

(4) مديرية و.م / ملف الصحراء الشرقية.

وأورد الزياني في البستان أن السلطان سليمان بعث في عام 1221 هـ / 1806-1807 م "عامله لإقليم فكيك وجبى ماله واسترجع قصر المخزن الذي غصبوه للعبيد الذين كانوا من أيام السلطان إسماعيل" (1). لكن الزياني ومن نقل عنه كالناصري (2) وقعا في خطأ التأريخ لهذا الحدث الذي وقع قبل ذلك بنحو ثماني سنوات في وقت قيادة أحمد بن عبد الكريم.

وتوالى وفود القواد المخزنيين على فجيج ونواحيها كالقائد عياد بوشفرة والقائد القندوسي والقائد ادراالگيري. وكل هؤلاء قوادا لجيوش جاءت من أجل جباية الأموال وحفظ الأمن في المنطقة، وردت الإشارة إليهم في عدة عقود، منها عقد إشهاد لصالح أسرة الراشديين مؤرخ في عام 1226 هـ / 188-1812 م . ونحتفظ بعقود وردت فيها الإشارة لتأدية أصحابها للوظائف والتكاليف المخزنية والسخرطة طيلة العهد السليماني بالواحة الفجيجية إلى عام 1237/1821-1822 م، أما قبائل المنطقة فلم نعثر على أي وثيقة أو خبر يفيد أن أدائهم للجبايات المخزنية وقت ورود القواد المذكورين إلى الواحة الفجيجية باستثناء رسالة بعث بها أحد الموظفين المخزنيين (3) إلى القائد ؛قدور بن اكرض" (4) مؤرخة في 13 ذي القعدة عام 1213 هـ / أبريل 1799، يأمره فيها أن يكف عن منع من يرد من قبيلة بني كيل إلى وجدة لكيل الزرع، ويسسقط عنهم الكلف.

---

(1) الزياني: البستان الظريف. ج. 3 و 5، ص . 504 .

(2) الاستقصا. ج 8، ص 112 .

(3) طابع الرسالة غير واضح بما فيه الكفاية نقرأ فيه "خديم المقام العالي بالله لحسن بن العياشي (أو لحسن بن العبادي..؟)

(4) قد يكون أحد قواد الأحلاف بناحية وجدة.

ونقل الحاكم الفرنسي لدائرة عين الصفراء "مونطوبون" Monthaubon بتاريخ 13 شتنبر 1888 (1)، رواية شفوية من قائد فرقة "السوالة" إحدى فرق قبيلة العمور بالمنطقة المدعو بوزيان بن حدو، أن هذه القبيلة المغربية لما تعذر عليها كيل الزرع من داخل المغرب بسبب الاضطرابات القائمة في المنطقة قبل مجيئ الفرنسيين إلى الجزائر، واشتد الضيق بالعمور، لجأوا إلى الأسواق الجزائرية، فانتقلت قوافلهم إلى مدينة بلعباس لشراء الزرع، ومنها انتقل وفد أعيانهم المكون من سليمان بن مرين شيخ فرقة "المرينات" والميلود ولد المازوزي شيخ "أولاد كطيب" وغيرهما من شيوخ باقي الفرق، لزيارة باي وهران محمد الكبير لتقديم طاعة القبيلة للسلطة التركية.

ولم يعط قائد السوالة تاريخا محددا لهذا الحدث (2) مع أنه "شيخ مسن" معاصر لما وقع، حسبما ذكر "مونطوبون". وقد نجد الجواب عند أبي العباس محمد بن ناصر الدرعي في مؤلفه عن رحلته الثانية إلى الحج عام 1211 هـ/ 1796، فقد ذكر أن أعراب الظهرة "اليوم يتجاذبها في الحكومة حكام الغرب والترك" (3). وأشار كذلك إلى وقوع الغلاء المفرط في المنطقة الشرقية "حتى وصل علف الدابة الواحدة ما ثمنه ست أواق" (4)، بسبب الاحتلال التركي لوجدة ونواحيها (5)، ومنع الأتراك القبائل العربية كيل الزرع من تلمسان "وبعدت عنهم تازة فاشتد

(1) مذكرة A.O.M. Exp p 30 H, 36

(2) من المحتمل أن يكون هذا الاتصال قد وقع بعد انسحاب الإسبان من وهران ودخول محمد باي إليها في عام 1206 هـ وقد توفي الباي بعدها عام 1213 هـ / 1798-1799 م.

(3) الرحلة الصغرى عام 1796/1211.

(4) نفسه.

(5) ذكر أبو العباس محمد بن ناصر وهو عائد من الحج أنه بعد وصول قافلة الحجاج إلى وجدة في 18 ذي القعدة عام 1212 هـ وجدوا الأتراك فقد أخلوها وسلموها للسلطان مولاي سليمان. أنظر كذلك الزياني في البستان.

الغلاء " (1)، وهذا ما دفع قبيلة العمور -وهي مضطرة خوفا من تفاقم الحالة وتعرضها للجوع- أن تقدم ولاءها لسلطة الأتراك من أجل التزود بهذه المادة الحيوية التي لا يمكن الاستغناء عنها. وفي نفس عام 1211 هـ، رحل المرابط أحمد التيجاني من مقر إقامته ببوسمغون وحل بفاس عند السلطان سليمان (2)، وكان باي وهران محمد الكبير قد طلب من السلطان سليمان أن يتدخل لدى سكان بوسمغون لإخراج التيجاني من بلادهم، فبعث إليهم السلطان مهددا للتعجيل بإخراجه (3). وهذا دليل على أن بوسمغون وما يجاورها من القصور غربا إلى بلاد فجيج كانت إلى ذلك الوقت ما زالت من حساب السلطان المغربي، ولو أننا لا نعرف درجة نفاذ سلطة السلطان على أهاليها انذاك.

3- معاهدة مغنية تفرز مجالا سياسيا جديدا

حدد البندان الرابع والخامس من معاهدة مغنية بتاريخ 18 مارس 1845، القصور والقبائل التابعة لكل من المغرب والجزائر في المنطقة الحدودية من الجنوب الشرقي المغربي، وهذه أول معاهدة في تاريخ البلدين للفصل بين مجالات نفوذهما في المنطقة، بعد الحد الفاصل بينهما في الشمال عند نقطة وادي تافنا المتعارف عليه منذ عهد الأتراك.

---

(1) نفس المصدر.

(2) ذكر عبد الرحمان المدغري السجلماسي في "كناشه" أن التيجاني لما حل بفاس أكرمه السلطان" وأعطاه دارا معتبرة من دوره كان أنفق عليها نحو العشرين ألف متقالا ورتب له ما يكفيه".
مخطوط خ. ع. الرباط، رقم د. 3634، بدز تأليفه في رجب الفرد عام 1868/1285 .

(3) أنظر أحمد الناصري في الاستقصا. ج 8، ص 105 .

ولاشك أن تحضير بنود هذه الاتفاقية كان من صنع المفاوضين الفرنسيين الذين يمثلون الطرف الغالب في حرب إسلي. وكالعادة في كل الحروب فإن الطرف المنتصر لا يتوانى في فرض شروطه على المغلوب. وقد أبان المفاوض المغربي في شخص عامل وجدة حميدة بن علي الشركي عن درجة كبيرة من التهاون والتفريط، في حقوق بلاده على الأراضي والقبائل الممنوحة للفرنسيين في الجنوب الشرقي المغربي، بل أدى به جهله بالمنطقة وسكانها إلى مسايرة المفاوض الفرنسي في تقسيم قبائلها إلى شرقية وغربية (1). مع أن هذا الفرز ضمن القبيلة الواحدة لم يكن معروفا عندها تحت أي طائل اثني أو طبوغرافي. ولن نقف عند الحدث كثيرا رغم ما يكتسيه من أهمية في ما أفرزه من مضاعفات على المخزن ورعاياه على السواء (2)، وسنتهم فقط بماله علاقة بالمجال الترابي في امتداده وانحساره عند الأطراف المعنية (3).

إن من تتبع مراسلات المخزن المركزي بعد منتصف القرن التاسع عشر مع ولاته ورعاياه في المنطقة الجنوبية الشرقية ومع الفرنسيين أيضا، يستنتج منها أن المخزن كان له معرفة ضعيفة ومشوشة عن ذلك المجال، فرغم ارتباط المنطقة بالنفوذ المخزني منذ فترة طويلة تقترن على الأقل بالدولة السعدية وبميلاد الدولة العلوية

(1) جاء في البند الرابع من المعاهدة "أن أراضي الصحراء لا حد فيها بين الجانبين لكونها لا تحرث (...)، فالأعراب الغربية هم المهاية وبني قيل وأولاده سيدي الشيخ الغرابة وعمور الصحراء وحميان الجنبة. والأعراب الشرقية هم أولاد سيدي الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير حميان الجنبة"، أنظر أحمد العماري، مشكل الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر، د.د.. ع. ج. 2. ص. 22 كلية أ. فاس 1981 .

(2) أنظر أحمد مزيان في المرجع السابق. وكذلك أحمد العماري في المرجع أعلاه. "ودنييل نوردمان".

Nordmond (D): la notion de la frontière en Afrique du Nord (1975). Thèse du 3ème cycle, 2. T

(3) نعني بهم: المخزن، الرعايا المغاربة والجزائريين، ثم الإدارة الفرنسية.

نفسها في أواسط القرن 11 هـ / 17 م، فإن سلاطين هذه الدولة لم يجدوا أنفسهم طيلة هذه المدة وجها لوجه أمام تحد أجنبي يزاحم نفوذهم في هذه المجالات، إلا ابتداءا من منتصف القرن التاسع عشر، بعد انتصار الفرنسيين على ثورة الأمير عبد القادر والتفاتهم نحو الجنوب.

وكان اهتمام المخزن في مراسلاته وحركاته ينصب في الغالب على المجموعات البشرية أكثر من اهتمامه بالمجال الذي تحتله تلك المجموعات، خاصة عندما يتعلق الأمر بالقبائل الرحلية في المنطقة. وحتى عندما تتحدث كتب الحوليات عن امتداد أراضي السلطان في تلك الجهات، كانت الغاية في أذهان هؤلاء الكتاب ما تحتويه من القبائل والقصور، إذ كلما كثرت أمصار السلطان وقبائله زادت مداخيله من المغارم والجبايات وقويت عساكره (1). ولم يكن هؤلاء الكتاب رسميين أو سواهم، ولا السلطة المخزنية نفسها تتمثل امتداد هذا المجال في أبعاده الجغرافية تمثلا واضحا. فاليفراني في النزهة عندما تحدث عن حركات السلطان إسماعيل، لبسط نفوذه في مجال الظهرة وقصور الجنوب، لم يتمكن من توطين مدينة بيسكرة في موقعها الحقيقي حيث قال: "وامتداد مملكته في جهة الشرق إلى بيسكرة من بلاد الجريدة" (2). وكذلك السلطان مولاي الحسن في رسالة لنائبه بطنجة محمد الطريس في 20 جمادى الثانية 1308/ يناير 1891 عن شكوى أهل قصر أم الكرار الفوقانية، أشار فيها إلى حدود مبهمة بين المغرب والجزائر في عهد الأتراك"... وكذلك الحدود بين الايالتين أيام الترك هي البحر وصيرها أهل الايالة المذكورة الآن هي

(1) ابن خلدون يشير إلى ذلك المعنى عند حديثه عن عصبية الدولة بقوله: "فما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك". المقدمة، ص 287 .
(2) اليفراني محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.

القصور الصوصية [صويصيفة] وتييوت وأم الكرار التحتانية..." (1). وقد أشار بعض الرحالة الحجاج بدورهم إلى الحدود بين المغرب والجزائر فيما نعتوه بحد طاعة السلطان، وتصورهم للحدود هذا يرتبط بالمدى الذي بلغه نفوذ السلطان في المجالات الشرقية مما يتاخم مجالات الأتراك في الجزائر في فترة من فترات التاريخ، فهي إذن حدود مجالية تتغير باستمرار تبعا لقوة وضعف السلاطين بل تكون تصوراتهم أحيانا للتخوم المجالية الحدودية مشوشة تغلب عليها الظرفية، إلى الدرجة التي تصور فيها أبو العباس محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي، وهو في طريقه إلى الحج للمرة الثانية عام 1211، أن ما وراء بلاد تازة يدخل ضمن مجالات أحكام المغرب الأوسط "وتازة من المدن الصغار في المغرب (...) وهي حد ما بين الغرب والمغرب الأوسط مما يلي إفريقية" (2). وقد بنى تصوره لهذا الحد المجالي بين البلدين، فقط لأن الأتراك آنذاك كانوا يحتلون وجدة وبعض جوارها لفترة قصيرة.

وإن كان القائد حميدة بن علي الشركي قد سلم القصور المذكورة للفرنسيين في معاهدة 1845، لجهله بحدود امتداد المجال المغربي في المنطقة الجنوبية الشرقية من المغرب آنذاك، فإن السلطان المولى عبد الرحمان حتى بعد توقيعه على تلك المعاهدة سار يراسل الفرنسيين بواسطة ممثله بوسلهام في شأن سكان تلك القصور وكأنهم ما زالوا من ضمن رعاياه، واستمرت مراسلات خلفه على نفس الوثيرة. فالسلطان محمد بن عبد الرحمان خاطب أهل تييوت في رسالته بتاريخ 19 جمادى

(1) كناش رقم 630. خ. ح. و.م، الرباط.
(2) الرحلة الصغرى، سبق ذكرها.

الأولى عام 1871/1288 ب "خدامنا الأنجاد"، عندما كتبوا إليه بما يلحقهم من التعدي والتضييق من الفرنسيين وسليمان بن قدور، "مذكرين لما كان لكم مع أسلافنا (...) من الخدمة والانتماء (...) فنحن على أثرهم في ذلك (...) لا نسلمكم ولا نفوتكم" (1).

وعلى نفس الخطاب درجت مراسلات السلطان مولاي الحسن مع ساكنة قصور تييوت، وأم الكرار والصفيصيفة وعين الصفراء (2)، بل ذهب أمناؤه مصحوبين بعدد من المخازنية المسلحين إلى هذه القصور، باستثناء عسلة، واستخلصوا الجباية من سكانها عام 1880، واستمعوا لشكاويهم ورجعوا إلى فجيج من دون أن تعترض طريقهم أي قوة فرنسية (3).

ولقد أنتجت معاهدة 1845 تناقضات كبيرة بين المجال وبين من كان يحتله في الأصل، فصارت القبيلة مرغمة للانفصال عن مجالها الحيوي الذي كانت تتنقل فيه بمواشيها وتمتلك فيه أراضي الحرث ومغارس النخيل، وينطبق هذا الواقع على القبائل الثلاثة المقسمة إلى غربية وشرقية: العمور واحميان وأولاد سيدي الشيخ، وكلها تملك مجالات للرعي والزراعة، ابتداء من الشط الغربي وشط تيگري على

---

(1) عبد الرحمان بن زيدان: اتحاف أعلام الناس. ج. 3، ص 531 .

(2) في المراسلة المشار إليها سابقا إلى نائبه محمد بن العربي الطريس المؤرخة في 20 جمادى الثانية 1308 هـ / يناير 1891 حول شكوى سكان أم الكرار القوقانية خاطبه قائلا: "فنأمرك أن تكلم الباشدور بما يتعين في ذلك من رفع اليد عنهم وكل المجاورين لهم من إيالتنا عن التعدي عليهم والأضرار بهم". كناش رقم 630، خ. ح، الرباط، أنظر كذلك ملف 53/9 ، بالمكتبة العام بتطوان، قسم الوثائق. وحول شكاوي شرفاء تييوت للسلطان الحسن وما تم من المراسلة في شأنها بين السلطان ونائبه محمد بركاش، أنظر ملف الصحراء الشرقية، مديرية. و. م، وردت بها مراسلة في الموضوع مؤرخة في 7 ربيع الأول عام 1880/1297 م.

(3) مراسلة حاكم وهران إلى الولي العام في مدينة الجزائر، مؤرخة في 15 مارس 1880 . أدرجت في مؤلف: Documents pour servir à l'histoire..., T.2, p. 421-424

الظهـرة شمـالا إلـى قـصـور الجنوب، مـا بين أم الگرار الفـوقـيـة وعـسلـة والأبيض ويوسمغون جنوبا. وقد تنبه السلطان عبد الرحمان نفسه لهذه الحالة منذ البداية عندما اطلع وفد أولاد سيدي الشيخ الغرابة على بنود اتفاقية مغنية، فاحتجوا صراحة أمام السلطان بعدم قبولهم للبند الذي يفصلهم عن أراضيهم ومجالاتهم المعتادة في قصور الأبيض والشلالة ويوسمغون (1). وعندما سأل السلطان مولاي الحسن عن تندرارة النازل بها قبيلة حميان الشفاعة، هل هي تابعة للمغرب أم لا؟ أجاب القائد بوشتى بن البغدادي (قائد وجدة) بأن "تمدرارة (2) وجبل فالط النازل بينهما احميان شافع من حساب الصحراء، والصحراء لا حدادة فيها بين الجانبيين"، وذكر أن الشفاعة والجنبة يجتمعون في فصل الربيع ثم يفترقون بعد ذلك، فيذهب الشفاعة إلى مجال نزولهم المعتادة بالظهرة، ويرجع الجنبة "لمحل نزولهم فوق فجيج" (3). ومن العلوم أن تندرارة لا توجد بالصحراء كما ذهب القائد بوشتى البغدادي، بل هي على الظهرة وداخل التراب المغربي مما لم يكن فيه جدال على الحدود، وهي الآن أهم مراكز قبيلة بني كيل، وأن قبيلة احميان بفرعيها الشفاعة والجنبة (أو الغرابة) حسب التوطين الذي أشار إليه القائد يتنقلان في مجالهما المعتاد التابع منذ القديم لسلطة الملوك العلويين (4). وعندما نتفحص الخرائط الموضوعة من

(1) رسالة السلطان عبد الرحمان للطالب بوسلهام بن علي في 4 رمضان عام 1261/ 1845 م. مجلة الوثائق تصدرها مديرية الوثائق الملكية، المطبعة الملكية الرباط، المجموعة الثانية عام 1976، ص 71 .

(2) يقصد بها تندرارة.

(3) وثيقة غير مؤرخة، ملف الصحراء الشرقية. م. و. م.

(4) في رسالة السفير الفرنسي بطنجة السيد "فيرو" Feraud إلى وزير خارجية بلاده (Freycinet) مؤرخة في 24 شتنبر 1885، التعلقة بقضية النزاع حول "جنين بورزق" يطرح مسألة جهل السلطان الحسن بالمجال الترابي لمملكته، يستعمل فيها بعض العبارات المبالغ فيها تعبر عن رأيه الشخصي: "مولاي الحسن مرغم على الرجوع إلى المعلومات التي نعرضها عليه حول النقط الترابية الواقع عليها الخلاف والتي لا يمكنه الوقوف عليها. إنني واثق أيضا بأنه قبل اطلاعه على الأماكن المختلف حولها على الخريطة التي أرسلتها إليه لفاس، فإنه يجهل حتى مواقعها وأسماءها (...) واستجابة لرغبة السلطان، فقد رجوت الحاكم العام في الجزائر بأن يضع له خريطة حائطية توضح له ولايات مملكته مكتوبة بأسماء عربية..."

1H, C. 998, A.M.G

طرف الطبوغرافيين الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر نجد إحداها توطن قبيلة احميان الغرابة في المجال الممتد في الظهرة ما بين شمال وشرق عين بن خليل إلى بلاد جبال القصور شمال تيوت (1). وأمام هذا الواقع الجغرافي الذي فرض نفسه على الفرنسيين فإنهم لم يجدوا وسيلة لحل هذا التناقض غير الضغط على احميان الجنبة المحتلين لمجالهم الطبيعي في أراضي الشط الغربي وعين بن خليل والمشرية، للرحيل منها -حسبما بين شيوخ مجموعة من احميان الجنبة المنفصلين عنهم- إلى أراضي النفوذ المخزني، في رسالتهم إلى السلطان مولاي الحسن في محرم عام 1297/ 1879-1880 م يرجونه فيها بانتزاع إخوانهم من السلطة الفرنسية "لأن النصارى قالوا اذهبوا من بلادنا لأنكم طاعة المغرب (...) مجموعة كما كانوا أسلافنا طاعة لأسلافك" (2).

ولم يكن الفرنسيون في أول عهدهم بالمنطقة أقل جهلا بها من المخزن، لذلك بدأ ضباطهم العاملون في المنطقة في العقدين الأخيرين من القرن 19 يطالبون السلطات الفرنسية العليا بمراجعة بعض بنود اتفاقية 1845، ويعللون طلبهم بمرور ما يزيد عن 40 سنة على عقدها بعد أن تغيرت ظروف المنطقة عما كانت عليه من قبل، وأن الاتفاقية قبلت من الفرنسيين آنذاك لأنهم لم يكونوا يملكون عن المنطقة وسكانها إلا معرفة سطحية (3) غير كافية. ويترجم هذا الواقع مضمون رسالة

(1) خرائط "فانسين" العسكرية.

(2) مديرية و.م. ملف الصحراء الشرقية. كان السلطان الحسن قد بعث (40) من الخيالة لجباية حميان الجنبة داخل التراب الجزائري، باعتبارهم رعايا مغاربة. وقد اغتاظ الحكام الفرنسيون في كل من وهران والجزائر العاصمة لهذا العمل واعتبروه خرقا لشروط معاهدة مغنية (1845). رسالة الوالي العام إلى حاكم وهران في 27 يوليوز 1877
1H. A.M.G. 1024

(3) رسالة حاكم منطقة وهران إلى الحاكم العام في مدينة الجزائر، كتبت في 21 يونيو 1887. وفي تقرير كتبه الضابط "رين" Rinn في أواخر الثمانينات ذكر فيه أن الخريطة التي أنجزها الضابط "بودوان" Beaudoin أنجزت تبعا للمعلومات الواصلة إليه، ولا يمكنها أن تشكل وثيقة حول بلاد لم نتعرف عليها إلا مؤخرا".

وزير الحربية الفرنسي إلى حاكم مقاطعة وهران الجنرال "سوسيي" Saussier في 30 مارس 1882، يطلب فيها معلومات مفصلة عن أحوال الفرق الثلاث القاطنة في مجال دائرة عين الصفراء، فأجاب الجنرال في 6 أبريل من نفس السنة بأنها تنتمي لقبيلة العمور المغربية "لكنها تملك أملاكا زراعية في قصورنا" (1).

ولقد كثر الجدال بين المسؤولين الفرنسيين بباريز وبين موظفيهم العسكريين في الجزائر حول مجال قبيلة العمور وانتمائها، واخترعت لذلك أسماء وهمية وروايات تاريخية مضللة من الحكام العسكريين العاملين في الميدان، لتقسيم القبيلة إلى عمور الصحراء وعمر القصور، وأن هذه القبيلة عاشت طوال تاريخها مستقلة عن كل سلطة مغربية أو تركية، فكانوا بذلك يحثون حكومتهم للضغط على سلطان المغرب ليتخذ موقفا إيجابيا من تحركاتهم في ذلك المجال الترابي. إلا أن الحكومة الفرنسية تحت ضغط الظروف الدولية المحيطة بالمسألة المغربية، وعدم تصورها الواضع لمجال المنطقة في أواسط القرن الماضي وعدم توفر وسائل التحرك فيها من دون إثارة المشاكل، كانت تعليماتها لهؤلاء الحكام تحث على ضرورة التقيد الحرفي ببنود اتفاقية 1845، موضحة بصراحة أن العمور لا يشكلون في الواقع إلا قبيلة واحدة تحت اسم عمور الصحراء المنتمين إلى المغرب، رغم امتلاكهم لأملاك زراعية فوق القصور المنتمية للجزائر حسب الاتفاقية أعلاه، بل يؤكد وزير الخارجية الفرنسي "جول فيري" Jules Ferry في برقية مؤرخة في 24 يناير 1885 إلى الوالي العام في الجزائر أن جبل بني سمير –وهو جزء من جبال العمور– يقع في التراب

(1) A.M.G.P. 1H. 1024.
A.M.G.P. 1H. 1024

المغربي (1)، ويوضح في مكان آخر من مراسلاته مع موظفيه العسكريين في الجزائر، أن ما يقوم به هؤلاء إزاء قبيلة العمور واحميان الجنبة بإرغامهم على الخضوع للقوانين والمطالب الجبائية الفرنسية، إنما هي إجراءات غير قانونية ومعاكسة تماما لما جاء في معاهدة 1845، ملاحظا بأن لقبائل الصحراء على الحدود بين البلدين حرية التنقل في ذلك المجال بحثا عن المرعى والماء لمواشيهـــا (2)، خصوصا وأن مجالات تنقل القبيلتين المذكورتين تمتد في هذه المنطقة الحدودية بالذات، داخل ما أصبح يعرف بالتراب الجزائري بعد اقتطاعه من المغرب بموجب اتفاقية 1845، وكذا ما بقي منه مغربيا إلى ذلك الحين.

وقد تطورت معرفة العسكريين الفرنسيين في الجزائر والمسؤولين في حكومة باريز بمجال المنطقة وأصبح لهم اطلاع كبير بتفاصيلها ومواقعها الجغرافية، بفضل الدراسات الميدانية المكثفة أثناء تنقلات طوابيرهم العسكرية العديدة في طول وعرض المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وصارت نظرة الطرفين في أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي على درجة كبيرة من المطابقة ويعملان معا لتغيير المجال واقتطاعه جزءا جزءا، وإضافته لأملاكهم بالجزائر على حساب المغرب خلافا لما نصت عليه اتفاقية 1845 ، معتمدين في ذلك عل ما يملكون من وسائل كإنشاء القواعد العسكرية وطرق السكك الحديدية وخطوط التلغراف وغيرها (3).

(1) شكل هذا الجبل قضية مأساوية عانت منه بعض فرق العمور في صراعها مع الفرنسيين وكثر الجدال حوله بين الحكام الفرنسيين والسلطة المخزنية المغربية، سنتناول موضوعه في فصول لاحقة.

(2) هذه الأفكار وردت في أكثر من مراسلة بين باريز والجزائر، منها على سبيل المثال رسالة وزير الحربية الفرنسي إلى حاكم وهران مؤرخة في 15 أبريل 1882.

1H. C. 1024. A.M.G

(3) يقول الجنرال :ديتري" Detrie حاكم وهران في رسالته إلى الحاكم العام في 22 أبريل 1887 أن الوسائل المذكورة قد "غيرت في العمق ظروف الجنوب الوهراني". 30H.C. 36. A.O.M

وقامت السلطة المخزنية المغربية بدورها بعمل ميداني شامل تمكنت خلاله من التعرف مجددا على كامل المنطقة الحدودية طبوغرافيا وبشريا، أثناء الطواف على الحدود، الذي أمر به السلطان الحسن عماله بإقليم الشمال الشرقي. وقاد هذه البعثة التطوافية أخوه مولاي عرفة 1884/1301. لكن هذه التجربة لم تستغل ولم تكثف بجهود ميدانية أخرى، لتعميق اطلاع المخزن على مجاله الترابي المتاخم للجزائر في هذا الجزء الجنوبي من شرق المغرب.

II- المجال القبلي

إن القبائل لا تتصور من المجال إلا ما يشكل مراعيها الاعتيادية ومجالات تنقلها، أو ما تعتزم فتحه من مجالات جديدة بالغزو على حساب القبائل الأخرى، وأنها على وعي تام بمجالها وحدوده التي تفصلها عن حدود مجالات القبائل المجاورة.

ويمتد مجال القبائل ويتراجع حسب قوة القبيلة وتطورها التاريخي، بسبب انقسامها وانعزال بعضها عن البعض الآخر على مدى السنين، أو نتيجة لإرغامها بالقوة على ترك مواطنها الاعتيادية فتستبدلها بأوطان أخرى. فالفرق المكونة لقبيلة العمور في زمن ابن خلدون كأولاد عبد الله وبني قرة، كانت مواطنهم ما بين جبال الأوراس وجبل راشد (1)، وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري 17/م، كانت فرق من العمور ما زالت تحتل مواطنها الأصلية في الغاسول (2)، وافلوا ونواحيها

---

(1) ابن خلدون: العبر. ج. 6، ص 55 .

(2) أنظر رحلة ولد العلامة لحسن اليوسي إلى الحج ضمن مجموع مخطوط ك، ر. 1418 خ. ع الرباط. واستمر وجودها أو بعض فرقها في جبال العمور (جبل راشد) إلى أواخر ق. 18، أنظر عن ذلك رحلة ابن هطال.

شمال شرق الأبيض سيدي الشيخ. أما في فترة ثورة الأمير عبد القادر الجزائري أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن فرقا من العمور كانت تنزل بمواشيها في المجال الممتد ما بين عين ابن خليل إلى العريشة (1)، قرب تنية الساسي، ومنذ هذه الفترة بدأت التقارير الفرنسية تتحدث عن استيطان العمور واحتلالهم لكافة مجال القصور الصحراوية وجبالها، ابتداءا من عسلة وعين الصفراء شرقا إلى الواحات القريبة من فجيج غربا، وأصبحت الجبال المطلة على هذه القصور تدعى عموما بجبال العمور لانتشارهم فيها، وصاروا يتقاسمون فيها بعض المراعي ونقط الماء، إلى شط تيكري وعين بن خليل وواحات بورزق وبني ونيف وفندي، مع مجموعة من القبائل كبني كيل وأولاد جرير واحميان وأولاد سيدي الشيخ. مما يعني أنها غيرت مواطن انتشارها الأصلية من الشرق إلى الغرب حتى أصبحت في تماس وتداخل مع مجالات أولاد جرير وذوي منيع (2). ويعترف الحاكم العام للجزائر في رسالته لوزير الحربية بباريز أن المساحة المحصورة ما بين العريشة وسعيدة ومنها إلى الأبيض جنوبا هي مجال تنقل القبائل الرحلية المغربية "إلى يومنا هذا" (3)، ويعني بذلك قبائل احميان والعمور وبني كيل. وإذا كانت الحدود -بمعناها الحالي- بين المغرب والجزائر وبين الدول الإسلامية بوجه عام، لم يكن متعارفا عليها من قبل نظرا لشكل الدولة القائمة آنذاك، وطبيعة تطورها السياسي والاقتصادي الذي لا يكاد يختلف عن موروث الماضي، فإن القبائل

---

(1) أنظر مذكرة Monthaubon، حاكم دائرة عين الصفراء، إلى الجنرال حاكم معسكر في 13 شتنبر A.O.M. 30H. 36. 1888

(2) حدث ذلك بعد عشرات السنين، ويظهر أن قبيلة العمور كانت بعض فرقها قد وصلت إلى جبال القصور واستوطنتها قبل القرن التاسع عشر، استنادا إلى إشارات وردت في تقاييد محلية.

(3) كتب في 8 غشت 1881 A.M.G.P. 1J. 1025,

الرحلية في المنطقة لم تصطدم أبدا بعوائق حدودية بين البلدين إلا مع ظهور القوات الاستعمارية، وقد تجاهلت القبائل هذه الحدود واستمرت تخترقها لتصل إلى مراعيها الاعتيادية. ويعترف تقرير فرنسي بهذا الواقع عندما تعرض لمجالات بني كيل واحميان المشتركة على الظهرة ابتداءا من الشط الغربي إلى الجنوب، ومما جاء فيه "أن تحديد الحدود بين البلدين ستكون نظرية فقط حيث سيستمر اختراقها من طرف قبليتي البلدين" (1).

وهنالك فرق بين مجال القبيلة ومجال الفرقة والعرش. فقبيلة بني كيل كانت قد حلت إشكال المنازعة حول المراعي بأن قسمت على فرقها مجموع مجالاتها في أراضي الظهرة كلها من الشط الغربي إلى كعدة دبدو ووادي الشارف وغيرها، ومن مقربة عين بني مطهر شمالا إلى تخوم الجبال الصحراوية وهوامش القصور، حتى واحات بشار والقنادسة جنوبا، لأن توفر الفرقة على مجالها الخاص ضمن مجال القبيلة هو بالنسبة لها ضرورة حيوية (2)، بل يبلور شخصيتها داخل القبيلة الأم. وتطلق الفرق على مجالاتها الخاصة أسماء مثل: البلاد وتراب الفرقة الفلانية... الخ . وداخل مجال الفرقة تنعت المراعي المقصودة من فصل إلى آخر، لخصبها ومياهها، بالمرتع أو "الرتعة". والمجالات المحددة لكل فرقة ليست قارة على الدوام بل تتعرض أحيانا للتغيير والاختراق حسب سنوات الإمطار ووفرة المرعى في جهة دون أخرى، فتعيد القبيلة تقسيم المراعي بين فرقها من سنة إلى أخرى كما هو

---

(1) كتبه مندوب الحكومة الفرنسية بوجدة إلى سفير بلاده بطنجة (Billy) 1912.
A.M.G.P. 1H. 1062

(2) Hildebert Isnard: L'espace géographique. Prese Universitaire de France, 1ère. Ed. 1978, p. 26

الشأن عند قبيلة ذوي منيع (1)، بينما تسمح فرق قبيلة بني كيل لبعضها البعض بالاختراق المتبادل لمجالاتها عند الحاجة. فقد كتب قائد إحدى فرق قبائل احميان محمد بن زيان (2)، إلى قائد فرقة أولاد محمد عرش أولاد فارس، أحمد بن علي بن بوجمعة رسالة جوابية مؤرخة في 30 ربيع الأول عام 26/1304 دجنبر 1886، يسمح فيها لفرقته برعي مواشيها في المجال الخاص بفرقته، حيث يقول: "إن أردتم أترتعوا (كذا) أن ما ظهر لكم (كذا) فنعم (كذا)..." ويضيف أن لا معنى للتشبث بالحدود بين مجالات الفرقتين المجاورتين "تكون الحدادة بين الدولتين ونحن ليس يكون ذلك (كذا) بيننا وبينكم" (3).

لكن العلاقات السلمية والتراضي حول المجال لم تكن سائدة دائما بين الفرق داخل القبيلة الواحدة أو بين القبائل، عندما تكون مجالاتها تتاخم بعضها البعض الآخر، إذ كثيرا ما ينشب الخلاف والنزاعات المسلحة بينها حول المراعي ونقط الماء، وحول الأراضي الحراثية في موسم الحرث. فقد تنازعت مجموعتان من أرباب الخيام المنتمية لدوار أولاد بلقاسم، فرقة أولاد أيوب من قبيلة بني كيل على أراضي الحرث تقع في "أم الشكاك" جنوب سهل تاملالت وغرب جبل كروز، فعقد مجلس جمع شيخي المجموعتين تحت نظر قاضي فجيج والقائد المخزني بها وحضور المراقب العسكري الفرنسي وبعض شيوخ قبيلة بني كيل، وقسمت أراضي الحرث إلى نصفين استقل كل فريق بنصيبه عام 1350 هـ / 1931 (4).

(1) تقرير كتب حول ذوي منيع يتكون من 32 ص. ضمن أرشيف A.O.M.E.X 3H. 441

(2) لم يرد اسم الفرقة أو القبيلة في الرسالة، لكن من المحتمل كثيرا أن يكون مرسلها قائدا لفرقة من قبائل احميان التابعة للسلطات الفرنسية في الجزائر التي تقتسم مجال المرعى في الهضاب العليا مع فرق أولاد فارس من بني كيل، وذلك لذكر التاريخ الميلادي في الرسالة الذي أصبح معتمدا في مراسلات قواد القبائل التابعة لفرنسا داخل الجزائر آنذاك.

(3) وثيقة خاصة.

(4) تأجلت كتابة هذا العقد إلى تاريخ 14 صفر عام 1364 موافق 2 يناير 1945، وثيقة محلية خاصة.

أما علاقات قبيلة بني كيل كمجموعة، مع القبائل المجاورة لها، فإن معظم خلافاتها معها سببه النزاع حول المجال المشترك المتاخم لحدود الطرفين. وأكثر نزاعات قبيلة بني كيل الدامية وأطولها، تلك التي جمعتها مع قبيلة أحميان الشفاعة، وكتبت حولها تقارير ومراسلات عديدة بين المخزن والحكام الفرنسيين بالجزائر، وتوجت بعقد لقاء في "مكَورة" (1) بين أعيان احميان وشيوخ بني كيل حضره عامل وجدة إدريس بن يعيش وحاكم المشـرية الفرنسي "كولـي سان بول" Colly St paul، في 18 صفر عام 1314 هـ، الموافق لـ 30 يوليوز 1896 (2).

ويعترف أحد المسؤولين الفرنسيين بدائرة المشرية أن سبب هذه النزاعات الدموية بين القبيلتين المفضية إلى دوامة من الأخذ بالثأر، والسلب والنهب المتبادل بين الطرفين أساسه الصراع حول المجال، وذلك لتداخل مراعيهما في مجالات مشتركة بالظهرة على الحدود المغربية الجزائرية ما بين شط تيكَري والشط الغربي، خاصة في فصل الربيع.

وتميزت علاقات بني كيل مع أولاد جرير وذوي منيع كذلك بالتوتر والصراعات الدموية في غالب الأحيان، نظرا لتداخل مجالات هذه الأطراف الثلاثة، جنوب الظهرة والواحات المنحصرة ما بين سهل تاملالت وبشار والقنادسة. وقد اشتبكت فرق أولاد أيوب الكيلية بزعامة القائد عبد الرحمان الكيلي ومن انضاف إليهم من مقاتلي الفرق الكيلية الأخرى في معركة طاحنة مع أولاد جرير في موضع يدعى "غراسة" (3) جنوب شرق القنادسة عام 1898/1316، وبقي صداها عالقا

(1) "مكَورة"، توجد قرب الحدود المغربية الجزائرية، غرب العريشة أو شمال عين بني مطهر داخل التراب الجزائري.

(2) وثائق أرشيف. 3H. C. 23, A.O.M

(3) أطلق هذا الاسم على عكلة (بئر) يقع على مجرى فرع وادي بشار، جنوب القنادسة.

بالذاكرة الجماعية لمدة طويلة، واشتهرت وقعة "غراسة" بين سكان المنطقة، لدرجة أصبحت معها مرجعا لضبط تواريخ عدد من المشاغل المحلية عند القبائل وسكان القصور المجاورة لمكان الحادث. وبعث القائد إبراهيم بن امبارك المنيعي رسالة إلى الوزير أحمد بن موسى مؤرخة في 6 رجب عام 1898/1316، يشرح فيها ما انجر عن هذا القتال العنيف من ضياع للأرواح والمواشي بقوله: "فاقتتلوا قتالا هائلا مدة من ثلاثة أيام والبارود بينهم ومات من الجانبين خلق كثير وضاعت مواشي ورواحل. وعدت هذه من الفتن العظيمة" (1).

ووصف تقرير فرنسي هذا الحادث بأنه الأكثر عنفا ودموية من نوعه في تاريخ العلاقات الصدامية بين القبيلتين، وقدر عدد القتلى، في صفوف أولاد جرير بحوالي 150 فردا (2).

ويأتي هذا الحادث بعد سنة من هجوم أولاد جرير وذوي منيع في "ركنة الدبالة" (3) بقدم جبل غالس على مجموعة من دواوير بني كيل، وقتل منهم العديد (4) ومع أن الحادث السابق يظهر وكأنه مجرد أخذ للثأر إلا أن الحادثين في الأصل هما امتداد لسلسة من النزاعات حول مواطن الماء والمرعى لاختراق مجالات بعضهما البعض جنوب الظهر.

---

(1) أرشيف مديرية و. م / ملف الصحراء الشرقية.

(2) كتب هذا التقرير في دائرة بشار (كلومب) في 12 مارس 1912 لكنه أخطأ في تأريخ الحدث وجعله في عام 1900. ويتحدث علاوة على ذلك عن تقسيمات قبيلة أولاد جرير وأصولها ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية. A.M.G.P. 1H. 1062

(3) توجد على بعد 80 كلم غرب فجيج.

(4) رسالة من الجنرال "بواطار" Boitard حاكم مقاطعة وهران إلى الجنرال قائد الفيلق 19 بالجزائر العاصمة في 31 دجنبر عام A.O.M. 3H.C. 19

والنزاع حول المجال لا يقتصر على قبائل المنطقة فحسب بل نجده في كل الجهات من الشمال الإفريقي، خاصة في المناطق الصحراوية حيث ندرة الماء والكلإ، وضيق فرص العيش (1). هنالك إذن علاقة جدلية بين أسلوب الإنتاج وبين سلوك المجموعات إزاء بعضها البعض حسب الوسط الإيكولوجي وضيق واتساع المجال.



(1) من أشهر المنازعات القائمة حول نقط الماء والمرعى في موريطانيا خلال منتصف ق. 19، تلك التي جمعت قبيلتين من قبائل الزوايا: قبيلة "إذ ويلحسن" وقبيلة" إذ وعلي" . أنظر:

Pierre Bonte: "L'herbe ou le sol? L'évolution du système pastoral en Mauritanie du sud-ouest. In Héritier en pays musulmans. Edition du C.N.R.S 1987, pp. 198-199

خلاصة القسم الاول

لاحظنا في فصول هذا القسم ما للمجال الجغرافي في مفهومه الطبيعي - الاجتماعي (1) (الأرض، المناخ، الأبعاد المساحية، العلاقة بين المجموعات وتنظيمها للمجال)، من تأثير على تاريخ مجتمع المنطقة (2).

لقد أخبرنا ابن خلدون بما يكفي من التفاصيل عن جموع القبائل التي استوطنت المنطقة إلى وقت إنجازه لتاريخه، وهي على العموم فصائل القبائل البربرية الزناتية المنتمية لشعوب بني واسين" كبني مرين وبني بادين وما تفرع عنهم من البطون والأفخاذ كبني عبد الواد وبني توجين، ثم القبائل العربية الهلالية (بنو عامر وزغبة) والعقلية بعد القرن الخامس الهجري/ 11 م. وقد تمكن الضباط الفرنسيون في الجزائر، المتخصصون في وضع الخرائط الطبوغرافية خلال أواسط القرن التاسع عشر وبداية العشرين، من إثبات عدة مواضع لازالت تحمل أسماء بربرية فوق الهضاب العليا وأحواض الجبال في المنطقة التي أصبحت اليوم مجالات خالصة للقبائل العربية.

---

(1) أقصد بذلك التأثير المتبادل بين الإنسان والطبيعة.

(2) لوسيان فيفر (L.Febebre) في كتابه "الأرض والتطور البشري" درس علاقة التاريخ بالجغرافيا واهتم بروديل. ف (Braudel) بدوره بالبعد الجغرافي في أطروحته عن عالم البحر المتوسط فأرخ لمجتمعات هذا المجال عبر مستويات زمنية ثلاثة: المدى الطويل، والمتوسط، والقصير. وخصص القسم الأول"Le part du milieu" 300. ص لدراسة كل ما يهم البيئة الطبيعية وتكيف الإنسان معها في مجال البحر المتوسط على مستوى الزمن الجغرافي أو المدى الطويل.

أنظر: F.Braudel: la méditerranée et le monde méditerranéen à l'epoque de Philippe II. T. 1, Paris, 1976.

أنظر كذلك الاستجواب الذي أجرته معه مجلة: "المكازين ليتيرير" (Magazine Literraire) عدد 212، نونبر 1984، ترجمة ونقله إلى مجلة بيت الحكمة، مصطفى المسناوي، عدد 5، أبريل 1987، ص 5-20 .

وإن أهم ما تتميز به حركة تعمير هذه المنطقة منذ القرن الخامس الهجري على الأقل (1)، ذلك الصراع الطويل الذي قام بين هذه القبائل المتنوعة الأصول، والذي أدى إلى توالي إفراغ وتعمير المجال لدى قرون عديدة من تاريخ المنطقة. وقد تولد عن ذلك نتيجتان هامتان: تعريب معظم ساكنة المنطقة، وكانت قبل الهجرة الهلالية والمعقلية إليها أرضا خالصة للزناتيين يسودها اللسان الأمازيغي دون غيره. أما النتيجة الثانية، فتتلخص في انقسام ساكنة هذه المنطقة إلى نمطين معاشيين مختلفين: سكان عمروا أحواض الأنهار ومنابع العيون المائية جنوب امتدادات الجبال الأطلسية الصحراوية فأنشأوا فيها الواحات الخضراء والقصور، وغرسوا النخيل وزرعوا الحبوب واحترفوا التجارة والصنائع اليدوية، وهذه الساكنة من أصل برابرة زناتة، انضافت إليهم عناصر عربية انصهرت معهم بالتدريج واستبدلت لسانها باللسان الأمازيغي، فأوجدوا بذلك مجالا جغرافيا للتجمع والاستقرار. ومن أجل الحفاظ على استمرار العيش في هذه المستقرات، سعوا إلى تنظيم المجال بإحداث مجموعة من النظم القانونية والسياسية والتقنية الصارمة تمحورت حول طرق استغلال الماء، الذي هو عصب الحياة في المجالات الصحراوية.

أما نمط العيش الثاني فتشكله القبائل العربية ومعها بعض القبائل الأمازيغية الزناتية المحتفظة بعيش الترحال. وقد تعربت هذه الأخيرة واندمجت مع القبائل العربية بفعل الغلبة والاحتواء. ولقد ساهمت نوعية وسائل العيش وتشابهه بين العنصرين في تسهيل عملية الاندماج (2). ومجموع هذه القبائل العربية

(1) حسب المعلومات التي أمدنا بها ابن خلدون.

(2) Gabriel Camps: Les berbères, mémoire et identité. Ed. Errance, Paris, 1987, p. 139

والمندمجة معها، تسيطر على مجالات الهضاب والجبال وصحاري المنطقة،بل تطوق عالم الواحات من الشمال والجنوب، ويقوم عيشها على سكنى الخيام ورعي الماشية. وكان للعوامل الطبيعية الطاغية كالجفاف الذي كاد أن يكون أزليا في كل المناطق الصحراوي دور في استمرار وسيطرة هذا النمط المعيشي الترحالي، وما زال هذان النمطان المعاشيان حاضرين في المنطقة المدروسة إلى وقتنا الحالي (1)، رغم ما تعرضت له حياة المجتمعين معا من تغيرات بنيوية عميقة متلاحقة تختلف وثائرها من مكان لآخر.

إن فهم العلاقة بين هذين النمطين المعيشيين في مستوياتهما المتعددة والمتشابكة وفهم استجابتهما لشح الطبيعة وكيفية تنظيمهما للمجال، يسهم بدرجة كبيرة في التفسير الصحيح لتاريخ المنطقة.

لقد أوضحنا في الفصل الثالث أن اختيار مجموعة من متصوفة المنطقة إقامة زواياهم في أماكن معينة لم تكن مجرد صدفة، بل خضعت لعدة اعتبارات، منها: الابتعاد عن مقرات السلطة المركزية (2) وعن الحواضر الكبيرة في الشمال، حيث يكثر جدل الفقهاء للمتصوفة ومراقبة سلوكاتهم وما يشاع عنهم من كرامات قد تكون مُجانبة لنصية الخطاب الديني السني. ومع أن كرزاز والقنادسة والأبيض سيدي الشيخ -إذا ما استثنينا بوسمغون- توجد كلها في أماكن مقفرة قليلة الماء، لكنها مع ذلك تحتل نقط عبور قوافل التجارة وتحيط بها قبائل رحلية كبيرة، ولقد ساهمت زوايا هذه المراكز الأربعة في إعادة تنظيم المجال في المنطقة بما صاحب

(1) لاحظ بروديل أن حياة الترحال كانت إلى عهد قريب وطوال القرون "علامة أساسية في حياة المجتمعات المتوسطية كلها" البحر المتوسط والعالم المتوسطي. إعداد مروان أبي سمرة، مجلة الاجتهاد، عدد 17، 1992، ص 188-189.

(2) أنظر: Houari Touati: Entre Dieu et les hommes lettrés saints et sorciers au Maghreb, p. 209.

تأسيس مقراتها من تطور عمراني، وتحولها إلى نقط جذب تغدو إليها وفود القبائل "بزياراتها" وتمر بها قوافل التجار والحجاج في أمان، فاستغنت الزوايا وكثرت أموالها. ورغم هذا الثراء فإن شيوخ هذه الزوايا وأعقابهم لم يتميزوا في عيشهم ومظهرهم ولا سكناهم عن شكل المعاش السائد في المنطقة ، وإن تاريخ هذه الزوايا لا ينفصل عن تاريخ باقي ساكنة المنطقة -من قصوريين ورحل- بما نسج بين الطرفين من علائق سياسية واقتصادية ودينية وثقافية وعلاقات المصاهرة استمرت لأكثر من ثلاثة قرون إلى تمام السيطرة الفرنسية على كامل المنطقة في أوائل القرن الحالي (1).

ويتبين من خلال الحركات القتالية للسلاطين العلويين الأوائل: (محمد والرشيد وإسماعيل) في اتجاه عمق تراب الجزائر الحالية، أن مفهوم المجال الترابي في نقط تماس تخوم الدولتين في ذلك العهد ما هو إلا ظاهرة سياسية متحركة غير جامدة، يخضع اتساعها أو تقصلها لدى قوة الدولة وإمكانياتها المادية والبشرية.

وقد تمكن العلويون وقبلهم السعديون من إثبات الهوية المغربية في قسم كبير من الهضاب العليا (الظهرة) وفي واحات القصور الجنوبية الشرقية المغربية لولا التدخل الأجنبي في منتصف القرن الماضي الذي أعاد تشكيل هذا المجال بالغزو واقتطاع الأراضي بمن فيها من القبائل والقصور لصالح الجزائر.

---

(1) استخلص "روس. أ. دان" فيما كتبه عن الزاوية القندوسية أن هذه الزاوية ضعفت اقتصاديا عند اضمحلال تجارة القوافل المارة بها فتحولت واحدة القنادسة إي مجرد سوق تجارية محلية في أواخر القرن التاسع عشر عندما احتلها الفرنسيون :

- Ross E.DUNN, Resistance in the desert, Moroccan responses to french imperialisme 1881-1912. tje university of wisconsin, Press. U.S.A, 1977, PP. 98-102.

وقد بينا أن هنالك مجالين ترابيين بجنوب المغرب الشرقي: مجال التراب الوطني الذي صارت معارف السلطة المخزنية بامتداده الحقيقي تضعف بالتدريج ابتداءا من أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، نظرا لضعف اتصالها المباشر مع القبائل وسكان القصور المحتلة لذلك المجال. أما المجال الثاني، فهو مجال تراب القبائل والقصور وهي على وعي تام به، ويتعرض بدوره مثل التراب الوطني للاتساع والانحسار، تبعا لقوة القبيلة من حيث عدد أفرادها وحجم تحالفاتها، وتنفرد بتنظيمه وتوزيعه فيما بينها بدون تدخل السلطة المخزنية إلا في أحوال صراعاتها الانقسامية الأكثر خطورة، أو عندما يتعرض هذا المجال القبلي -الوطني في آن معا للغزو والاقتطاع من الطرف الأجنبي.



فهرس الموضوعات





دار أبي رقراق
للطباعة والنشر